المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
بيت الحكمة

عدد 1
جانفي - جوان 2024

مجلّة الأكاديميّة التونسيّة

مجلّة المجمع التونسي «بيت الحكمة»، رقميّة سداسيّة

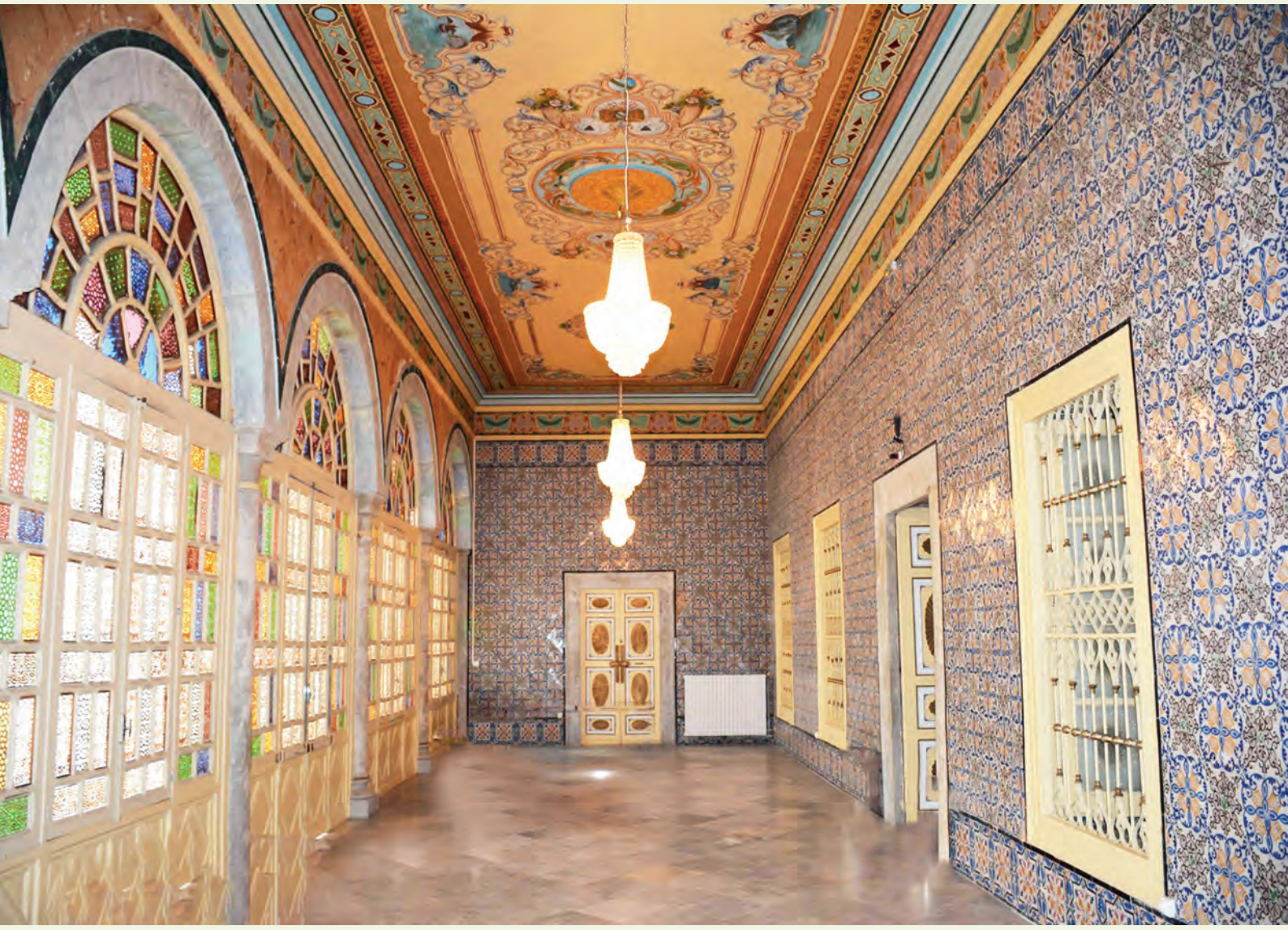

قاعة العرش : في هذه القاعة وقع الإعلان على الاستقلال الداخلي للجمهورية التونسية من قبل رئيس المجلس الفرنسي بيار منداس فرانس (Pierre Mendes France)، وذلك يوم 31 جويلية 1954.

ملفّ العدد : فلسطين

شخصيّة العدد : سعادة الدكتور طلال أبو غزالة

إصدارات جديدة

محور العدد القادم : هل تنحصر الحداثة في الغرب ؟

هيئة الإشراف

المنصف بن عبد الجليل
(رئيس الهيئة)

عز الدين العامري

نسرين مفرّج

هالة الورتاني

سليمة بن سالم

المشاركــون

عياض ابن عاشور

فوزي البدوي

توفيق بن عامر

منجي بورقو

جان جونيه

الهادي خليل

عبد المجيد الشرفي

عزالدين العامري

آسيا العتروس

مقداد عرفة منسية

محمّد الغزي

محمّد حسين فنطر

علي اللواتي

أنيس المؤدّب

مهدي المبروك

محمّد محجوب

فوزي محفوظ

عبد الحفيظ الهرقام

عبد الحميد هنية

المنصف الوهايبي

فهرس العدد

الافتتاحيّة

مقالة المراسلين

ملف العدد: فلسطين

شخصية العدد:
سعادة الدكتور طلال أبو غزالة

نشاطات الأقسام ووحدات البحث

إصدارات جديدة

أخبار المجمع

محور العدد القادم:

هل تنحصر الحداثة في الغرب؟

الافتتاحيّة

المنصف بن عبد الجليل

1

يصدر المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» هذا العدد الأوّل من مجلّته راجيا لها الاستمرار والاستقرار، بعد صدور أعداد سابقة في صيغ مختلفة أثارت ما أثارت من قضايا، وأشاعت ما أشاعت حول رؤية المجمع واهتمامات المجمعيّات والمجمعيّن التونسيّين. ويرى المجمع أن يشارك القرّاءَ التّفكير في ما يُطرَحُ من قضايا داخل البلاد وخارجها ممّا هو جدير بالنّظر والتباحث، هدفه في ذلك فتْحُ سبل بكر لتفهّم الظّواهر الحيويّة، ومراجعة الحقائق التي رسّخها الزّمن، واعتبار ما أتت به المعارف الجديدة والحديثة من إضافات أو منطلقات لم يفكّر فيها السابقون من أجيال المفكّرين والمبدعين والعلماء.

2

وتطمح المجلّة أن تكون نتاجا من صميم الرؤية التّونسيّة المنخرطة على مدى العصور في عقلانيّة المعارف، فتستلهم من إرثنا المتنوّع ما يناسب شواغلنا اليوم، وتُقِرُّ من خلال ما ينتجه أعضاؤها في شتّى المجالات بما تراكم في تاريخنا الحضاريّ من إبداعات قيّمة بحيث تتجلّى صور علماء الحواضر القديمة منذ التأسيس نابضة بالحياة ويظلّ أصحاب المدرسة القيروانيّة علماء ملهمين، ويبقى ذكر أعلام «المهديّة» ورجالاتها من عهد الفاطميّين حيّا أبد الدّهر، ويُخلَّدُ المصلحون الذين صاغوا الدستور ــ الحدث أيّامَ كانت الأمم الأخرى في غفلة عن قيم المساواة الإنسانيّة، منشغلة بمشاريع التوسّع وقهر الشّعوب مدّعية حماية الضعيف آنا، وفتح أبواب الحضارة أمام المتخلّف آنا آخر. إننا نرجو أن تكون هذه المجلّة نبتة طيّبة في حديقة الآداب والفنون والعلوم تسُرّ النّاظرين، وتبوح ببعض أسرار هذا الوطن الذي طرأ عليه من طرأ، واحتمى به من احتمى ممّن اضطرّ إلى ترك بلاده، وابتلي فيه من أبنائه من ابتلي، ولم يفقد أحد منهم

أملا، ولا أضاع وجهة، فكانت تونس لذلك مقاما طيّبا ودار قرارٍ على مرّ العصور، كما كانت معبرا وجسرا تلتقي على أرضه الحضارات وتتحاور بمخزونها من كنوز الفكر والأدب والثقافة، ورصيدها المتنوّع من الأعراف والتقاليد والألسنة. وإنّ من ثمار كلّ ذلك ما نغنمه اليوم: قدرة على الإبداع وتنوّع إن في المعمار، أو الفنون، أو الأدب وفي كلّ ما يسمو بالثّقافة وتفخر به الحضارة.

3

إنّ أعلام المجمع في فكرهم وكتاباتهم هم من المنتمين إلى تلك الثّقافة الواعية بتميّزها، وما مقالاتهم الواردة في هذا العدد إلاّ نتاج ذلك الوعي، وهم ــ سيّدات ورجالا ــ حملة مشروع حضاري يسعون إلى تحقيقه برؤية واضحة وحسّ نافذ.

ثمّ إنّ المجمع على صلة لا تنقطع بالمؤسّسات المماثلة له في أرجاء المعمورة ولا تنفصل رؤيته عن جديد المعارف والقيم الجارية لدى الأمم الأخرى، فللمجمعيّين عن الإنسان مفهوم واسع يعبّر عن شموليّته الكونيّة، والسبب أنّ غائية المعرفة كونيّة في جوهرها وأنّ الاقتراض ديدن كلّ كائن عاقل؛ ومن الطبيعي أن يكون التّواشج تامّا بين المحليّ في ذكائه وإبداعه، والكونيّ في جوهره الإنسانيّ، فلا يكون أحدهما إلاّ بالآخر تواؤمًا وتلازُمًا. وما التعدّد إلاّ عنوان الخصوبة والعمق، وما التنوّع إلا أفق من آفاق التعدّد، وفي كلّ حدّ من هذه الحدود تتشكّل الحقائق مثل بنات الوقت والسّياق، إلى حين تبرز غيرها من الأفكار فتترك لها المكان وإن طال الاقتناع برسوخها.

4

من هذا المنظور كان اهتمام العدد الأوّل بقضيّة هي من الشّأن العربيّ ذي البعد الكونيّ لأنّه شغل أمم العالم كلّها: فلسطين.

وقد كتب المشاركون، كلّ حسب اختصاصه، حول جانب من جوانب المسألة الفلسطينيّة: منها ما يتّصل بالتّاريخ ومنها ما يتعلّق بالمدن الفلسطينيّة، وغيرُها حول التقسيم والاستيطان، وأخرى عُنِيَتْ بإشكاليّة القانون الدّولي على محكّ الأحداث الجارية راهنا؛ وآثرت مقالات أخرى الخوض في المسألة الفنيّة والشعريّة كما عبّر عنها مبدعون فلسطينيّون. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا المحور قد حوى أيضا نصوصا إبداعيّة أحدها: قصيدة للأستاذ المجمعيّ عياض ابن عاشور عبّر فيها عن ارتباك القيم الإنسانيّة في ثنايا ما عُدَّ إبادة جماعيّة للشعب الفلسطينيّ، والآخر للمبدع والأديب المجمعيّ علي اللّواتي، وفيه ذات النّظرة والصّرخة. كما أدرجنا قصيدة عن فلسطين للمرحوم محمّد الغزيّ الشاعر وأستاذ الأدب بجامعة القيروان. ووشّح العدد بمقالات هي بين الفلسفة، ونقد جماليّة الصوّرة ومجال النّقد عموما: كتب محمّد محجوب عن الشأن اليوميّ الفلسطينيّ متأمّلا في حذاء مرمي، وقد بقي أثرا شاهدا على عين مات/ماتت. وحرّر الهادي خليل مقالا عن الصورة الفلسطينيّة المروّعة بين صبرا وشاتيلا وغزّة؛ وتضمّن هذا القسم أيضا نصّا مترجما ألّفه جان جونيه «الفلسطينيّون»، وعرّبه الهادي خليل أيضا. وذُيِّل المحور بحوار أجريناه مع شخصيّة العدد، الدكتور طلال أبو غزالة استقراءً من خلاله للشّخصيّة الفلسطينيّة في جلّ أبعادها التي يحملها هذا العلم ابن يافا.

5

ولا تُخْفي هذه المقالات التي حرّرها مجمعيّون تونسيّون وآخرون من خارج البلاد كجنوب إفريقيا، المساندة الأكاديميّة والفكريّة للحقّ الفلسطينيّ، من حيث هو حقّ إنسانيّ في جوهره؛ هو حقّ في الحياة، وحقّ في الأمن والسّلامة الجسديّة، وحقّ

في الحريّة، وحقّ في الكرامة الإنسانيّة، فضلا عن الحقوق الأساسيّة الأخرى التي أقرّتها القوانين الدّوليّة، وسائر الدساتير في كلّ البلدان تقريبا. وإذْ تعبّر المقالات كلّها عن هذه المساندة بكلّ توابعها الأخلاقيّة والفكريّة، فإنّها تبوح أيضا بأنّ المجمع لا يُغفل التّفكير في الظّواهر الحارقة والأزمات التي تطرأ على المجتمعات والشعوب بغضّ النّظر عن انتمائها وجنسها وديانتها ولونها ولسانها، وهي هنا أيضا رؤية ذات بعد كونيّ يتّصلُ بجوهرَ الإنسانيّة الذي دافعت عنه حداثة «الأنوار» والفلسفات المبشّرة بمنزلة إنسانيّة كريمة وراقية وإن كانت المقالات، هنا، تتّخذ من فلسطين بالذّات مثالا خاصّا عن الانتهاك الصّارخ لكلّ قيمة إنسانيّة. ولعلّ المأمولَ أن تتفطّن المجتمعاتُ المعاصرةُ الّتي بشّرت أجيالها السّابقة بتلك القيم الإنسانيّة الكونيّة، إلى أنّها بصدد فقدان ما بشّرت به أو العدول عنه على الأقلّ. إنّ مثل هذه الحرب الدّائرة التي لا تبقي ولا تذر ضدّ مجتمع جلّه مدنيون عزّل وأطفال ونساءٌ وشيوخ عجّزٌ، إنّما هي حرب إبادة بشعة، ولا يمكن للمفكّر أن يصمت أمام هذا الجنون الذي يصيب السّياسيّين المالكين للقوّة ويشير بالإصبع إلى أمم وجّهت البحث العلمي والرّقي التقني وجهة إبادة الإنسان والطبيعة والحضارة. إنّ هذه المقالات بما اشتملت عليه من تحليلات وآراء إنّما هي صرخةٌ ضدّ ظلم الإنسان ودعوةٌ قويّة إلى إنقاذ الإنسان من كارثة قَلّ أنْ شهد التّاريخ مثلها؛ وقد يجد القارئ في ثنايا هذه الكتابات رأيا يقول: «إنّ الإنسان في خطر... فليحرّر نفسه من هول الإبادة وسلطان الهيمنة»! لعلّ ذلك ما دفع جموع النّاس وجحافل الطلبة والأكاديميّين في أنحاء العالم إلى الخروج ليلا ونهارا منادين بالحريّة، لا فرق بينهم في العقيدة واللون واللّسان والجنس والحضارة.

وتجمع المقالات كلّها في هذا المحور أيضا على مساندة ثقافة مهدّدة بالزّوال، ثقافة فلسطين في أخصّ تفاصيلها، وأدقّ جزئيّاتها، وواقعها اليوميّ البسيط. إنّها هبّة إنسانيّة في وجه الظّلم والتعدّي على القيم، جمعت بين شعوب المعمورة. لذلك يظنّ المفكّرون اليوم، وكذا تقول مقالات هذا العدد، إنّ هذه الحرب الشّرسة منعرج خطير ونقطة تحوّل في تاريخ الإنسانيّة والعالم.

6

ويظفر القارئ بأركان أخرى من العدد وستبقى ثابتة في كلّ الأعداد القادمة: أخبار المجمع، وتقديم أنشطة الأقسام، ومشاريع الفرق البحثيّة، وتقديم لبعض المنشورات الجديدة عسى أن تكون هذه النوافذ بابا إلى مزيد الاتّصال بالأكاديميّين في أنحاء المعمورة، وبالمؤسّسات العلميّة والمجامع في كلّ البلدان؛ وما فضيلة ما ينشر ويرسل من الأفكار والآراء إن لم تصل إلى النّاس لتقاسمهم سؤال اللحظة ورهان العصر، إذ بالرّدود والنّقاش نغتني جميعا، مجمعا تونسيّا ومجمعيّين أعيانا.

والأمل أن نفكّر معا من أجل أن تكون المعرفة أعمق إنسانيّة.

فلسطين فلسفيّا؟

المعزّ الوهايبي(*)

ديباجة

لئن بات ممكناً الحديث عن صحوة نلحظها تتنامى، بتفاوت لا محالة، لما يمكن أن نسمّيه «الضّمير الفلسفيّ»، على نحو ما تشي بذلك مثلاً العريضة التي وقّعها في نوفمبر الفارط أكثر من مائتي أستاذ فلسفة من أمريكا الشّماليّة ومن أمريكا اللاّتينيّة ومن أوروبا تحت عنوان «فلسفة من أجل فلسطين»[2]، وقد ذكّروا فيها بأنّ اختصاصهم مطالَب بأن يواجه الممارسات

(*) أستاذ الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة القيروان.

2 – العريضة منشورة على موقع «جمعيّة الجامعيّين من أجل احترام الحقّ الدّوليّ في فلسطين (AURDIP).

التّاريخيّة التي لا تنفكّ تستبعد الفلسفة، فدعوا إلى الانخراط مباشرة في النّضال ضدّ المظالم المتلاحقة. ومن أجل هذه الغاية وجّهوا نداء إلى زملائهم للالتحاق بهم لمغالبة التّواطؤ والصّمت. إذن، لئن بات ممكنا الحديث عن مثل هذه الصّحوة، فإنّ هذه الورقة ترمي إلى أن تسائل بعض ضروب «القول الفلسفيّ» عن فلسطين قبل العدوان الأخير على غزّة والتّمادي في الإبادة الجماعيّة؛ وهي، أي هذه الورقة، إذ تسائل هذه الضّروب من «القول الفلسفيّ» إذا ما كانت ترتقي حقّا إلى مستوى «مَفْهَمَة» conceptualisation فلسطين فلسفيّا أو ما إذا كانت مجرّد تبرئة للذّمّة أتيقيّا، إنّما تفعل ذلك سعياً إلى ترسّم خارطة فلسفيّة أوّليّة لفلسطين نأمل أن تتوفّر لها فرصة تدقيقها والتّوسّع فيها في مناسبات لاحقة. والواقع أنّ هذه الورقة لا يمكنها أن تستند إلى فيض الأطروحات والمقالات الأكاديميّة حول فلسطين الذي لا ينفكّ يتدفّق في العقود الأخيرة في تقابل «الانكماش» الجغرافي بسبب توسّع الاحتلال.

ولذلك فإنّها مضطرّة إلى أن تعتمد، على نحو انتقائيّ، «مدوّنة» مختصرة جدّا[1] نقدّر أنّها تناسب الطّرح الإشكاليّ الذي نقاربه هاهنا: ما مدى «مفهمة» فلسطين فلسفيّا؟

* * *

فلسطين على أرض الفلسفة

يقتضي الأمر إذن ترسّم إمكان العلاقة بين فلسطين والمفهوم الفلسفيّ. ويمكن من جهة استحضار مضمون هذا المفهوم، على نحو ما يبلوره «جيل دولوز» الذي نستأنس في هذه المناسبة بموقفه من القضيّة الفلسطينيّة، التّذكير بأنّ «المفهوم الفلسفيّ يكتسي بالأساس وظيفة دقيقة تماما في الفلسفة حيث لا نبتدع مفاهيم إلاّ في علاقة بمشاكل نقدّر أنّنا شخّصناها على نحو سيّء أو طرحناها على نحو سيّء»[2]. فالمفهوم لديه هو بمثابة الخارطة التي تحتوي أمارات من شأنها أن تهدينا إلى إمكانات الخروج، هي أمارات متاهة التّجربة لا محالة، فيكون الأمر معقودا في هذه الخارطة على منظومة الإحداثيّات والجهات الأصليّة. ويبدو أنّ «جيل دولوز» كان، وهو يتدبّر في بعض نصوصه وحواراته القضيّة الفلسطينيّة، إنّما كان يسعى إلى ابتداع مفهوم يعدّل به سوء طرحها.

يلاحظ «جيل دولوز»[3] أنّ على الولايات المتّحدة الأمريكيّة وأوروبا دَيْن بقسمة لليهود، وقد جعلوا شعبا ليست له أدنى علاقة بالأمر يدفع هذا القسط، هو شعب بالأخصّ بريء من كلّ هولوكوست ولم يسمع عنه. هاهنا تبدأ البشاعة، بقدر ما يبدأ العنف. فالصّهيونيّة، ثمّ دولة إسرائيل تشترطان أن يعترف لهما الفلسطينيّون بالحقّ، في حين أنّ، دولة إسرائيل لم تكفّ عن نفي وجود شعب فلسطينيّ إنّها لا تتحدّث البتّة عن شعب فلسطينيّ، وإنّما عن عرب فلسطين، كما لو أنّهم وُجِدوا هناك صدفة أو خطأً. ثمّ لاحقاً تتحدّث كما لو أنّ الفلسطينيّين المطرودين جاؤوا من خارج (...) إنّ إسرائيل لم تُخف هدفها منذ البداية: إقامة الفراغ في الأرض الفلسطينيّة. فالأمر أكثر من الاحتلال، إذ ما ابتُلي به الفلسطينيّون، على نحو تقوله الخارطة المفهوميّة لدولوز، هو «إجلاؤهم، طردهم (...). إنّ تاريخ الصّهيونيّة وإسرائيل كما تاريخ أمريكا قد مرّ من هنا: كيف نقيم الفراغ، كيف نفرّغ شعباً؟

وهم مطرودون من أرضهم، أقام الفلسطينيّون حيث يستطيعون على الأقلّ أن يروها بعدُ، أن يحتفظوا برؤيتها كما أنّها آخر اتّصال بكيانهم وقد سُلّطت الوساوس. فليس بوسع الإسرائيليّين أن يدفعوا بهم إلى أبعد من ذلك، أن يُغرقوهم في اللّيل وفي النّسيان»[4].

4 - Gilles Deleuze, *Deux régimes de fous*, p.181.

1 – اكتفينا في هذه الورقة بنماذج من القول الفلسفيّ، في فرنسا، وأرجأنا إلى مناسبات أخرى نماذج من بلدان غربيّة أخرى، بل ومن فرنسا نفسها مثل «روجي غارودي» و«أدغار موران» و«آلان باديو»، وغيرهم.

2 - Gilles Deleuze, Félix Guattari, *Qu'est - ce que la philosophie?*, Les Éditions de Minuit, 1991, p. 22;

3 - Gilles Deleuze, *Deux régimes de fous Textes et entretiens 1975 - 1995*), Les Éditions de Minuit, 2003, p. 222.

إذا كان «جيل دولوز» وهو يقدّم نقدا لاذعا للمشروع الصّهيونيّ، يستنطق مفهوميّا هذا المشروع، على نحو ما نتبيّن ذلك في كتابه «نظامان للمجانين» بشكل جليّ، خاصّة وهو يبلور كيف أنّ المشروع الصّهيوني يحوّل «أكبر إبادة جماعيّة إلى شرّ مطلق حسب رؤية دينيّة لا تفعل غير أن تطلق الشّر ولا توقفه لأنّها ليست رؤية تاريخيّة. وهي لذلك تسلّط الشّر على أبرياء آخرين، فإنّه إذ يصم إسرائيل نفسها بكونها مصدر الشّرّ إنّما هو يلحق بها هذا الوصم تاريخيّا.

التّعاطف مع فلسطين: الارتباك الهوويّ

أمّا موقف «جاك درّيدا» فيثير التّساؤل عمّا إذا كان الأمر يجري لديه مجرى من يفلسف وضعا محرجا أو إذا ما كان منضويا إلى تدبّر سيرة ذاتيّة متفرّدة ضمن انتسابه إلى الطّائفة اليهوديّة. نعم، لقد ظلّ موقفه ثابتا بشكل واضح، لكنّه موقف مثير، فهو معقود على طرفين متقابليْن في الوقت نفسه: انشداد لا يُفكّ إلى كلّ طائفة يهوديّة، بغضّ النّظر عن التّعدّي على الفلسطينيّين؛ وتعاطف كبير، من جهة ثانية، مع القضيّة الفلسطينيّة، لكن دون إفرادها على نحو شجاع بالأحقّية التّاريخيّة في الأرض. فتبنّيه مثلا لفكرة أن تكون القدس مدينة لكلّ الدّيانات التي تتنازعها يدرجه، في تقديرنا، في خانة الحلول الدّيبلوماسيّة لا في سياق الأشكلة الفلسفيّة. وبالفعل، نلاحظ أنّ «جاك درّيدا» لم يخصّ الفلسطينيّين، ولا الصّراع الإسرائيليّ الفلسطينيّ أو الإسرائيليّ العربيّ بدراسة على حدة. فالمأساة الفلسطينيّة لم تشكّل محورا متواترًا في عمله. إنّما هو يعود إلى الفلسطينيّين، بإلحاح وحيرة، في العقدين الأخيرين من حياته، وفي الغالب ضمن تعقّبه التّأويليّ لمحطّات من سيرته الذّاتيّة.

ورغم ما يلاحظه كاظم جهاد من أنّ «درّيدا» قد وفّر للفلسطينيّين الإقامة في الخطاب الفلسفيّ في وقت كان فيه اسم الفلسطينيّين يكاد لا يُنطق أو يُسمع، وحوّل شغل الفكر إلى تضامن فعّال وإلى اهتمام موصول بالحدث، وهذا في الأخير هو عطاء «درّيدا» للفلسطينيّين ولكلّ فكر مهموم بالإنصاف والعدالة»، حسب رأيه[1]. رغم هذا التّثمين، فإنّ موقف «درّيدا» لا يتطوّر في اتّجاه الجزم فكريّا، وإنّما ظلّ في مستوى التّحيّر أوتوبيوغرافيّا، فهو يقول متحدّثا عن «جون جينيه»: لقد أخبرني أنّه كان في بيروت، لدى الفلسطينيّين تحت الحرب، المبعدين المحاصَرين»، ثمّ يضيف : «أعرف أنّ ما يعنيني له مكانه هناك دائما، لكن كيف أبيّنه؟»[2]. ونلاحظ أيضاً أنّ درّيدا يُدرج القضيّة الفلسطينيّة في كتاباته متأخّرا نوعا ما، وهو يدرجها في إطار اتمامه بمسائل كبرى حيث يبيّن مزايا علاقته النّقديّة بالمجموعات التي يُحسَب عليها (انتماء حسب نمط اللاّانتماء). فهو يرى الأمر، ولئن كان يشغله حقّا، مثيرا لليأس، طالما يدور حول مسائل تراجيديّة وجهنّميّة : المحرقة، إسرائيل، فلسطين، إلخ[3]. هذا ما يدفعنا إلى ترجيح أنّ «درّيدا» وهو يستحضر القضيّة الفلسطينيّة إنّما يقاربها على ضوء موضوعات أخرى قد تكون لديه مدخلا يصفّي من خلاله حسابا مع نفسه. وهي لا محالة موضوعات تؤثّر في تعاطيه مع القضيّة الفلسطينيّة. إلاّ أنّ ما يشدّ انتباهنا (في حدود اطّلاعنا على بعض أعماله) أنّه حتّى وهو يرفض احتكار الألم من قبل جماعة دون غيرها، أو تحوّز مقام الضّحيّة أو النّاجي من العنف الأقصى، لم يصل إلى حدّ الاعتراف للضحيّة الفلسطينيّة بحقّ المقاومة. فإصغاء «درّيدا» إلى شكوى الفلسطينيّين يتعالق في انسجام مع نقده شبه الدّائم لبعض أذهان اليهوديّة وللسّياسات الإسرائيليّة المتعاقبة، بل للطّريقة نفسها التي تأسّست بها دولة

1 - Kadhim Jihad Hassan, «Les Palestiniens dans la pensée de Jacques Derrida»; *Rue Descartes*, 2016/2; n°89 - 90; p. 230.

2 - Jacques Derrida, *Glas*, 1981, p. 50.

3 - Jacques Derrida, Elisabeth Roudinesco, *De quoi demain… Dialogue*, Éditions Champ Flammarion; 2003, p. 184.

إسرائيل[1]. وعليه، فإنّه يبدو أنّ ما يعنيه بالأساس هو تدبّر انتسابه اليهوديّ على نحو يتيح له أن يتفصّى من عبء مسؤوليّة الكيان الغاصب دون الذّهاب إلى تحويل تعاطفه مع الفلسطينيّين إلى إقرار لهم بحقّ النّضال. ولنا أن نستحضر ما يقوله في إحدى مراسلاته مع الكاتب والسّينمائيّ «كلود لنزمان»: «لا تظنّ أنّ تيقّظي النّقديّ أحاديّ الجانب. فهو أيضاً حيويّ بالنّسبة إلى معاداة السّاميّة أو بالنّسبة إلى ضرب ما من معاداة الأسرلة، وهو أيضاً حيويّ إزاء سياسة معيّنة لبعض دول الشّرق الأوسط وحتّى إزاء السّلطة الفلسطينيّة [...]، دون الحديث طبعا عن «الإرهاب». لكن أعتقد أنّه من مسؤوليّتي أن أظهرَه إلى جانب من أنا، بحكم «الوضعيّة»، معنيّ بالانتساب إليه: فالمواطن الفرنسيّ الذي هو أنا يُظهر على الملأ انتباها نقديّا في ما يخصّ السّياسة الفرنسيّة أكثر من سياسة أخرى، في الطّرف الآخر من العالم. إنّ «اليهوديّ» إذا ما كان أيضاً منتقدا لسياسات أعداء إسرائيل، فعليه أن يتمسّك بأن يعلن حيرته أمام سياسة إسرائيليّة معيّنة تضع في خطر أمن وصورة أولائك الذين هي معنيّة بتمثيلهم»[2]. ربّما كان في ذلك على خطى «سبينوزا» في علاقته الملتبسة باليهود، ربّما!

الحياد قناعاً للانحياز

قد لا نشطّ في القول عندما نلاحظ أنّ موقف «سارتر» من «الصّراع الإسرائيليّ – الفلسطينيّ» خلوٌ من أيّ مضمون فلسفيّ. بل قد يكون مناقضا لمقولاته الكبرى عن الالتزام والحرّيّة. فإذا كان قد تراجع عن التّشخيص الذي قام به في 1946 ضمن دراسته تأمّلات في المسألة اليهوديّة حيث يقول: «لا يوجَد تاريخ يهوديّ [...] وإنّما معاداة السّامية هي التي تصنع اليهوديّ [...] هذا ما يُكره اليهوديّ على أن يكون يهوديّا رغما عنه»[3]. ومدلول هذا القول هو أنّ الشّعب اليهوديّ، حسب تأمّلاته في تلك الحقبة، كيان سلبيّ، ولم يكن شعبا قد تكوّن تاريخيّا وثقافيّا. بل إنّ «سارتر» سيلاحظ بأنّ «الشّعب اليهوديّ وقد حظي بدولة فإنّ قيام دولة فلسطينيّة سيُعتبَر واحدا من أهمّ الأحداث في عصرنا، واحدا من الأحداث التي تسمح بضمان الأمل»[4]. وإنّه ليعنينا طبعا أن يكون «سارتر» مناصرا للقضيّة الفلسطينيّة ضمن تأمّل نقديّ في تاريخ مزعوم «للشّعب اليهوديّ»[5]، لكن أن ينقلب على هذا التّبصّر في هذا التّاريخ وأن ينتصر لدولة إسرائيل مبرّرا ذلك بأنّ وضع اليد على أرض لشعب آخَر قد غدا أمرا واقعا، فإنّ ذلك لا يعدو أن يكون غير تخلّ عن ضمير الفيلسوف (غيرنا قد يصفه بالسّماجة)، فهو يقول في افتتاحيّة العدد الخاصّ (235 bis) من مجلّة Les Temps modernes، جوان 1967 عشيّة حرب الأيّام السّتّة الذي أفرده للصّراع الإسرائيليّ – الفلسطينيّ: «لقد أقام الإسرائيليّون في إسرائيل. إنّ لهم أبناء، بل منهم من له أحفاد من الرّوّاد. هؤلاء الذين وُلدوا على هذه الأرض، والذين ليس لهم مكان في الخارج، قد تعلّموا حرفة، إنّهم يشتغلون. فلهم الحقّ في السّيادة على هذا البلد». وهو يستأنف في نفس الافتتاحيّة بأنّ «العرب المطرودين[6] يعيشون في ظروف سيّئة، وأحفاد مسكونون، عن حقّ، بفكرة العودة إلى فلسطين». ويستخلص: «أكرّر، لا نستطيع أن ننتزع السّيادة من الإسرائيليّين

1 – لنا أن نذكّر بأنّ «دريدا» سيؤكّد في L'écriture et la différence (1967) أنّ اليهوديّة لا تحتاج دولة قوميّة، فالأفضل أن يُحفظ النّداء والحرّية لديها في حضور فعّال عبر العالَم.

2 – أورده Thierry Briault, https//www.lessemeurs.com

3 - Jean - Paul Sartre, *R»flexions sur la question juive*, (1946) Gallimard (Folio - essais), 1985, p. 23.

4 - *Ibid*., p. 25.

5 – طبعا سيغتنم سارتر فرصا لاحقاً لينسّب أحكامه في هذه الدّراسة متلمّسا الأعذار لسياق كتابتها (انظر Michel Contat, Michel Rybalka, *Les Ecrits de Sartre, Chronologie, bibliographie commentée*; Gallimard, 1970).

6 – سيلاحظ جيل دولوز أنّ هذه التّسمية مقصودة لتفادي ذكر «الفلسطينيّين» (انظر)

لأنّهم في فلسطين منذ أجيال ولأنّهم لا يستغلّون استعماريّا البلد[1].

في التّعامي فلسفيّا عن فلسطين

أن يكون التّعاطف حقّا لفلسطين على الآخرين، فليس ذلك من قبيل الإنصات إلى شكوى المظلوم، خاصّة عندما يكون المصغي فيلسوفا حيث يتحوّل الإصغاء إلى ضرب من الاستغيار empathie بما هو مسؤوليّة أتيقيّة. فالتّعاطف يغدو رافعا للغشاوة عن العيون؛ ولنا أن تستحضر هاهنا التّذكير الذي قامت به الصّحفيّة «كاترين كارون» لعبارة واردة في **بؤساء** «فيكتور هيغو»، وهي تشجب، في 2014،العدوان الإسرائيليّ «فلسطين: من لا يبكي لا يرى»[2]. نسوق هذه الملاحظات ونحن نعاين ضمورا في الموقف لدى فلاسفة مجايلين لـ «جيل دولوز»، من بينهم مثلا و«ميشيل فوكو» و(نكتفي في هذه المناسبة بذكر «فوكو» فقط لكونه قد عُرف بالاشتغال فلسفيّا،بطريقته لا محالة، على مقولة السّياسة، وعلى فكرة السّلطة وقد انخرط تخصيصا في تجربة الالتزام). وهو يبدو كمن يصرّ على عدم الاكتراث بالمسألة الفلسطينيّة. ولنا أن نستحضر شهادة «أدوارد سعيد» التي يستحضر فيها كيف تمّت دعوته من «سارتر» سنة 1979 ليحضر ندوة تنظّمها مجلّة Les Temps modernes حول فلسطين[3]، وكيف أنّ «ميشل فوكو» انسحب قبل الاجتماع مفيدا بأن ليس له ما يقول في الموضوع[4]. إلاّ أنّ ذلك لا يعني إلاّ أمرا واحدا وهو أنّه كان مناصرًا لإسرائيل على حساب فلسطين[5].

خاتمة

الفقرة الأخيرة من هذه الورقة وهي تشير إلى تعامي فلاسفة معروفين باشتغالهم على السّياسيّ وعلى فكرة السّلطة، نظير «فوكو»، لا تذكّر فقط بضرورة أن نرى وجوها أخرى لفلاسفة نوظّفهم في بحوث وقراءات مختلفة، وإنّما هي التي تسوّغ لنا أن نختم بالدّعوة إلى أن يعوّل «العقل العربيّ» على نفسه إذا ما رام أن يفلسف فلسطين حقّا، لا على سبيل المحاكاة لما يجريه فلاسفة غربيّون من إدراج للهولوكوست ضمن القول الفلسفيّ، فذاك إجراء يندرج عموما في إطار الدّعوة لإسرائيل.

لكن أن يفلسف العقل العربيّ فلسطين مشروط بقدرته أوّلاً على أن يفلسف وجود العرب نفسه!

1 – هذا ردّ منه على «مكسيم رودنسون» الذي نشر في نفس العدد مقالا يقول فيه «إنّ تكوين دولة إسرائيل على الأرض الفلسطينيّة هو أوج مسار يندرج تماما في حركة التّوسّع الأمريكي – الأوروبي للقرنين التّاسع عشر والعشرين من أجل أن يسكنوا أو يهيمنوا اقتصاديّا وسياسيّا غلى الأراضي الأخرى».

2 - Catherine Caron; «Palestine: qui ne pleure pas ne voit pas», *Relations*; n° 774, septembre - octobre 2014, Editorial, p. 3.

3 - *Le Monde diplomatique*, septembre 2000, p. 4.

4 – هذا ما يخلص إليه Joseph A. Massad, *La persistance de la question palestinienne*, Éditions La fabrique, 2009, p. 86..

5 – انظر ما يذكره «ديديي أريبون» من أنّه في إطار لجنة الدّفاع عن حقوق المهاجرين، عادة ما يحتدّ التّوتّر بين عمّال عرب من «لجان فلسطين» وبين «فوكو» عندما يعبّرون عن تمنّيهم أن يتوسّع التّشهير بالعنصريّة ليشمل إسرائيل، فيقول: «لكن «فوكو» كان من جهته، مثل «سارتر»، مناصرا متشدّدا لإسرائيل»

Didier Eribon, *Michel Foucault*, Éditions Flammarion, 2001, p. 377.

فلسطين

مفاتيح لفهم الصراع في فلسطين

عبد المجيد الشرفي(*)

لا مراء في أنّ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي صراع سياسي بالأساس حول مَن لَهُ الحقّ في امتلاك أرض فلسطين. وهو يستمد جذوره من ثلاثة عوامل رئيسية هي: أوّلا سعي النخب اليهودية في ألمانيا وأوروبا الوسطى والشرقية في أواخر القرن التاسع عشر إلى التخلص من الاضطهاد الذي كانوا ضحيته في هذه المنطقة، ومما اعتبره قسم من هذه النخب فشل سياسة الاندماج في المجتمع دون تمييز والتي دشنتها الثورة الفرنسية وباركتها الفئات المحظوظة من الجاليات الأوروبية، الألمانية بصفة خاصة. فكان الحلّ الذي ارتأته الحركة الصهيونية بزعامة «هرتزل» (Herzl) هو النسج على المنوال الصاعد آنذاك في نشأة القوميات، كما هو الشأن في ألمانيا وإيطاليا بالخصوص، وهو تكوين الجاليات اليهودية لقومية خاصة باليهود على بقعة أرضية معيّنة. ولذلك طرحت فكرة تكوين هذه القومية في إفريقيا أو في أمريكا، قبل أن يستقر الاختيار على فلسطين. وفي كل الحالات لم يكن الصهاينة يعبؤون بمصير السكان الأصليين في المناطق التي فكّروا في إقامة دولتهم فيها، أسوة بما كان القاعدة في تعامل المستعمِرين الأوروبيين الآخرين مع الشعوب المستعمَرة، أي إنها إما أن تصفّيَ هذه الشعوب جسديا كما حصل لسكان أمريكا الأصليين، وإمّا أن يتمّ إخضاعها بالقوة والإبقاء فقط على من يقبلون منزلة دونية وشكلا من أشكال الاستعباد.

أمّا العامل الرئيسي الثاني فهو حسابات الاستعمار البريطاني، وتتمثّل في زرع جسم غريب في قلب المنطقة العربيّة يكون رأس حربة للمصالح البريطانية الحاضرة آنئذ في

(*) مجمعيّ وأستاذ الحضارة العربيّة الإسلاميّة بكلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات، جامعة منّوبة رئيس المجمع التونسي «بيت الحكمة» سابقا.

مصر والعراق، ويمنع شعوب تلك المنطقة إذا ما اتّحدوا من أن يهددوا الوصول بأقل التكاليف إلى المستعمرة الهندية الأساسية وقتها، فضلا عن ضمان ديمومة الاستغلال لثرواتها ولا سيما الباطنية منها، وقد اكتشفت حديثا. ومن المعروف أن سياسة «فرّق تسد» كانت دعامة قارة للامبريالية البريطانية حيثما وجدت، فضلا عن أنّ العداء للعرب المسلمين يغذي اللاوعي الأوروبي منذ استيلاء المسلمين إبان فترة الفتوح على مهد الديانة المسيحية التي انتشرت في الغرب، كما تشهد على ذلك الحروب الصليبية التي دام فيها الاحتلال المسيحي الغربي للأراضي العربية قرابة القرنين.

ويتمثل العامل الرئيسي الثالث في ما استقر في الضمير الغربي من معاداة السامية عموما. فقد كانت رواسب الموقف المسيحي التقليدي حاضرة في الأذهان رغم ما شهدته أوروبا من ابتعاد متزايد عن النفوذ الكنسي. فلا ننسى أنّ الكنيسة كانت تعتبر الشعب اليهودي شعبا قاتلا للرب (un peuple déicide) وأنّ هذه الجريمة ليست مقتصرة على معاصري يسوع المسيح بل هي متوارَثة في اليهود عبر الأجيال. ولذا فقد

خارطة فلسطين اصدار مجلة ناشيونال جيوغرافيك عام 1947
قبل النكبة بعام ولاذكرلدولة الاحتلال
ساهموا بنشرها علي اوسع نطاق

كان اضطهادهم وإرادة التخلص منهم بشتى الوسائل من تنصير قسري وطرد وحشر في غيتوات (ghettos) سلوكا قارا في تاريخ الغرب المسيحي كله[1] . فلا يُستغرب أن تلقى فكرة تكوين اليهود لدولة خاصة بهم تجمع شتاتهم ترحيبا في الضمير الغربي بما أنها ستريح الغربيين نهائيا من وجودهم بين ظهرانيهم.

أمّا أنّ قيام الكيان الصهيوني كان الحل لتجنّب محرقة أخرى بعد تلك التي نالت اليهود على يد النازية فتبرير متأخّر للسياسة الإسرائيلية والأمريكية، ولم يكن البتّة في منطلق الإيديولوجيا الصهيونية، كما تُوهم بذلك آلتها الدعائية. إلا أن بناة الكيان الصهيوني في فلسطين – ولم يكونوا في أغلبهم متدينين – حرصوا على تبرير احتلالهم تبريرا دينيا، على أساس أنّ اليهود هم أحقّ من سكّان هذه الأرض الحاليين بامتلاكها لأنهم أطردوا منها حسب زعمهم، فهم إذن إنما يعودون إلى أرضهم وليسوا أجانب عنها، من ناحية، ولأنّ فلسطين هي «الأرض الموعودة من الله لشعبه المختار»، كما ورد في الأسفار المقدّسة[2]، من ناحية ثانية. ولذلك قام علماء الآثار من اليهود ومن المسيحيين – الأمريكان بالخصوص – بجهود جبّارة في البحث عن شواهد تاريخية حاسمة للوجود اليهودي الذي روته تلك الأسفار. لكن بدون طائل. بل تبيّن لهم جميعا أنّ السردية التوراتية لا صلة لها بالواقع التاريخي، وأنها رواية ميثية متأخّرة عن الفترة التي تقصّها، وُضعت لأغراض إيديولوجية ولتبرّر بُنَيَة لاهوتية لاحقة للغزو البابلي ومتأثرة بالمقولات السائدة في الإمبراطورية

1- هذا ما اعترفت به صراحة مجموعة من مائة وخمسين مسؤولا كاثوليكيا في البيان الذي نشرته بجريدة *La Croix* الفرنسية بتاريخ 2 أفريل 2024.
2- هذه العبارة غير موجودة في التوراة بهذا الشكل، رغم ترددها بكثرة في الأدبيات الحديثة.

الفارسية وقتها. واعترف المنصفون من هؤلاء المؤرخين بهذه الحقيقة الدامغة[1]. ورغم ذلك فإنّ الدعاية الصهيونية لم تنفك تردّد تلك الأساطير[2] وتعمل على ترسيخها لدى اليهود في أذهان الشبان منذ نعومة أظفارهم في مناهج التعليم، وبشتى أنواع التأثير حتى أضحت لدى أغلبية المستوطنين من الحقائق التي لا يرقى إليها الشك، مثلما تعمل على ترسيخها لدى الرأي العام الغربي الحاضن للوجود الاسرائيلي.

وكما أنّ الإيديولوجيا الصهيونية مستحدثة في أوساط اليهود أنفسهم فإن تأييدها من قِبَل المسيحيين الغربيين، ولا سيما الأمريكان، جديد نسبيا هو كذلك. ويعود في المجتمعات البروتستانية إلى انتشار التيار المسمّى «إنجيليا» (évangélique) في هذه الأوساط بدعم من أقصى اليمين ومن رؤوس الأموال المحافظة والمرتبطة بالرأسمالية المتوحشة. فالإنجيليون، المشهورون خصوصا بمناهضتهم للإجهاض وبتأويلهم الحرفي لما جاء في العهد القديم متعلقا بتاريخ الخلق، والذين اكتسحوا مساحات هامة ممّا كان الميدان الذي تحتكره الكاثوليكية في أمريكا الجنوبية وحتى في إفريقيا جنوب الصحراء، هؤلاء الإنجيليون يعتقدون أنّ من واجبهم تشجيع كلّ ما يسارع في تجميع اليهود في فلسطين باعتباره الشرط الضروري الموعود لرجوع المسيح في آخر التاريخ البشري على الأرض، وإذ ذاك سيؤمن به أولئك اليهود المجتمعون في الأرض المقدّسة.

1- يمثّل كتاب *The Bible Unearthed* لـ Israël Finkelstein, Neil Asher Silberma الدراسة الكلاسيكية لنتائج البحوث الأركيولوجية العلمية التي تبيّن عدم صدقية الرواية التوراتية، وقد صدر سنة 2001، ثم صدرت الترجمة الفرنسية سنة 2002 بعنوان *La Bible dévoilée*، وترجمه سعد رستم إلى العربية ونشره بدمشق تحت عنوان «التوراة اليهودية على حقيقتها» (2005؟).

2 – انظر في هذا الصدد الكتيّب الأساسي الذي نشرته فرانسواز سميث فلورنتين سنة 1994 والذي لم يفقد شيئا من أهميته وراهنيته: Françoise Smyth Florentin, *Les mythes illégitimes. Essai sur la « terre promise »*, Paris, Labor et Fides 1994، وارجع بالانقليزية إلى: Moshe Weinfeld, *The Promise of the Land. The Inheritance of the Land of Canaan by the Israelites*. University of California Press, 1993.

وقد تمكّنوا من التغلغل في هياكل القرار السياسي في الولايات المتحدة وفي الحزب الجمهوري بصفة أخص، حتى أنّ وزير خارجية الرئيس الأمريكي ترامب (Trump) كان ينتمي إليهم ومتبنّيا لمقولاتهم التي تبدو لكثير من الملاحظين في قمّة السذاجة رغم عمق مفعولها في السياق الأمريكي.

قلنا إنّ تكوين الكيان الصهيوني في فلسطين من عمل اليهود الأوروبيين (الأشكيناز) ولذلك فقد كانوا عموما علمانيين رغم استغلالهم للشعور الديني، وسعوا إلى وضع نظام سياسي يستنسخ إلى حد بعيد ما هو معمول به في الديمقراطيات الغربية، إلا طبعا فيما يخص تعميم المواطنة على ساكني فلسطين وحصرِها في اليهود دون سواهم، وهو الشرط الذي تنتفي به أصلا تلك الديمقراطية المزعومة. ولكن الرغبة الملحّة في قلب التوازن الديمغرافي القائم في فلسطين ليكون في صالح اليهود على حساب السكان العرب الأصليين دفعهم إلى تشجيع التحاق اليهود الشرقيين (السفرديم) بالكيان

الذي بعثوه، بكل الوسائل، حتى الدنيئة منها، كما حصل مثلا في تفجيرهم المتعمّد للكنيس اليهودي في بغداد قصد حمل اليهود العراقيين على الهجرة إلى فلسطين، وقد أوهموهم بهذا التفجير أنهم أصبحوا مستهدَفين. وهكذا أدى الضغط المعنوي الذي مارسته المنظمات الصهيونية العالمية والإغراءات المادية الممنوحة للمهاجرين إلى أن نزح العديد من يهود البلاد العربية إما نحو فلسطين وإما نحو فرنسا بالنسبة إلى يهود شمال إفريقيا نظرا إلى أنّ النظام الاستعماري مكّنهم من الجنسية الفرنسية. ولئن عانت هذه الفئة في الكيان الصهيوني

من التمييز العنصري الذي مارسه الأشكيناز نحوها وبقيت في الأغلب الطبقة الفقيرة وعلى هامش دوائر القرار، فإنّها مثّلت أغلبية الجمهور الذي ينتمي إلى الأحزاب الدينية والقومية المتطرفة، وهي التي أمالت الكفة لصالح اليمين، وحتى لأقصى اليمين العنصري، في الحياة السياسية في العقود الثلاثة الأخيرة وبالخصوص منذ اغتيال رئيس حكومة الاحتلال «رابين» على يدي أحد أفراد هذا اليمين المتطرف. ويستفيد هؤلاء المتدينون الذين تطلق عليهم صفة الحريديم من التمويل العمومي للمدارس الدينية المكرّسة لدراسة التوراة، ولكن فريقا منهم يرفض

الخدمة العسكرية الإجبارية المفروضة على سائر اليهود شبانا وفتيات لمدة ثلاث سنوات.

ومثّل اليهود المهاجرون من روسيا فئة ثالثة متميّزة عن العناصر الأخرى ومحتفظة فيما بين أفرادها باللغة الروسية الأم، كما أنّ لها تنظيماتها وصحفها الخاصة. فقد كان «ستالين» من أول الذين اعترفوا بإسرائيل حين أعلن «بن غوريون» في ماي 1948 عن تأسيسها إثر قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة والذي ينص في الآن نفسه على تنظيم استفتاء للسكان لم ير النور في يوم من الأيام، إذ أنّ ما كان يهمّه هو إضعاف بريطانيا العظمى وإخراجها من منطقة الشرق الأدنى. لكنّ السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين كان محدودا زمن الاتحاد السوفياتي، وما أن انهار المعسكر الاشتراكي حتى فتحت الأبواب أمام هجرتهم إلى فلسطين بتشجيع مادي وسياسي من المعسكر الغربي وبكثير من التسامح في الصبغة اليهودية الحقيقية لأولئك المهاجرين الذين يبلغ عددهم نحو المليون.

تمثّل هذه المجموعات أغلبية الجالية اليهودية في فلسطين، لكن توجد إلى جانبها ثلاث أقليات متكوّنة أوّلا من أبناء بضعة آلاف من اليهود الذين كانوا مقيمين في فلسطين قبل موجات الهجرة التي انطلقت في بداية القرن العشرين، وقد كانوا منسجمين مع السكان الأصليين من مسلمين ومسيحيين ويتكلمون العربية مثلهم. أما الأقلية الثانية فتتكوّن من السامريين، وهم فرقة يهودية قديمة مستقرة في فلسطين يتكلم أفرادها لغة البلاد كذلك ويمارسون طقوسهم على حدة ولكن لهم نفس نمط العيش الذي لسائر السكان الأصليين. وتتمثّل الأقلية الثالثة في فرقة يهودية موجودة كذلك لدى يهود الشتات، لا تعترف بالإيديولوجيا الصهيونية وإذن بأحقية اليهود في أرض فلسطين، وتعتبر أنّ امتلاك هذه الأرض لا يكون شرعيا إلا عند ظهور المسيح المنتظر وعلى يديه.

إنّ أهمّ ما يميّز الاستيطان اليهودي في فلسطين هو عدم الانسجام بين مكوّناته الرئيسية لا الإثنية ولا الثقافية واللغوية ولا حتى الدينية الصرف، ولم تنجح محاولات صهرها في مجموعة قومية واحدة لها نفس النظرة الدنيا الموحدة إلى الحياة وإلى الكون (Weltanschauung) رغم الجهود التي بذلها المشرفون على الكيان الصهيوني منذ تأسيسه وطيلة سبعة عقود كاملة، عن طريق برامج التعليم بالخصوص. وزاد توخي سياسة اقتصادية تحررية تمارسها أحزاب يمينية في تعميق تلك الفجوة، ممّا برّر الحديث لدى الملاحظين اليهود وغير اليهود عمّا «بعد الصهيونية»، وبعبارة أخرى عن ضعْفِ الشعور بالانتماء إلى المشروع الاستعماري الأصلي، ولا سيما على إثر انحسار التيار الاشتراكي الذي جسده في البداية نظام «الكيبوتسيم» ووجود نقابات قوية فاعلة اجتماعيا وسياسيا. وما بروز مجموعة من «المؤرخين الإسرائيليين الجدد»[1] المعترفين بالجرائم المرتكبة في حق الفلسطينيين منذ النكبة إلا دليل على المأزق الوجودي الذي يعيشه الكيان الصهيوني والذي فضحته أمام العالم أجمع حرب الإبادة التي شنّها في غزة وفي الضفة الغربية المحتلة وفي القدس منذ طوفان الأقصى الذي انطلق في 7 أكتوبر 2023.

في المقابل، تعيش أغلبية الشعب العربي الفلسطيني الذي يساوي عدد أفراده داخل ما يسمّى «الخط الأخضر» وفي الضفة الغربية المحتلة والقدس وقطاع غزة عددَ اليهود في فلسطين تقريبا، أسوأ الظروف في المعيشة اليومية وفي انعدام الأمن وفي التعسّف والاستغلال، وتنعدم في وجهه آفاق الخروج من الأوضاع المأسوية بالطرق السياسية والديبلوماسية. ولئن لم ينجح المحتل الصهيوني في الظرف الراهن في تطبيق سياسة التهجير القسري للفلسطينيين على غرار تلك التي طبقها سنة 1948، رغم الدمار المريع وعشرات الآلاف من الضحايا في غزة، ورغم إصرار فريق من مسؤوليه على الإيمان بضرورة إنجاز اسرائيل الكبرى الممتدة من النيل إلى الفرات، فقد بات من الواضح لدى أصحاب القرار من مؤيدي اسرائيل

في الغرب أن استمرار الوضع السائد قبل 7 أكتوبر لم يعد ممكنا ولا مقبولا، من جهة، وأنّ التفوّق الإسرائيلي العسكري والتكنولوجي وحده لن يحلّ المشكلة ولن يوفّر لليهود الأمن المنشود، من جهة أخرى. وهكذا عاد الحديث في الإعلام عن إحياء حلّ الدولتين، لكن دون إرادة سياسية حقيقية في فرض هذا الحل، باعتبار أن الطرفين الصهيوني والفلسطيني لن يتمكنا بمفردهما من الوصول إلى تجسيمه.

وفي هذا النطاق تَدخُل حسابات الأطراف

1- من أشهر هؤلاء المؤرخين الجدد إيلان بيبي (Ilan Pappé) المولود بحيفا سنة 1954. ومن بين مؤلفاته: *La guerre de 1948 en Palestine* (2000)، و*Les démons de la Nakbah* (2004)، و*Ten Myths About Israel* (2017). وارجع كذلك إلى كتابي شلومو صاند Shlomo Sand: *Comment le peuple juif fut inventé* (2008)، و*Comment la terre d'Israël fut inventée* (2012)

الدولية والإقليمية المعنية بالصراع، وهي لا تصبّ كلها في نفس الاتجاه، بدءا بالمحيط العربي الذي يمرّ بأوضاع غير مسبوقة من التمزّق والعجز. ولن نهتم في هذه الورقة بالخيارات السياسية التي ستفرضها نهاية حرب الإبادة الحالية، سواء على الصعيد الداخلي الإسرائيلي أو فيما سيترتّب لا محالة على الزلزال الذي تعيشه الجماهير العربية بسببها. ولكننا لا نرى باستقراء التاريخ القديم والحديث ما يجعلنا ننساق وراء حل الدولتين وما يفترضه من تخلي الكيان الصهيوني عن إيديولوجيته التأسيسية وعما انضاف إليها من التبريرات الدينية العنصرية، فهو لن يكون في صورة فرضه إلا حلا مؤقتا ليس من شأنه فض المشكل من أساسه.

هل ينبغي أن نسلّم بحتمية الصراع الدائر في فلسطين إلى الأبد؟ هل يتعيّن انتظار الانفجار الذي سيحصل بالضرورة بين مكوّنات المجتمع الإسرائيلي المتناقضة؟ أليس للصراع في فلسطين حلّ جذري ينهيه بعد أن تبيّن لكل ذي بصيرة أن الانتصار الحاسم لأحد

الطرفين بإنهاء وجود الطرف الآخر مستحيل؟ بلى، هو في إقامة دولة علمانية يتعايش فيها بمواطنة كاملة، وعلى الأرض التي عهدت بها عصبة الأمم إلى الوصاية البريطانية، اليهود والمسلمون والمسيحيون على قدم المساواة. وإذ ذاك سيبقى في فلسطين اليهود الذين يقبلون بأن تكون لهم نفس الحقوق ونفس الواجبات، ويغادرها الذين لا يرضون بهذه المساواة، كما سيعود إليها الفلسطينيون الذين يرغبون في العودة من منفاهم. وهذا الحل ليس في نظرنا طوباويا، وهو فيما نقدّر الحلّ الذي يقتضيه منطق التاريخ بعد انتهاء الفترة الاستعمارية، والرفض المتنامي للدولة الدينية أيّا كانت مبرّراتها في سائر المجتمعات المعاصرة، وازدياد التعاطف مع الفلسطينيين وتأييد قضيتهم في المجتمعات الغربية، وتوجُّهُ يهود الشتات في أمريكا وأوروبا إلى الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها. وإنّ غدا لناظره قريب.

في الصلات بين هرتزل والصهيونية المسيحية

فوزي البدوي(*)

بعد سويعات قليلة من انتخاب الرئيس الأميركي السابق «دونالد ترامب»، سارع الربي «هيلال فايس»[1] الناطق الرسمي لتنظيم «السنهدرين» اليهودي في الولايات المتحدة إلى مباركة هذا الانتخاب، مشدّداً على ضرورة أن ينفذ وعده الذي قطعة بإعلان القدس عاصمة لإسرائيل، تطبيقاً للقرار الأميركي الصادر منذ 1995 والمعروف باسم The Jerusalem Embassy Act،[2] مشبهاً إياه بالإمبراطور الفارسي قورش الأكبر الذي أعاد اليهود المنفيين إلى فلسطين في القرن السادس قبل الميلاد. والواقع أنّ هذه

(*) أستاذ الدراسات اليهودية بالجامعة التونسية، عضو المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون.

1 – هيليل فايس شخصية بارزة في الحركة الصهيونية الجديدة وهو أحد مؤسّسي الحركة الصهيونية الدينية في أوائل السبعينات من القرن الماضي يؤمن بضرورة إعادة بناء الهيكل وإقامة حكم يهودي على إسرائيل الكبرى ويعتقد أن اليهود العلمانيين يخونون تراثهم الثقافي إذا ينكرون الجانب الأسطوري في رواية الماسادا ويصور ما بعد الصهيونية على أنها نفي للدولة اليهودية ومعاداة للصهيونية ومعاداة لإسرائيل ويرى في التجربة اليهودية «محرقة مستمرّة». ومن آرائه الفاسدة في أكتوبر 2014 قوله إنه لا توجد إبادة جماعية ضد الشعب الفلسطيني لأن العرب الفلسطينيين لم يشكلوا «شعبًا» قط وقد أدانت جامعة بار إيلان حيث يدرس الادب التوراتي وحيث يفرخ أمثاله من الغلاة هذا التصريح ووصفته بأنه «حقير» و«غير أخلاقي» في محاولة للنأي بصورتها عنه من أعماله:
Weiss, H (2010) *Agnon and Germany: The presence of the German world in the writings of SY Agnon* Bar-Ilan University Press

2 – تشريع سفارة القدس لعام 1995 (Jerusalem Embassy Act of 1995) هو تشريع أقرّه الكونغرس الأمريكي في دورته رقم 104 في 23 أكتوبر 1995 حيث يُعبّر بصراحة عن رغبة الولايات المتحدة بنقل سفارتها في إسرائيل إلى القدس بدلاً من تل أبيب والاعتراف بالقدس كعاصمة للدولة العبريّة وذلك في موعد أقصاه ماي 1999؛ ويزعم التشريع أن إسرائيل عملت على توحيد القدس بعد أن كانت

مُقسّمة، كما يذكر أن القانون الدولي يكفل لكل دولة تحديد عاصمتها. وفي هذا السياق أعلنت إسرائيل منذ 1950 القدس عاصمة أبديّة لها وجعلتها مقرًا لكل مؤسّساتها الوزاريّة والإداريّة وبينها مقر الرئيس والبرلمان والمحكمة العُليا كما أنها مركز الديانة اليهوديّة وتُعتبر مدينة مقدّسة بالنسبة لأعضاء ديانات أخرى. ولضمان تنفيذ القانون فرض الكونغرس عقوبات على الجهات التنفيذيّة في حال فشلت في اتخاذ مثل هذه القرارات ضمن الموعد المذكور وقد وَعَد عشرون رئيسًا ومرشّحًا ومسؤولًا في مجلس الشيوخ الأمريكي بنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس ولكن هذا التشريع يسمح للرئيس الأمريكي بتأجيل تطبيقه كل 6 أشهر وهذا ما فعله الرؤساء الأمريكان منذ 1995 إلاّ أن الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب» قد قرر في 6 ديسمبر 2017 الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل سفارة الولايات المتحدة إلى القدس في خطوة أدانها المجتمع الدولي والدول الإسلاميّة والعربيّة والفلسطينيون.

الصفة: صفة قورش الأكبر مخلّص اليهود هي التي طالب الرئيس «هاري ترومان» أن تنطبق عليه هو أيضاً، عندما تم تكريمه في المؤسّسة الأكاديمية اللاهوتية اليهودية الأميركية Jewish Theological Seminary of America،[3] وشبهه حينها صديقه رجل الأعمال «إيدي جاكوبسن» قائلاً: بأنه ممّن ساهم في قيام إسرائيل، فقاطعه قائلاً: «أنا لم أساهم فقط، بل أنا هو قورش الأكبر». في ذات السياق الاحتفالي أشار الربي «هيلال فايس» إلى الرئيس الروسي «فلاديمير بوتين» نفسه، داعياً إياه إلى تحقيق الوعد الذي يُقال إنه قطعه لأحد المتديّنين اليهود عندما زار القدس سنة 2012، وحائط المبكى تحديداً، عندما اعترض موكبه محدّثاً إيّاه عن أهمية الهيكل بالنسبة إلى اليهود، فأجابه الرئيس الروسي قائلاً: «لهذا السبب أنا هنا، لقد جئت حتى تتمكّن أنت وغيرك يوماً من إعادة بناء الهيكل».

3 – المدرسة اللاهوتية اليهودية (JTS) هي منظمة تعليمية يهودية محافظة في مدينة نيويورك، وتعتبر إحدى أفضل المؤسّسات الجامعية الدينية اليهودية في العالم وفي استمرار لخط المدارس اللاهوتية اليهودية في أوروبا الشرقية مثل مدرسة برسلاو التي أسسها الربي Rabbi Zecharias Frankel «زخريا فرانكل» أحد أعمدة اليهودية المحافظة المعروفة بالماسورتية في العصر الحديث وتشتهر مكتبتها بأنها تحوي واحدة من أهم المجموعات المكتبية والمخطوطات اليهودية في العالم.

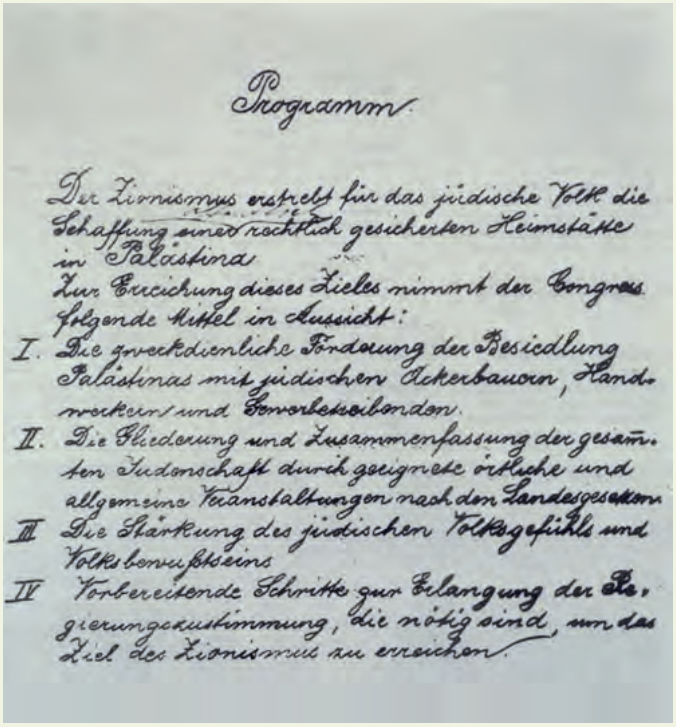
Programm.

Der Zionismus erstrebt für das jüdische Volk die Schaffung einer rechtlich gesicherten Heimstätte in Palästina.

Zur Erreichung dieses Zieles nimmt der Congress folgende Mittel in Aussicht:

I. Die zweckdienliche Förderung der Besiedlung Palästinas mit jüdischen Ackerbauern, Handwerkern und Gewerbetreibenden.

II. Die Gliederung und Zusammenfassung der gesamten Judenschaft durch geeignete örtliche und allgemeine Veranstaltungen nach den Landesgesetzen.

III. Die Stärkung des jüdischen Volksgefühls und Volksbewußtseins.

IV. Vorbereitende Schritte zur Erlangung der Regierungszustimmung, die nötig sind, um das Ziel des Zionismus zu erreichen.

برنامج المؤتمر الصهيوني الأول
29 أوت 1897

وسواء أصحّت هذه الروايات أم لم تصح، فإن للقدس والهيكل المزعوم أهمية بالغة في تشكيل مستقبل أرض الأنبياء وتشكيل ملامح الصراع في الشرق الأوسط في العقود القادمة. فالقدس التي اعتبرتها «مفاوضات أوسلو» من قضايا الحل النهائي، واعتبرتها الأمم المتحدة بمقتضى القرار 242 أرضاً محتلّة، تَعرف اليوم تحوّلاً خطيراً جداً يخرجها من جوانبها القانونية إلى جوانبها الميثولوجية والدينية، مما يؤذن بخطر تحويل الصراع إلى صراع ديني بين أبناء إسحاق وأبناء إسماعيل، هذا الذي قالت عنه التوراة «إن يده على كل واحد ويد كل واحد عليه». وهو أمر لم يعد مستغرباً، ما دامت الأساطير المؤسّسة للصهيونية هي التي تتحكّم في مصير العديد من القرارات السياسية الدولية. فالتوراة كانت ولا تزال بمثابة «دفتر خانة» كما يقول العثمانيون، أو سجلاً عقارياً، منه تستمدّ اليهودية والصهيونية المسيحية شهادة ملكيتها لأرض فلسطين، وتخطيطها لهدم الأقصى، وبناء الهيكل الثالث. فوضع القدس وهدم المسجد الأقصى لا يمكن أن يفهما اليوم بمعزل عن خلفية نظرية دينية ضرورية يجب أن تكون الميزان الذي توزن به الأمور عندما تختلط السبل.

السياسي والقسيس

كان يوم 16 فيفري من سنة 1896 يوماً استثنائياً ومهمّاً في تاريخ الصهيونية السياسية والمشروع السياسي الذي قاده «تيودور هرتزل». ففي هذا اليوم وعده

صديقه «رفائيل لانداو»[4] بعد أن أدرك مشروعه الطموح في تأسيس «دولة لليهود» بأن يصله بشخصية دينية مسيحية سيكون لها الدور البارز في الدفع قُدماً بالمشروع الصهيوني. وكان ذلك هو الأب «ويليام هيشلر» (1845 – 1931) William Hechler،[5] قسيس السفارة البريطانية في فيينّا والمحامي والصحفي في جريدة «الصحافة الحرة الجديدة» Neue Freie Presse ذائعة الصيت آنذاك، الذي كان يتوفّر على شبكة علاقات كبيرة وضعها لاحقاً تحت تصرّف أبو الصهيونية السياسية. وقد تحدّث «أندريه شوراقي» عن هذه الصلة بين «هرتزل» و «هيشلر» في تقديمه لكتاب الأب «دوفرنو»ا «**الأمير والنبي**»،[6] فشبّهها بالصِّلات بين

4 – «شاؤول رفائيل لانداو» تصهين منذ وقت مبكّر، وساهم بالكتابة في المجلات اليهودية المعروفة وقتها والصادرة باللغة الألمانية والبولندية. ومنذ عام 1892 صار عضوًا في مجلس إدارة الجمعية اليهودية الوطنية في فيينا، ومن عام 1893 إلى عام 1895 اشتغل محاضراً في تاريخ اليهود في كلية اللاهوت الموسوية في فيينا، وكان أحد الموقعين على النداء الأول لجمعية صهيون (أوائل فيفري 1893) وفي عام 1895 تواصل مع «تيودور هرتزل»، الذي أصبح زميله في العمل كان «لانداو» هو من اقترح إنشاء منظمة صهيونية مركزية. وفي عام 1897 أصبح أول رئيس تحرير لصحيفة دي فيلت الصهيونية الأسبوعية التي أسسها «هرتزل» (وظل كذلك حتى جويلية 1897). وبصفته عضواً في لجنة البرنامج في المؤتمر الصهيوني العالمي الأول، شارك في وضع برنامج بازل، ولكنه انفصل عن «هرتزل» بعد خلاف بينهما وصار من أشد معارضيه وبعد ضم ألمانيا النازية النمسا، هاجر إلى لندن عام 1939 ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1941.

5 – مسيحي صهيوني وُلد بالهند حيث خدم والده مبشرًا للكنيسة الإنجيلية وعندما فشل في محاولاته لتعيينه أسقفاً أنجليكانياً في القدس أصبح قسيساً للسفارة البريطانية في فيينا وخدم في هذا المنصب من عام 1885 إلى عام 1910 وقضى بقية حياته في لندن منشغلا بالحسابات الصوفية والمشيحانية وسعى إلى حل المشكلة اليهودية من خلال حساب موعد عودة ما سماه بالشعب اليهودي إلى أرض إسرائيل وعد المذابح التي وقعت في روسيا في أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر زار أوديسا حيث التقى هناك الزعيم الصهيوني «ليون بينسكر» ومن هناك توجه إلى القسطنطينية حاملاً رسالة إلى السلطان من الملكة فيكتوريا توسلت فيها إلى السلطان العثماني لمنح اليهود الروس حق اللجوء في الأراضي المقدّسة وقد حاول في كتابه «**إعادة اليهود**» (1884) الصلة بين حساباته الباطنية وعودة اليهود. وكان استنتاجه أن خلاص الشعب اليهودي سيحدث في عامي 1897–1898 وعندما نُشر كتاب «ثيودور هرتزل» Der Judenstaat «**دولة اليهود**» أرسل «هشلر» رسالة إلى دوق بادن الأكبر بتاريخ 26 مارس 1896 للفت انتباهه إلى عمل «هرتزل» قائلا إن كتابه هو«أول محاولة جادة وهادئة وعملية لإظهار كيف يمكن لليهود أن يتوحدوا من جديد ويشكلوا أمة خاصة بهم في أرض الميعاد التي منحهم الله إياها. حول هذه الشخصية الصهيونية المسيحية المحورية في علاقتها بـ «هرتزل» والمشروع الصهيوني يراجع:

Kressel, G (2007) Hechler, William Henry° In *Encyclopaedia Judaica* (2nd ed, Vol 8, p 750 Macmillan Reference USA.

6 – انظر:

Duvernoy, Claude (2012) *Le prince et le prophète* Émeth éditions.

الكتاب قدم له «أندريه شوراقي» وفيه يتحدث عما يراه صفحة منسية من تاريخ ما يسميه » بالملحمة الصهيونية» لأنها تتعلق بحياة من اعتبر في الأوساط الصهيونية المسيحية «أمير صهيون غير المتوج» «ثيودور هرتزل» من خلال سيرة صديقه الأكثر إخلاصًا وإيمانًا بمشروعه القس «وليم هيشلر» وكانت هذه الصداقة المسيحية الإنجيلية هي التي عززت دعوة «هرتزل» وشدت من أزره حتى وفاته عاش الآب «كلود دوفرنوا» في القدس منذ عام 1962 معتقدا أنه سار على خطى «وليم هيشلر» وهو لاهوتي بروتستانتي حصل على الجنسية الإسرائيلية منذ حرب أكتوبر، وهو يدير منظمة «العمل المسيحي من أجل إسرائيل» وصندوق المساعدات التابع لها، ألّف عشرة كتب، وهو حاصل على جائزة الأكاديمية الفرنسية ومدينة القدس. ومن مؤلفات الاب ديفرنوا:

Duvernoy, C (1970) *Le sionisme de Dieu* Éditions SERG.

Duvernoy, C (1974) *Jésus et la communauté nazaréenne* Naber Press.

النبي موسى وكاهن مدين يثرو أو شعيب كما يسميه القرآن، فقد كان «هيشلر» على يمين «هرتزل» بمنزلة كاهن مدين بالنسبة إلى موسى. كان «رفائيل لانداو» يدفع باتجاه التقاء «هرتزل» «بهيشلر»، لأنّه كان مقتنعاً بأنّ المشروع الصهيوني يمكن أن يكون أيضاً مشروعاً مسيحياً، أو بالأحرى مشروع فئة من المسيحيين الذين سيطلق عليهم اصطلاحاً اسم المسيحيين الصهاينة المنحدرين من رحم البروتستانتية في نسختها الإنجيلية الألفية والاسترجاعية. وقد تمّ اللقاء أخيراً في منتصف مارس 1896 حيث رحّب القس «بفتى صهيون»، كما لقّبه، وبسط أمامه في بيته خريطة فلسطين، وصورة للهيكل المزعوم في القدس، مشيراً إلى الموضع الذي يجب أن يُعاد فيه بناء الهيكل الثالث. وعبّر لـ «هيرتزل» عن أمنيته أن يكون هو أسقف القدس الذي سيقف عند أبواب المدينة ليستقبل يسوع المسيح المخلّص عند عودته الثانية، زمن ما يسمّيه اللاهوت المسيحي بـ (الباروزيا)، كما يقول «أرنست باول» في كتابه «**متاهة الشتات**».[7] والحقيقة أن هذه الشخصية التي يتناساها مؤرخو الصهيونية لفترة طويلة، ومات صاحبها فقيراً معدماً منسياً، قبل أن تقوم إحدى المنظمات الصهيونية بالبحث عن قبره واكتشافه وبناء شاهد عليه يخلّد مساهمته الكبيرة في خدمة المشروع الصهيوني، هي من تحدثت إلى «تيودور هرتزل» بعصارة التصورات المسيحية الصهيونية، ومقوماتها

Duvernoy, C (1980) *L'apocalypse a déjà commencé* Editions du Guetteur.

Duvernoy, C (1987) *Controversy of Zion: a biblical view of the history and meaning of Zion* (New Leaf Press ed) New Leaf Press

7 – المقصود هو:

Pawel, E (1989) *The labyrinth of exile: a life of Theodor Herzl* (1st ed) Farrar, Straus & Giroux.

وانظر ترجمته الفرنسية:

Pawel, E (1992) *Theodor Herzl ou Le labyrinthe de l'exil Édition* Du Seuil.

الأساسية من المشيحانية[8] والعقيدة الألفية[9] أو الألفانية. والحقيقة أن هذه العقيدة قد ظهرت في المسيحية منذ فترة مبكرة لتقول بعودة المسيح الثانية بين قومه ليعيش ويحكم ألف سنة، فيما يشبه حياة الفردوس تمهيداً لنهاية العالم، وهو زمن لا يمكن أن يتحقق بدون وجود اليهود في فلسطين. ومن هنا كانت ضرورة العمل على إعادة تجميعهم في فلسطين ليشهدوا على عودة هذا المسيح، وليؤمنوا به ويشهدوا على مشيحانيته ويؤمنوا بها.

وهكذا وجد «هرتزل» نفسه وجهاً لوجه مع أحد أشد المناصرين لمشروعه لم يكن ليحلم به. فمن الغرابة أن يكون هذا الشخص

8 – حول هذا المفهوم المركزي في اليهودية يراجع:

Cantley, M J (2003) Messianism In *New Catholic Encyclopedia* (2nd ed, Vol 9, pp 539-547).

Werblowsky, R J Zwi "Messianism: Jewish Messianism" *Encyclopedia of Religion*, edited by Lindsay Jones, 2nd ed, vol 9, Macmillan Reference USA, 2005, pp 5974-5979.

Ben-Sasson, Haim Hillel "Messianic Movements" *Encyclopaedia Judaica*, edited by Michael Berenbaum and Fred Skolnik, 2nd ed, vol 14, Macmillan Reference USA, 2007, pp 115-122.

ويظل غرشوم شولام من أفضل اخصائي هذا الموضوع على الاطلاق:

Scholem, G G (1971) *The Messianic idea in Judaism: And other essays on Jewish spirituality* Schocken books.

9 – حول هذا المفهوم المركزي انظر:

Schwartz, H (2005) Millenarianism: An Overview In L Jones (Ed), *Encyclopedia of Religion* (2nd ed, Vol 9, pp 6028-6038) Macmillan Reference USA.

Kuehner, R, and J P Dolan (2003) Millenarianism In *New Catholic Encyclopedia* (2nd ed, Vol 9, pp 633-637).

الـذي يشـد أزره مسـيحياً، فـي الوقـت الـذي كان فيـه الصـد هـو نصيبـه مـن قبـل اليهوديـة الأرثوذكسـية وفهمهـا التقليـدي للمشـيحانية إلـى حـدود تلـك الفتـرة. ولـم ينـس «هرتـزل» مزيّـة هـذا الشـخص علـى الحركـة الصهيونيـة، فشـرّفه بالحضـور فـي مؤتمرهـا الأول بمدينـة بـازل، حيـث لـم يحضـر فـي هـذا المؤتمـر سـوى شـخصيتين غيـر يهوديتيـن همـا: «ويليـام هيشـلر» ومؤسّـس الصليـب الأحمـر الدولـي «هنـري دينـان» (1828 – 1910) Henri Dunant. لقـد كانـت دوافـع «هيشـلر» دوافـع دينيـة، مـا فـي ذلـك شـك، يحرّكهـا اعتقـاد راسـخ وتغذيهـا قـراءات معيّنـة لقسـم مـن التـوراة اليهوديـة، وخصوصًـا لسـفري دانيـال والمزاميـر. وهـو مـا عبّـر عنـه فـي نـصّ نشـره قبـل سـنتين مـن ظهـور كتـاب هرتـزل «دولـة اليهـود» سـنة 1894، وعنوانـه «**إعـادة توطيـن أو إرجـاع اليهـود إلـى فلسـطين**» *The Restauration of the Jews to Palestine*. ومـن هنـا اشـتقّ المذهـب المعـروف بالإرجاعـي أو الاسـترجاعي،[10] وهـو فـي أحـد معانيـه إضافـة إلـى اسـترجاع المسـيحية المبكّـرة العمـل علـى جمـع اليهـود مـن العالـم وإعـادة توطينهـم فـي فلسـطين. ولهـذا السـبب سـيغرق الإنجيليـون المسـيحيون فـي التـراث القبالـي اليهـودي كمـا غـرق فيـه مـن قبلهـم اليهـود، فـي عمليـات حسـابية معقّـدة لمعرفـة تاريـخ قيامـة هـذا المسـيح اسـتعداداً لملاقاتـه والتسـريع، بجمـع اليهـود وتوطينهـم فـي فلسـطين مـن جديـد. ويذكـر «إرنسـت بـاول» صاحـب الكتـاب الشـهير عـن سـيرة «هرتـزل» إلـى أن حسـاباته الرياضيـة كانـت تؤكـد قـرب قيامـة المسـيح. ومـن هنـا شـدّة حماسـته واعتقـاده الراسـخ أنـه سيشـهد هـذا الحـدث الجلـل. لقـد كانـت حسـاباته، كمـا يقـول، تعتمـد علـى تأويـل للآيـة التوراتيـة الـواردة فـي سـفر المزاميـر، الآيـة الرابعـة مـن المزمـور 90، والتـي شـغلت الأوسـاط الألفيـة والمشـيحانية والقباليـة مـن قبلـه وفيهـا: «لأَنَّ أَلْـفَ سَـنَةٍ فـي عَيْنَيْـكَ مِثْـلُ يَـوْمِ أَمْـسِ بَعْـدَ مَـا عَبَـرَ وَكَهَزِيـعٍ مِـنَ اللَّيْـلِ». وكذلـك مـا جـادت بـه النصـوص المسـيحية الـواردة فـي سـفر يوحنـا الرؤيـوي مـن الإصحـاح السـابع. والحقيقـة أن هـذه العقيـدة الألفيـة قـد ظهـرت وظلـت حيـة طيلـة القـرون المسـيحية الثلاثـة الأُوْلَـى، بتأثيـر مـن (المسـيهودية) الأُولَـى، وبتأثيـر مـن التصـورات البولسـية، وبعـض آبـاء الكنيسـة الأوائـل، أمثـال: القديـس إيرينيـوس والقديـس ميلتـون السرديسـي Méliton de Sardes[11]، إلا أن الفضـل يرجـع إلـى القديـس أريجيـن والقديـس أوغسـطين تحديـداً فـي قمـع هـذه العقيـدة، والتشـديد علـى ملكـوت المسـيح السـماوي، وأورشـليم السـماوية، ومبـدإ الخـلاص الفـردي. وشـدد القديـس أوغسـطين علـى أن عبـارة الألـف سـنة الـواردة فـي سـفر يوحنـا الرؤيـوي لا تعنـي سـوى «زمـن الكنيسـة» وأورشـليم السـماوية. وقـد ظلّـت هـذه العقيـدة علـى خفوتهـا إلـى أن اسـتيقظت مـن سـباتها فـي القـرن الثامـن عشـر، عصـر الأنـوار، ويـا للمفارقـة، علـى يـد إثنيـن مـن كبـار اللاهوتييـن المسـيحيين وهمـا: يواكيـم الفلـوري Joachim

10 – حول هذا المفهوم ومناقشاته يمكن الرجوع إلى:
Arnold, P P (2005) Primitivism In L Jones (Ed), *Encyclopedia of Religion* (2nd ed, Vol 15, pp 10064-10066.

11 – راجع حول سيرته:
Flusser, D, & Gibson, S (2007) Melito of Sardis° In M Berenbaum & F Skolnik (Eds), *Encyclopaedia Judaica* (2nd ed, Vol 14, pp 12-13).
RACLE, G (2003) Melito of Sardes In *New Catholic Encyclopedia* (2nd ed, Vol 9, pp 477-478).

of Fiore[12] وبيك دولا ميروندول. Pico Della Mirandola[13] وقد حاول الأول في نصّ شهير حول الأخروية إعادة بناء النزعة الألفية من جديد بحسب التثليث، معتبراً أنها المرحلة الثالثة، مرحلة الروح القديس بعد مرحلتي الأب أي العهد القديم ومرحلة الابن أي العهد الجديد، مقدماً تواريخ أخذها من بعد «ويليام هيشلر» في الحسبان.

وقد ظلّت هذه الأفكار حية متداولة حتى عاد إليها جون نيلسون داربي John Nelson Darby الإيرلندي، مترجم الكتاب المقدس المشهور وزعيم حركة الإخوان بلايماوث Plymouth brethern،[14] ذات الخلفية الألفانية، فاهتم بدراسة مفهوم للزمن الألفي يقوم على ما يسميه بالتدبيرية أو القدرية. Dispensationalism[15] وهو منهج في قراءة الكتاب المقدس يذهب، كما تذكر ذلك الموسوعة الكاثوليكية، إلى «تقسيم تاريخ العلاقة بين الله والإنسان» إلى سبعة أقدار أو حقب زمنية، يُخضع فيها الله الإنسان لتجارب تمتحن طاعته. ووفقاً للتدبيريين فنحن نعيش اليوم في الحقبة السادسة، أو ما يسمى «دور الكنيسة والنعمى»، بانتظار حلول الحقبة السابعة والأخيرة برجوع المسيح إلى الأرض لتأسيس حكمه الألفي. وهكذا تفصل التدبيرية بين مفهومي إسرائيل والكنيسة. بالنسبة إلى المسيحية التقليدية، إن الكنيسة كما يقول أوغسطينوس هي وارثة الوعود التي أعطاها الله لإسرائيل، فهي بذلك إسرائيل الجديدة التي تسعى بشوق إلى بلوغ أورشليم السماوية. في هذا المفهوم تصبح أورشليم، أو أرض الموعد للمسيحيين، ذات طبيعة روحانية أزلية لا صلة مباشرة لها مع أرض إسرائيل التاريخية، على عكس الصهاينة المسيحيين الذين يشددون على الفصل بين إسرائيل كشعب يهودي أو شعب الله على الأَرْض والكنيسة أو شعب الله في السماء، مؤكدين على التفسير الحرفي للكتاب المقدس. يفضي هذا بهم إلى نتيجة حتمية مفادها أن أرض فلسطين التاريخية هي ملك أبدي للشعب اليهودي، وأن نبوءات الكتاب المقدس التي أعلنت عن عودة اليهود إلى

12 – انظر:

Laughlin, M F (2003) Joachim of Fiore In *New Catholic Encyclopedia* (2nd ed, Vol 7, pp 876-877).

Reeves, M E (2005) Joachim of Fiore In L Jones (Ed), *Encyclopedia of Religion* (2nd ed, Vol 7, pp 4928-4929) Macmillan Reference USA.

13 – انظر حول هذه الشخصية المهمة:

Wirszubski, C (2007) Pico Della Mirandola, Giovanni In M Berenbaum & F Skolnik (Eds), *Encyclopaedia Judaica* (2nd ed, Vol 16, pp 146-147).

Conte Giovanni Pico della Mirandola (2004) In *Encyclopedia of World Biography* (2nd ed, Vol 12, pp 299-300).

14 – حول شخصية «داربي» وهذه الجمعية الأخوية الرهبانية، راجع:

Whalen, W J, & Stancil, W T (2003) Darby, John Nelson In *New Catholic Encyclopedia* (2nd ed, Vol 4, pp 526-527).

"Plymouth Brethren" *New Catholic Encyclopedia*, 2nd ed, vol 11, Gale, 2003, pp 431-432.

15 – حول هذا المفهوم يمكن الرجوع إلى:

STANCIL, W. T. (2003). Dispensational Theology. In *New Catholic Encyclopedia* (2nd ed., Vol. 4, p. 776).

أرضهم قد تحققت في القرنين التاسع عشر والعشرين. ومن هذه الخلفية جاءت مسيحية «داربي» الصهيونية الراغبة في التسريع بعودة المسيح وقيام مملكته على الأَرْض، لتلتقي بالمشروع الصهيوني الذي بشر به «تيودور هرتزل» من جهة الصهيونية السياسية. ويذهب «داربي» إلى الحديث في سياق شرحه لهذه الألفية إلى الحديث عن الحقبة السابقة لظهور الألفية، التي تتميز بسطوة المسيح الدجال، وقيام معركة الأرمجدون قبل نهاية العالم، وقيام الصور الأخيرة للأخروية، وستجد أفكاره التدبيرية رواجاً في بريطانيا. فقد تبنت بريطانيا ورجال سياستها من البروتستانت مشعل التمكين للمشروع الصهيوني منذ وعد «بلفور» واللورد «شافستبري» و«لويد جورج» وغيرهم، تحقيقاً للرغبة التي عبّر عنها «هيشلر» من قبل. فهو القائل «إنه بحسب الإنجيل فإن اليهود يجب أن يعودوا إلى فلسطين، ولذلك فإنني أساند هذا المسعى الصهيوني، باعتباري مسيحياً مقتنعاً تمام الاقتناع بحقيقة الإنجيل لأن هذه القضية هي قضية الرب نفسه».

ومن بريطانيا ستنتقل سطوة هذه الأفكار إلى الولايات المتحدة التي ستتحول إلى مركز تجميع لكل هذه الأفكار الألفانية والاسترجاعية والتدبيرية، ذات الأصول البروتستانتية، وهي التي إذا ما أضيفت إليها القوة العسكرية والمالية المتعاظمة منذ القرن التاسع عشر وسطوة الكنائس الإنجيلية

على النخب السياسية الأمريكية، والضعف النسبي للكنائس الكاثوليكية أو المناهضة للتصورات الإنجيلية، يتبيّن لنا حجم الخطر الذي ستشكله هذه الأفكار التي تهزأ بكل العقلانيات وكل تراث الأنوار، بل وبكل محاولات اليهودية الإصلاحية مثلاً التي نجد في إعلانها المعروف بإعلان بيتسبورغ[16] سنة 1885 ما يقترح حلولاً، يدهش الباحث اليوم من مدى تشبّعها بقيم الأنوار ورفضها لمقولات الشعب اليهودي والعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل، واعتبار القدس عاصمة للشعب اليهودي الذي لا تؤمن هذه الحركة بوجوده أصلاً. إن هذه الأفكار خطيرة على الشعب الفلسطيني وعلى المسلمين، وشكّلت وتشكّل وستشكّل في العقود القادمة خطراً أكبر وأشد على فلسطين التاريخية والإسلام والقدس تحديداً. ولا يجب على المرء أن يغرق في المعطيات الآنية ليعرف حجم سطوة اليمين الأمريكي الصهيوني المسيحي، منذ الثمانينات على وجه الخصوص، على القرار السياسي الأمريكي، منذ عهد «رونالد ريغن» و«بوش» الابن إلى حد الساعة. بل لعله لا يخفى على الكثيرين أن عدداً لا يستهان به من مستشاري الرئيس الأمريكي «ترامب» في المسائل الدينية هم من رجال الدين المتبنّين لهذه الأفكار، ومن غُلاة الإنجيليين أمثال: باولا وايت Paula White وكينيث كوبلاند Kenneth Copeland وميشال باخمان Michele Bachmann وروبرت جيفرس Robert Jeffress، وعشرين آخرين لا يقلّون عنهم تشدداً وولاء لإسرائيل وللأفكار الإنجيلية المؤسّسة للصهيونية المسيحية.

ربما لن نفيق نحن العرب من هذه الصدمة قبل أن تدركنا الصدمة الثالثة القادمة التي تحدّث عنها أحد غلاة القساوسة الإنجيليين أمام الرئيس الأمريكي «ترامب»، وهي إعادة

16 – راجع حول هذه الوثيقة المهمة:

Berenbaum, Michael "Pittsburgh Platform" *Encyclopaedia Judaica*, edited by Michael Berenbaum and Fred Skolnik, 2nd ed, vol 16, Macmillan Reference USA, 2007, pp 190-191.

بناء الهيكل. فليست إقامة إسرائيل وعودة اليهود وإعلان القدس عاصمة لها إلا مقدّمات للحدث الأهم وهو إعادة بناء الهيكل المزعوم، حتى تتمكّن اليهودية من استعادة شرائعها المعطّلة وتثبيت السنهدرين إلى جواره حتى تتمكن المسيحية الصهيونية من إدراك هدفها النهائي وهو انتظار المخلّص، وتحضيراً لتصفية الحساب النهائي مع اليهودية.

إن ثمة خطراً حقيقياً لا يقدره المسلمون والعرب حق قدره، وهو المتمثل في ضرورة الوعي بالخلفيات النظرية والضمنيات والمسلّمات التي تحكم تحالف الصهيونية واليمين الديني المسيحي الصهيوني في الولايات المتحدة بالأساس. وإنّهم مطالبون بإعادة التفكير في هذا الخطر وتدبره والاحتياط منه، وهو يتمثل في تلك الفرضية التي تريد أن ترى أن حل القضية الفلسطينية لا يمكن أن ينبني أو يستقيم إلا بجعل الإسلام غريباً عن الحضارة المسيحية اليهودية نشأة ومساراً، وغريباً أيضاً عن الحضارة الإغريقية الرومانية. وهذا هو أخطر ما في هذه الدعوى وهو مصادرة على المطلوب، يمكن اعتبارها نموذجاً على النصب والاحتيال التاريخي، إذ يبدو أن الصراع هو صيغة معدلة لذلك الجدل الديني القديم، يحاول تغييب صلة الإسلام بالحلقة المسيحية اليهودية المفقودة، وهو قول يجد غايته في النازية والمحرقة من حيث هي فصل نهائي بين اليهودية والمسيحية، من ناحية، وفي الحروب الصليبيّة من حيث هي فصل الإسلام عن المسيحية، من ناحية أخرى. كما يجد غايته في فصل الإسلام عن اليهودية مع قيام إسرائيل، ثم ظهور صياغة جديدة هي الاتصال الجديد بين المسيحية واليهودية فيما يعرف بالمسيحية الصهيونية وإقصاء الإسلام باعتباره غريباً عن التراث المسيحي اليهودي في صياغته المعاصرة.

إن ما يفعله اليمين المسيحي الصهيوني الأمريكي، من الوجهة الدينية والسياسية، هو غطاء يقوم على إعادة تملّك اليهودية بأن يقدم لها الإسلام طعماً لاسترضائها من أجل تمرير جوهر خطابه القائم على استرداد اليهودية وفق منطق الكتابين: كتاب العهد الجديد/ القديم والإدماج assimilation مع التدمير والإبادة annihilation. إنه دعوة لليهودية إلى الاشتراك في جبهة مناهضة للإسلام باسم (مسيهودية) مشتركة، تقبل فيها اليهودية بفعل تملّكها من قبل الصهيونية المسيحية وتصوراتها الألفية. وعلى اليهودية أن تقبل بهذه الصفقة مقابل استرضائها بإخراج الإسلام من هذه (المسيهودية) باعتباره شكلاً من أشكال الوثنية.

إن على المسلمين، بالتالي، أن يدركوا حقيقة أن تدمير المسجد الأقصى هو حتمية صهيونية وحتمية مسيحية صهيونية، وهي آتية لا ريب فيها لمن يقرأ الصهيونية جيداً ولمن يقرأ تاريخ الحركات البروتستانتية ذات المرجعيات الألفية والقدرية وغيرها، ويدرك حجم سطوتها على القرار السياسي الأمريكي في هذه المرحلة من التاريخ. وعلى كل فـ«هَـذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ» حتى يولوا هذه المسائل حقها من الكتابة والانتباه، إذ ليس بالضجيج وحده يمكن الوقوف في وجه هذه العقائد والحركات والتنظيمات التي تقذف بوصفات جاهزة ومعلّبات من الأفكار المشيحانية والميثولوجية واللاعقلانية، ولا يمكن لأحد أن يجهل حجم قوتها التدميرية إذا ما ترجمت جيوسياسيا.

ولمن يضعون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت أن يتذكروا أن الأَرْض المقدّسة الواردة في القرآن «ادخلوا الأَرْض المقدّسة التي كتب الله لكم» والتي يستشهد بها بعض العوام والملبسين للدلالة على أحقية اليهود في فلسطين بل في الشام كله، وكأن القرآن يدعم التصورات الصهيونية في هذا المجال، إنمّا يدل دلالة قاطعة على عدم فهم جوهر الرسالة النبوية التي انفصلت

منذ السنة الثانية للهجرة، أي بعد الشروع في تصفية الوجود اليهودي السياسي في الجزيرة، فأعادت تشكيل الإسلام خارج إطار الرصيد السامي اليهودي القديم. وبالتالي فإن هذه الآية لا يمكن أن تفهم إلا في سياق آية أخرى أساسية وهي إن «الأرض يرثها عبادي الصالحون »، وكلمة الأَرْض في هذا السياق لا تعنى مجرد التراب أو أي أرض بل الأَرْض في المعنى الكتابي biblique أي ما اشتهر لاحقا باسم أرض كنعان و«أرض إسرائيل»، فالقرآن أنهى أسطورة الوعد التوراتية التي تتحدث عنها الآية الأُولَى ليقول إنها موعودة للصالحين من عباده، كما أنهى ترسيخ فعل النبوة من خلال النسب الإسماعيلي والانتساب إلى إبراهيم والتمسك بحق البكورة الإسماعيلي وغير هذا مما كشفته العبقرية القرآنية التي ورثت المسيهودية القديمة التي أنكرتها كل من اليهودية والمسيحية سواء بسواء.

لقد كانت الأمور واضحة في ذهن النبي وفي القرآن... فحذار من تحويل الصراع إلى صراع ديني، وهو ما نشاهده اليوم ونلمسه منذ عملية طوفان الأقصى من تكالب الصهيونية الدينية وغلاتها من الحريديم القوميين سليلي فكر الربّي «أفراهام كوك» ومن والاهم من الصهاينة المسيحيين عبر العالم في هذا الاتجاه. ولا شك عندي أن الصهيونية المسيحية ستعود يوما إلى حجمها الطبيعي وتعود الأفكار الألفية إلى القمقم الذي ربطها فيه القديس أوغسطين مع تدافع الأصوليات الدينية حد الإنهاك في الشرق الأوسط. وسيتذكّر الكثيرون تعليق البابا بيندكتوس الخامس عشر على هامش وثيقة وعد «بلفور» وفيه أن اليهود لا يمتلكون أي حق سيادي على الأَرْض المقدّسة. ولكن في انتظار ذلك سيكون الثمن غالياً وعلى العرب أن يضيفوا صفحات إلى كتاب المحن لابن أبي العرب التميمي وأن يسير المسيحيون منهم أيضاً على درب الآلام.

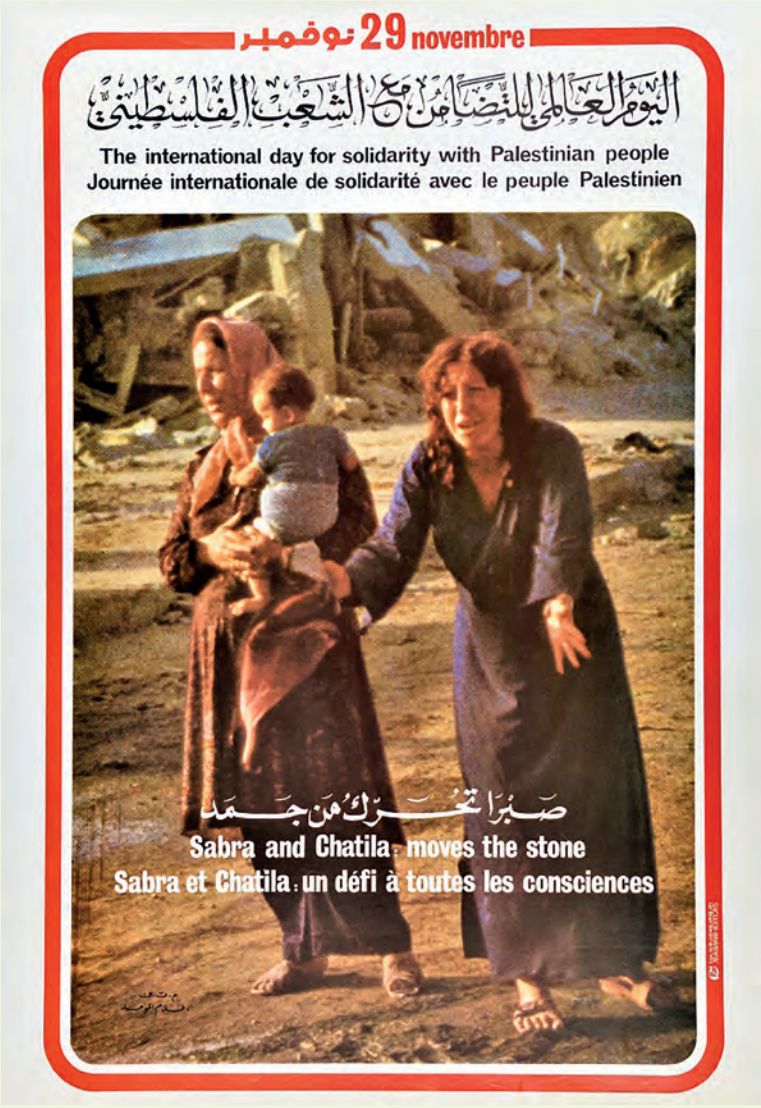

معلقة من معلقات اليوم العالمي للتضامن
مع الشعب الفلسطيني

من وحي فلسطين

محمّد حسين فنطر(*)

ماذا عن فلسطين في العصور القديمة؟ ظهر هذا العلم الجغرافي في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. أورده المؤرّخ الاغريقي الشهير هيرودوت في السّفر الأوّل من تاريخه وتحديدا في فقرته الخامسة بعد المائة حيث وردت عبارة **سوريا فلسطين** التي تثبت أنّ المؤرّخ الاغريقي كان يعتبر فلسطين جزءا ممّا يغطيه في عهده اسم سوريا على الخارطة السّياسية. فهي من بلاد الشام. الثابت أنّ فلسطين هيرودوت اسم جغرافي مشتقّ من اسم **الفيلستينيين**

من هم الفيلستينيون؟

عرف الفيلستينيّون ضمن شعوب البحر التي هاجمت مصر في أيّام رمسيس الثالث الذي تبوّأ عرش الفراعنة في النصف الأوّل من القرن الثاني عشر قبل ميلاد المسيح. كان فرعونا قبل أن يتبوّأ داود عرش بني إسرائيل. تمكّن رمسيس الثالث من التصدّي الى هجمات لفيف من شعوب المتوسّط كانت تبحث عمّا يسدّ الرّمق ويثري. من بينهم فريق من الفيلستينيين الذين فضّلوا العودة الى أوطانهم في أرض كنعان المجيدة. غادروها لينضمّوا الى شتات من أقوام نزحوا من بلدانهم لأسباب اقتصادية أمنية وعسكرية. الأرجح أنّ ديار الفيلستينيّين كانت مستهدفة. ليس للباحث رؤية واضحة حول الذين كانوا يقضّون مضجع الكنعانيين في ديارهم. ولكن من الوثائق التي لا غنى عنها للخوض في مثل هذه القضايا الشائكة، رسالة توجّه بها ملك يورشليم اليبوسي الى أمينوفيس الرّابع المسمّى **أخنتون**. حكم مصر من سنة 1350 الى سنة 1334. فلا غرو أن يكون له علم بشؤون مملكة اليبوسيين الذين هم في حمايته.

الرسالة من أرشيف **تل العمارنة** وقد أمضاها صاحب يورشليم في ذلك الزّمن السحيق، وهو الكنعاني اليبوسي **عبد حيبة**. وجّهت الرسالة الى صاحب مصر المشار اليه أعلاه. زامن هذا الفرعون موسى الذي ولد حسب خبراء في علم التّوريخ سنة 1391 أي قبل وصول أخنتون الى سدّة السلطان. وتوفي موسى سنة 1271. لا شكّ أنّه توريخ تقديريّ قابل للمراجعة كتوريخ ميلاد المسيح. أمّا رسالة **عبد حيبة** فمضمونها طلب مساعدة العاهل المصري اذ ذاك وحمايته. وفيها معطيات أخرى تثبت هيمنة مصر في ذلك الزّمن على ربوع الشّام أو بعضها.

فهل من علاقة بين **واحدية** أخنتون **ووحدانية** موسى؟ سؤال طرحه مشروع ولكن يعسر البتّ في مسألة متشعّبة ما دام الاختلاف قائما حول سيرة موسى في كتب المؤرخين وما دامت الشكوك تلفّ بما قيل

(*) أستاذ التاريخ القديم بكلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، رئيس كرسي حوار الحضارات سابقا.

حول رسالة موسى وكتابه. فما الفرق بين **واحدية أخنتون** و**وحدانية موسى**؟ السؤال مشروع حتّى ولو بدا خارج الموضوع. **واحدية أخنتون** توصي بعبادة القوّة المطلقة التي يمثّلها **آتون** المتجسّد في قرص الشمس وأشعّته ويغدق الخير والسعادة والسّكينة على الكون وعلى المؤمنين به من البشر. تتجسّد الواحدية في عبادة **آتون** وتعظيمه دون نكران الآلهة الآخرين. أمّا **الوحدانية** فهي عبادة إله واحد لا وجود لغيره يسمّى **الله** عند المسلمين والاسم كان معروفا عند عرب الجزيرة قبل الإسلام. أمّا اليهود فيشيرون اليه بالأحرف الأربعة ويفضّلون عدم قراءتها حتّى لا تدنس. في قراء تها كفر عند اليهود أو شبه الكفر.

ولكن لنبق مع الفيلستينيين. أقدم الوثائق المتوفّرة حولهم ترقى الى القرن الثّاني عشر قبل ميلاد المسيح وتحديدا الى عهد رمسيس الثّالث، فرعون مصر، الذي تبوّأ العرش من سنة 1185 الى سنة 1153 بعد مرور سنوات على رحيل رمسيس الثّاني الذي غادر الحياة سنة 1213 ق.م. كلاهما قاوم شعوب البحر. لكن يعود الفضل في دحرهم وتخليص مصر من عبثهم وجرائمهم الى رمسيس الثالث. فهو الذي تصدّى لهجوم شنّته على مصر

مجموعات تنتمي الى شعوب كثيرة لا يصل بينها الاّ البحث عن وسائل العيش والنّهب والقتل. فهي مجموعات مختلفة الأصول الاثنية والجغرافية والحضارية. ومن بينهم لوبيّون وفيلستينيون. هكذا ورد اسمهم في قائمة شعوب البحر التي سجّلها رمسيس الثّالث في **مدينة هابو** وقد أنشأ فيها مباني للعبادة وأخرى لإيواء العائلة المالكة أثناء زياراتها الدينية والترفيهية. تقع تلك المدينة في ضواحي مدينة ثيبة على بعد ما ينيف عن ستمائة كلم من القاهرة.

جرّع رمسيس الثالث شعوب البحر كأس الهزيمة ولم يبق لها الاّ خيار واحد: الانخراط في جيش فرعون او مغادرة مصر في ظروف يعسر وصفها. فضّل الفيلستينيون الهجرة الى أرض كنعان التي كانت تنعم بالخصب ووفرة المياه التي يمنّ بها نهر الأردن وأنهار أخرى كثيرة في ديارهم. عاد الفيلستينيون الى ديارهم ومنهم من فضّل الاعتمار في ربوع على مقربة من النّهر والبحر. فهل كان ذلك بمشيئتهم أم بمشيئة صاحب مصر الذي انتصر عليهم وأخرجهم من مملكته؟ سؤال يطرح ولكنّه يبقى عسيرا ما لم تتوفّر وثائق أخرى توضّح الرؤية وتيسّر الجواب.

وما دمنا مع طرح الأسئلة ورصد الوثائق لا بدّ من إشارة الى أسفار العهد القديم ومنها الاصحاحُ السّادسُ والعشرون من سفر التكوين مع آيات أخرى عديدة تتوزّع على أسفار مختلفة الأزمان والمضامين. من المصادر التي أشارت الى الفيلستينيين دون ذكر اسمهم تجدر الإشارة إلى الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين وإلى الآية التي تليها في سورة البقرة. ففي كلتيهما ذكر **جالوت** وجنوده وهو البطل الفيلستيني الشهير. قتل داود جالوت وفاز بالملك والحكمة وعلّمه الله ممّا يشاء. وفي تعليقه على هذا الذّكر كتب الطّاهر ابن عاشور ما يلي: وفي الآية، والكلام له، انتقال بديع الى ذكر جند **جالوت**، والتصريح باسمه، وهو قائد من قادة

الفلسطينيين اسمه في كتب اليهود **جليات**. كان طوله ستة أذرع وشبرا، وكان مسلّحا مدرّعا وكان لا يستطيع أن يبارزه أحد من بني إسرائيل، فكان إذا خرج للصفّ عرض عليهم مبارزته وعيّرهم بجبنهم...لم يستطع أحد مبارزته فانبرى له داود ورماه بالقلاع فأصاب الحجر جبهته وأسقطه الى الأرض واعتلاه داود واخترط سيفه وقطع رأسه، فذهب به الى شاول وانهزم الفلسطينيون وزوّج شاول ابنته المسماة ميكال من داود وصار داود بعد حين ملكا، عوض شاول، ثمّ آتاه الله النبوءة فصار ملكا نبيّا، وعلّمه ما يشاء. ورد ذلك في الجزء الثاني من «**التحرير والتنوير**» تعليقا على ما ورد في الآيتين المشار اليهما أعلاه.

أمّا عن أصول الفيلستينيين، فيرجّح أنهم كانوا قبائل تنتمي من حيث اللسان والدّيانة والحضارة الماديّة الى عالم كنعان. فقد أشارت بحوث المختصّين إلى مادّة أثرية معظمها من شظايا الفخار كما أشارت الى نقائش متأخّرة سطّرت بالحرف الكنعاني ونسبت الى مواقع فيلستينيّة. شاهدت صورة قطعة من فخار سطّرت عليها كتابة بحروف كنعانية قيل إنّها في متحف مدينة **اقرون** الفيلستينيّة الأصول. كما وفّرت تحريات ميدانية أخرى وحفريات وثائق نسبها مختصّون إلى حضور **موقينيّ** وحضور **قبرصيّ**. أين توجد هذه الوثائق؟ قد تكون في متاحف قوم يسّرت لهم شعوب أوروبية ظروفا مكّنتهم من اغتصاب أرض فلسطين وهو مشروع يرقى الى أولئك الذين فرضوا خارطة «**سايس بيكو**» **المشؤومة**. كان ذلك قبل ميلاد ما يسمّى دولة إسرائيل. بل الذين فكّروا في رسم الخارطة وفرضوها قد يكونون ممّن هيّؤوا الأسّ لإنشاء دولة اسرائيل تكفيرا عن ذنوبهم واستدرارا لعطف الجهات الفاعلة في دنيا اليهود. لا يتّسع المجال للوقوف على المراحل التي مرّ بها مخاض طويل مرهق أفرز دولة إسرائيل المعاصرة متناسين أنّ الانتماء إلى اليهود عقيدة لا علاقة له بالعرق. يوجد يهود من العرب كاليهودية التي تزوّجها الرسول محمّد عليه السلام ويهود من البربر ومنهم السود ومنهم البيض. فبعد وعد «بلفور» وبمساعدة المملكة البريطانية قبلت قوى أوروبيّة وأمريكيّة نشأة دولة أساسها دينيّ لكنّه عمل خير أريد به شرّ. واعتقادي أنّ الشعوب العربية لاسيما الشعب الفلسطيني مطالبة بتكوين أطر تسيطر على اللغات القديمة حتّى تتمكّن من قراءة الوثائق المتوفرة مع البحث عن أخرى تمكّنها من رؤية ما قد لم يتيسّر ولن يتيسّر لغيرها.

مدن فيلستينية

الحديث عن حضور فيلستينيّ على أرض كنعان يفرض التنويه بالحضارة التي نشأت فيها قبل هجرة بني إسرائيل إليها. كانت للفيلستينيين في أرض كنعان مدن خمس وكل مدينة منها تمثّل دولة أو قل مملكة على غرار جبيل وصور وصيدا وهي مدن كنعانية لها بصماتها في تاريخ المتوسّط. كلّ مدينة مملكة لها سيادتها. هكذا كانت مدينة جبيل المجيدة وهكذا ازدهرت مدن فيلستينية كما

عرفها بنو إسرائيل الذين سيطروا على أرض كنعانية وانتصبوا فيها بالقوّة والعنف حتّى نشأت مملكة داود وسليمان وكلاهما زامن حيرام، ملك صور في القرن العاشر قبل ميلاد المسيح.

عرفت مدن الفيلستينيين الخمس بازدهار اقتصادها وروائع عمرانها. فلا غرو أن تكون لها علاقات مع اليبوسيين بل أصولها تمتّد الى عصر البرونز وهو ما أثبتته تحريات أثرية أشرفت عليها بعثة بريطانية في غزّة. كان موقع هذه المدينة آهلا في عصر البرونز ولكن لم يتمكن الآثاريون من معاينة كلّ المراحل التي عاشها هذا الموقع الأثري. تمّت معاينة أطلال أشورية تعود الى القرن السّابع ق.م. وفي القرن الذي تلاه فتحها ملك الفرس الذي أمهرها بتجهيزات جعلت منها ميناء تجاريا يستقبل سفن الهند والسند، كما كان مرحلة في طريق الحرير ممّا جعل هيرودوت يعتبرها من المدن العظمى. ولكن في النصف الثاني من القرن الرّابع حاصرها إسكندر المقدوني وسدّد لها ضربات موجعة سنة 332 ق.م. كانت غزّة قبل ذلك سوقا مفتوحة تؤمّن تجارة اللبان والتوابل والحرير وكل ما ينتجه رجالها ونساؤها. ففي القرن الخامس ق. م. كان هيرودوت، كبير المؤرّخين الاغريق، يعتبر غزّة من المدن العظمى في بلاد الشام بل لعلّها أوّل مدينة فلسطينية تولّت ضرب عملة تيسّر علاقاتها التجارية مع الدوّل التي زامنتها.

Bibliographe

J.-B. Humbert, *Gaza méditerranéenne, histoire et archéologie en Palestine*, Paris, Errance, 2000.
N.K. Sandars, *The Sea People. Warriors of the Ancient Mediterranean* 1250-1150, B C. Londres, Thames and Hudson, 1978
F.-M. Abel, *Histoire de la Palestine depuis la conquête d'Alexandre jusqu'à l'invasion arabe*, Paris, Gabalda, 1952

بيت المقدس: «عرصة القيامة، منها المحشر وإليها المنشر»

فوزي محفوظ(*)

كانت للمقدسي صاحب كتاب «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**[2]» نظرة متميزة لموطنه، إذ تناوله بشكل يختلف هيكليا من حيث الدقة والتفصيل عن الكثير من الرحالة الذين سبقوه. ويكفي أن نقارن بين ما سجّله وبين وما ورد لدى بعض السّابقين له كالإصطخري[3] أو ابن الفقيه[4] لنرى الفارق الجسيم. فالمقدسي دقّق ووضح دون إطناب في حين جاءت كتب من سبقه مختصرة مختزلة إلى أبعد الحدود. وقد أورد المقدسي في ثنايا «**أحسن التقاسيم**» معلومات غزيرة عن بلاده دوَّن البعض منها من باب الذكريات والبعض الآخر بعد معاينة دقيقة لا تختلف عن الأسلوب العلمي المعاصر. ولذلك يمكن القول إنّ وصف المقدسي للقدس هو بلا منازع أثرى الأوصاف التي وصلتنا عن المدينة في العصر الإسلامي الأوّل، لا من حيث دقّة المعلومة فحسب بل وأيضاً من حيث المنهج، إذ يوفر معلومات متنوّعة منها ما يتعلّق بالجانب المعماري ومنها ما يتعلق بالجوانب الدينية والسياسية والانتروبولوجية الاجتماعية.

وقارئ «**أحسن التّقاسيم**» يحصل له انطباع مؤكّد أن الكاتب لا يترك فرصة تمر دون أن يمدح مدينته ويثني عليها في مختلف فصول الكتاب، وهو لا يخفي افتخاره واعتزازه بها ولا يدخر جهداً لمدحها إذ هي في نظره أعز البلدان مطلقًا[5].

(*) أستاذ التاريخ العربيّ والإسلامي والفنون بكلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات بجامعة منّوبة، مدير المعهد الوطني للتراث سابقا، عضو المجمع التونسي «بيت الحكمة»

2 – أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط. القاهرة 1991. وهي طبعة منسوخة عن طبعة بريل بليدن المنشورة سنة 1906. ونختصره فيما يلي **بأحسن التقاسيم**. والمقدسي (بفتح الميم أو ضمها) هو أصيل القدس الشّريف ولد في حدود سنة 947/336 وتوفي سنة 380/ 990، وهو من أشهر الجغرافيين العرب، عاش في ظل الدولة الفاطمية وقضى طفولته وصباه في مسقط رأسه، ثم غادره من أجل العلم وعمره حوالي عشرين سنة. وقد تطلب تأليف كتابه حسب قوله ما يقارب العشرين سنة. قال: «**واعلم أني مع هذه الوثائق والشروط لم أظهره حتى بلغت الأربعين ووطئت جميع الأقاليم وخدمت أهل العلم والدّين واتفق وفاء ذلك بمصر فارس في دولة أمير المؤمنين أبي بكر عبد الكريم الطائع لله (الخليفة العباسي الطائع) وعلى المغرب (مصر) أبو منصور نزار العزيز بالله أمير المؤمنين سنة** 375/ 985.

3 – . من كتاب القرن 3 هـ/9م له «**مسالك الممالك**»، ط ليدن، – بريل، 1927.

4 – . من كتاب القرن 3 هـ/ 9م وهو صاحب البريد والخبر له «**كتاب البلدان**»، ط ليدن، بريل، 1306.

5 – يغتنم المقدسي بكل ذكاء أي فرصة للتأكيد على أهمية مسقط رأسه وهي أهمية فعلية ولكن البعد الوجداني فيها واضح جلي. وترد أول الإشارات منذ بداية الكتاب ولا نخال أنها من باب الصدفة بل الأرجح أنها مقصودة بعينها وأسلوبها المعتمد هو المقارنة للمفاضلة والأمثلة الدالة على ذلك كثيرة. من ذلك قوله في شرح المنهج المعتمد: «**وفي كتابنا هذا اختصار لفظ على معان مثل قولنا لا نظير**

1 - فضائل بيت المقدس

يطلق المقدسي على مدينته اسم «**بيت المقدس**»، وهو بذلك يتخلى عن الاسم القديم «إيليا» الذي نجده في المصادر الأولى مثل الطبري والبلاذري وكذلك في نقائش الأميال التي عثر عليها قرب المدينة والتي تعود كلها إلى عصر الخليفة عبد الملك بن مروان 26 – 86/ 646 – 705. وهي تسمية أعطيت للمدينة منذ سنة 131 الميلادي بعد إنشاء الإمبراطور الروماني هدريانوس (Hadrianus) معبداً جديدًا عرف بمعبد إيليا كبيتولينا « Aelia capitolina ». ولكن العرب كرهوا لاحقاً استعمال التسمية القديمة وخيّروا عليها «بيت المقدس» كما أورد ذلك صاحب «**مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**»[6]

ويبلغ افتخار المقدسي بموطنه منتهاه في ما كتبه عن إقليم الشام الذي يحتوي على فضائل تتوفّر جلّها في القدس، حتى نكاد نجزم أنه لا يرى إقليم الشام إلا من زاوية القدس. فبلاد الشام هي حسب وصفه:

«ديار النبيّين، ومركز الصالحين. ومعدن البدلاء، ومطلب الفضلاء. بها القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى. والأرض المقدّسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره وديار أيوب وبئره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة إسحاق وأمّه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجبّ ارميا وحبسه ومسجد اوريا وبيته وقبّة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الأنبياء وقرى أيوب ومنازل يعقوب. والمسجد الأقصى، وجبل زيتا...ومساجد عمر ووقف عثمان...وباب حطة ذو القدر والشأن. وباب الصور وموضع اليقين وقبر مريم... ومفرق الدارين وباب السكينة وقبّة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا تحصى، وفضائل لا تخفى، وفواكه ورخاء وأشجار ومياه، وآخرة ودنيا، به يرقّ القلب وينبسط للعبادة الأعضاء».

كل هذه الصفات الحميدة التي تعني أولاً وأساسًا القدس، يردفها بجملة واحدة عن عاصمة الإقليم دمشق فيقول عنها: إنها «**جنة الدنيا**»[7].

وقمة التنويه والاعتزاز بالقدس نجدها في فحوى المناظرة التي حصلت له مع أحد قضاة البصرة. قال:

له. نريد أن ليس مثله بتة، مثل معنقة بيت المقدس (عرفها لاسترانج بأنها السفرجل) ونيلة مصر وليمون البصرة». أو: «**وربما أجملنا القول وتحته شرح مثل قولنا في الأهواز ليس لجامعها حرمة، وذلك أنه أبداً مملوء بخلق من الشطار والسوقه والجهال... وكقولنا ولا أعز من أهل بيت المقدس لأنك لا ترى بها بخساً ولا تطفيفاً ولا شرباً ظاهراً ولا سكران ولا بها دور فسق سراً ولا إعلاناً مع تعبّد وإخلاص. ولقد بلغهم أن الأمير يشرب فتسوروا عليه داره وفرقوا أهل مجلسه، ومثل قولنا في شراز لا مقدار لأهل الطيالسة بها وذلك أنه لباس الشريف والوضيع والعالم والجاهل**». وأسلوب التأليف الذي يعتمد على تضخيم المفارقة يتكرّر لديه عند وصف الأقاليم: «...**وأكثرها فسقًا فارس وأشدها حرّا وقحطا ونخيلا جزيرة العرب وأكثرها بركات وزهاد وصالحين وزهاد ومشاهد الشام...**» ثم يقول بعد ذلك: «**وبالبصرة تجارات وبمكّة فصاحة وبمرو دهاة وصنعاء طيبة الهواء وبيت المقدس حسنة البناء...**». **أحسن التقاسيم. ص** 7. وفي النهاية ليس هنالك أحسن من بيت المقدس: «**فإن قال أريد بلداً يجمع الدنيا والآخرة والخيرات والرخص والصلاح وطيب الهواء والفاكه المتضادة مثل الرطب والجوز والعنب الكبير والموز والماء البارد والمعاش الواسع قيل له عليك ببيت المقدس**». **ص.** 33.

6 – نشير إلى أنه منذ القرن الثالث الهجري بدأت تسمية «بيت المقدس» تنتشر لدى المؤلّفين مثل الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ط. دار المعارف بمصر، القاهرة، 1967، أنظر خاصة الجزء الثالث، ص. 607 – 613. وكذلك البلاذري الذي يقول صراحة أن «**إيلياء هي مدينة بيت المقدس**»، **فتوح البلدان**، تحقيق أنيس الطباع، بيروت، 1988 واليعقوبي، **البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

وفي هذا السياق كتب شهاب الدين بن تميم المقدسي صاحب **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**، قال: «**وروى أبو الحسن بن حزام قال: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله حدثني معاوية بن صالح، عن بعضهم قال: لا تدعوا المدينة بيثرب ولا بيت المقدس بإيليا باسم ملك من ملوك الروم سليمان بن شرحبيل**»، تحقيق أحمد الخطيمي، بيروت، 1994، ص 211.

حول القدس في العصر الأموي يراجع كتاب

Raby, Julian et Johns, Jeremy *Bayt al-Maqdis: 'Abd al-Malik's Jerusalem*, Oxford, University Press, 1992 -

7 – **أحسن التقاسيم**، ص. 151.

«بيت المقدس ليس في مدائن الكور أكبر منها وقصبات كثيرة أصغر منها كإصطخر وقاين والفرما، لا شديدة البرد وليس بها حر وقلّ ما يقع بها ثلج. وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضى الحرمين عن الهواء بها فقلت «سجسج» (معتدل طيب) لا حرّ ولا برد شديد قال هذا صفة الجنّة. بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه ولا أتقن من بنائها ولا أعفّ من أهلها ولا أطيب من العيش بها ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدها، عِنبها خطير، وليس لمعنّقتها نظير[8]، وفيها كلّ حاذق وطبيب، وإليها قلب كلّ لبيب، ولا تخلو كلّ يوم من غريب. وكنت يوما في مجلس القاضي المختار ابى يحيى ابن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر إلى أن سئلت أىّ بلد أجلّ؟ قلت بلدنا. قيل فأيّها أطيب؟ قلت بلدنا، قيل فأيّها أفضل؟ قلت بلدنا. قيل فأيّها أحسن؟ قلت بلدنا. قيل فأيّها أكثر خيرات؟ قلت بلدنا. قيل فأيّها أكبر؟ قلت بلدنا. فتعجّب أهل المجلس من ذلك وقيل أنت رجل محصّل وقد ادّعيت ما لا يقبل منك وما مثلك الّا كصاحب الناقة مع الحجّاج. قلت أما قولي أجلّ فلأنّها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها. وأما طيب الهواء فإنه لا سمّ لبردها ولا أذى لحرّها. وأما الحسن فلا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها. وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادّة كالأترنج واللّوز والرّطب والجوز والتّين والموز. وأما الفضل فلأنّها عرصة القيامة ومنها المحشر وإليها المنشر، وإنّما فضّلت مكّة والمدينة بالكعبة والنبيّ صلى الله عليه وسلم ويوم القيامة تزفان إليها فتحوي الفضل كله. وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها فأي أرض أوسع منها[9]».

هذا النّص على غاية من الأهمية لأنه يجيب عن تساؤل قلّما صيغ بالشكل المطلوب.

8 – . المعنقة هي السفرجل كما عرفها:

Le Strange, Guy, *Palestine under the Moslems: a description of Syria and the Holy Land from A.D. 650 to 1500 / translated from the works of the mediæval Arab geographers*, London: Alexander P. Watt for the Committee of the Palestine Exploration Fund; 1890, p. 16..

9 – **أحسن التقاسيم**، 166.

فأيهما أفضل مكة أم القدس؟ فالقدس هي أرض النبيين والصلحاء وهي أولى القبلتين ورد ذكر مسجدها في القرآن الكريم ومنها وقع الإسراء: «**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**» وقد فتحت بحضور الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وكان هذا تشريف لها. أمّا مكة، فهي قبلة المسلمين، فيها الحرم المكّي وإليها يتم الحجّ. ومع ذلك فالمقدسي يصرح بأفضلية القدس على مكّة ويثرب (المدينة)، فأهلها أنبل وأشرف وأعفّ الخلق. طباعهم سامية عالية. قال «**لا أطمع من أهل مكّة ولا أفقر من أهل يثرب ولا أعف من أهل بيت المقدس**[10]». والقدس في نظر المقدسي هي أعزّ المدن على الإطلاق فهي أجلّ وأطيب وأفضل وأحسن، كثيرة الخيرات طيبة الهواء بنيانها حسن نظيف، فيها فواكه متعدّدة متنوّعة وكل الأشياء المتضادّة المتنوّعة.

ثم إنّ السبب النهائي والحاسم في تفضيل القدس هو اختيارها من طرف المولى عزّ وجلّ حتى تكون المكان الذي سوف يتجمّع فيه الخلق يوم الحشر. فكل البشر سوف يشهدون البعث بها فهي الساحة الكبرى يوم القيامة، إنها: «**عرصة القيامة فمنها المحشر وإليها المنشر**» ولا فضل لمكّة إلا في الدنيا باحتوائها على الكعبة من جهة وشرف إيواء النبيّ صلى الله عليه وسلم من جهة ثانية. ويوم القيامة سوف تزف مكة والمدينة وكل مدن الدنيا إلى القدس فهي بذلك تحوي العالم كلّه والفضل كله. كل هذا يعني أنها في النهاية أكبر وأوسع الأصقاع حتى وإن كانت في الواقع أقل اتساعًا من مكة، لأنها سوف تضم البشرية جمعاء، ففيها سوف ينصب السّراط المستقيم على وادي جهنّم الذي يضعه المقدسي على «قرنة المسجد الأقصى من نحو الشرق». ولذلك فكلّ إنسان عاقل يبغي حسب رأيه الآخرة له أن يسمو بالقدس على غيرها من المدن بما في ذلك مكّة. ورأي المقدسي هذا يستند

10 – **أحسن التقاسيم**، ص. 34

في الحقيقة إلى أدبيات «**إسكاتولوجية**» كثيرة التداول عند بعض الكُتاب العرب المسلمين الأوائل[11].

وهذه الخصال الكثيرة لم تثن المقدسي عن توجيه بعض النقد واللوم إلى مدينته وهو نقد تغلب عليه الصبغة الدينية – الثقافية – الاقتصادية فمن عيوبها أنها:

«قليلة العلماء كثيرة النصارى في أهلها جفاءٌ على الرحبة والفنادق، ضرائب ثقال على ما يباع، فيها رجالة على الأبواب فلا يمكن أحداً أن يبيع شيئاً مما يرتفق به الناس إلا بها مع قلة يسار، وليس للمظلوم أنصار، والمستور مهموم والغني محسود، والفقيه مهجور والأديب غير مشهود، لا مجلس نظر ولا تدريس، قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس[12]».

2 وصف المعالم

بعد الحديث المطول والمتناثر في تفضيل القدس يورد المقدسي فصلا دقيقا في وصف معالمها. وأول ما يبدأ به هو وصف «المسجد الأقصى» الذي يحتل حسب تعبيره قرنة البلد الشرقي. وهذا الوضع الطبغرافي لا يزال متواصلا كما يتبين من كل الخرائط والصور الجوية القديمة والحديثة. ولفظ المسجد الأقصى عند المقدسي يطلق على ما نسميه اليوم بـ: «الحرم الشريف». وهو يضم عديد المعالم ذات الأحجام المتعدّدة من ذلك نذكر «المغطى» ويقصد به بيت الصلاة (أي ما نسميه اليوم المسجد الأقصى)، و«الدكة» وهي المصطبة التي بنيت عليها قبّة الصخرة وقبّة السلسلة» و«قبة المعراج» و«قبة النبي».

وقارئ ما كتب في «وصف بيت المقدس» يلمس الحس الأثري والمعماري الدقيق للمقدسي ومدى دقّة الملاحظة لديه وهو وصف لا يختلف كثيراً عما يقوم به الآثاريون والمهندسون المعماريون المعاصرون من وصف الرسم التخطيطي والبناء والزخرفة والمستويات التاريخية[13]. ولذلك لم يطنب في التوقف عند المحطات التاريخية التي أتت على غاية من الإيجاز، كقوله إنّ «أساس المسجد الأقصى من عمل داوود» (حوالي 1000 قبل الميلاد) وأن عبد الملك بن مروان بنى عليه بحجارة لطاف حسان «أي صغيرة» وبهذا يمكن أن يؤاخذ على مروره مر الكرام على العديد من المحطات التاريخية التي شهدتها القدس بعد داوود، ونخص بالذكر: فترة سليمان والفترة الأشورية قرن 6 قبل الميلاد والفترة الرومانية سواء في عصر هيرود الذي جدد في أيامه الحرم أو فترة الإمبراطور «هدريانوس» الذي أنشأ كما نعلم معبد الثلاثية المقدّسة المسمى «إيليا كابتولينا». كل هذه المحطات وغيرها لا يقف عندها المقدسي. ولكن ذلك لا يعني أنه يغفل التاريخ العتيق، ففي عرضه لمعالم المدينة لا يتردد في ذكر العديد من المعالم المسيحية واليهودية. وقد لاحظ أنه «**قد غلب المدينة النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس**[14]». ومن ثم يأتي التعريف بما لحق بالموقع في العصر الإسلامي موجزا أيضاً ويكتفي فقط بذكر زلزلة وقعت في دولة بني العباس ولعلّه يقصد بذلك الرجة التي حدثت في عصر المأمون العباسي (ت. 218/833) والتي على إثرها تم ترميم قبّة الصخرة. وقد تم في تلك الحملة حذف اسم عبد الملك بن مروان من نقيشة التأسيس وتعويضه باسم المأمون ولكن النقاش العباسي نسي أن يغير التاريخ فبقي نص النقيشة على النحو التالي:

11 - Papadopoulo, Alexandre, *Le Miḥrāb dans l'architecture et la religion musulmanes: Actes du colloque international tenu à Paris en mai 1980*, Paris, 1988. Voir surtout l'article d'André .Miquel, « Le Haram al-Charif », p. 65 et suiv.

12 – . **أحسن التقاسيم**، 167.

13 - Voir Creswell, K.A..C, *Early Muslim Architecture, Umayyads, A.D. 622 - 750*, avec la collaboration de Marguerite Gautier - Van Berchem pour l'étude des mosaïques de la Coupole du Rocher et la Grande Mosquée de Damas, Oxford, Clarendon Press, 1969, Deuxième édition revue et augmentée, tome I, 2 volumes in - folio, 684 pages de texte, 690 dessins, 140 planches dont sept en couleur. Voir aussi Oleg GRABAR, *Le Dôme du Rocher. Joyau de Jérusalem,* Institut du Monde arabe, Paris,1997 et Lucien Golvin, *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*, T. II, Paris, 1970.

وكتابنا **عمارة الخلفاء**، نشر جامعة منوبة، تونس،2013.

14 – . **أحسن التقاسيم**، 167.

«بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله صلى الله عليه **بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين** تقبل الله منه ورضي عنه آمين رب العالمين الحمد»[15]. كما أشار المقدسي أيضاً إلى إصلاحات قام بها عبد الله بن طاهر الذي كان من أشهر ولاة المأمون على فلسطين وقد توفّي سنة 230 /845. وإلى أبواب أمرت بها أم المقتدر بالله حوالي سنة 310 /922.

من القضايا المثيرة التي تناولها المقدسي نذكر كذلك سبب بناء الحرم الشريف وهو سبب ينفرد بذكره ويرجعه حسب قوله إلى الصراع الحضاري مع النصارى ويأتي شرح سبب بناء قبّة الصخرة في الفصل المتعلق بجامع دمشق فيقول:

« ... وقلت يوماً لعمّي، يا عم لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق ولو أصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان أصوب وأفضل، قال: لا تغفل يا بني إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليلٍ وذلك أنه رأى الشام بلد النصارى، ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد أفتن زخارفها وانتشر ذكرها، كالقمامة وبيعة لدوالرها. فاتخذ للمسلمين مسجداً أشغلهم به عنهن وجعله أحد عجائب الدنيا، ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبّة القمامة وهيأتها خشيٍ أن تعظم في قلوب المسلمين، فنصب على الصخرة قبّة على ما ترى[16]».

هذا السبب يختلف جوهريا عما أورده اليعقوبي من أن بناء قبّة الصخرة والحرم الشريف كان نتيجة الصراع الأموي الزبيري حيث كان الزبير يعمل على استمالة الحجاج الشاميين ويجبرهم على خلع طاعة الأمويين. ولتجنب هذا، منع عبد الملك الناس من الحج إلى مكة وبنى قبّة الصخرة التي يوحي شكلها بأنها مخصصة للطواف وذلك بعد أن استشار الفقيه المقدسي المشهور رجاء بن حيوة.

إنّ الأوصاف المعمارية التي يقدمها المقدسي على غاية من الدقة وكثيراً ما أيدتها الأبحاث الأثرية المعاصرة. فهو يعطي وصفاً دقيقاً للحرم الذي يدخل إليه من ثلاثة عشر موضعًا بعشرين باباً، ثم يستعرض مقاييس الحرم ويقول أن طوله 1000 ذراع وعرضه 700 ذراع وهي مقاييس لا تختلف عن الحاضر.

كما أن وصف المسجد الذي يطلق عليه لفظ «المغطى» يعتبر أدق ما وصلنا. وقد سمح بالتعرف على التخطيط الأصلي للمعلم في أيام الأمويين والعباسيين والفاطميين ويتضح أن المسجد في القرن الرابع الهجري يختلف تماماً عمّا هو عليه الآن. فقد كان يتألف من 15 بلاطة طولية و11 بلاطة عرضية يتوسطها «**جمل عظيم**»، أي أنه كان على غرار جامع دمشق مقبى بسقف هرمي قرميدي. وقد أكدت الحفريات التي أقيمت بعيد الحرب العالمية الثانية صحة وصف المقدسي ولاسيما وجود البلاطة الوسطى وأهمية منطقة المحراب، كما كشفت أن المبنى شيّد باستخدام أساطين قديمة جلها معادة الاستغلال.

أما المعلم الثاني الذي يطنب في وصفه فهو قبّة الصخرة. وهي أقدم معلم إسلامي قائم اليوم بنيت في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 72 / 691 كما أثبت ذلك في النقيشة الموجودة بداخل القبة وأجمعت عليه كل المصادر تقريباً. ولا تزال هذه القبة التي ينعتها بـ : «البيت المثمن» تحافظ على حليتها المعمارية ولاسيما الفسيفساء التي صنعت من عجين البلور وهي فريدة من نوعها. وقد حددت قبّة الصخرة الملامح الكبرى للزخرفة الإسلامية ومواضيعها. ومن المثير حقّا أن الوصف الذي تركه لها المقدسي ينطبق تقريباً في أبسط جزئياته على المعلم الحالي وهو إحصاء دقيق لكل مكوناتها. فكل العناصر التي أشار إليها المقدسي لا تزال ترى اليوم. من ذلك أنها : «**وسط الدكة التي يصعد إليها من أربع جوانب في مراقٍ واسع**»، وفوق الدكة لا تزال الأربع قباب التي أشار إليها وهي: «**قبة السلسلة وقبّة المعراج وقبّة النبي صلى الله عليه وسلم وهذه الثلاث قباب لطاف** (صغيرة) **ملبسة**

15 - Berchem, Max Van, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, Part 2 Syrie du Sud, T.2 Jérusalem Haram, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1927.

16 – **أحسن التقاسيم**. ص، 159.

بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان». وفي الوسط «قبة الصخرة» **وقد بنيت على شكل بيت مثمن له أربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة**». ثم يعطي المقدسي وصفاً على غاية من الدقّة لقبّة الصخرة فيقول: «**داخل البيت ثلاثة أروقة** (ممرات) **على أعمدة معجونة** (veinés) **أجل من الرخام وأحسن لا نظير لها**» وهناك «**رواق مستدير على الصخرة لا مثمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة** (arcature circulaire)».

ثم يمدنا بقياس الارتفاع فيقول «**والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع، ترى من البعد، فوقها سفود حسن طول قامة وبسطة. وهي قبّة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب، وأرض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق**» أي أنها مزينة بالفسيفساء.

ويشير المقدسي إلى كيفية صنع القبة فيقول: « .**والقبة ثلاث سافات**» أي مستويات: **الاولى من ألواح مزوقة والثانية من أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح وفي وسطها طريق إلى عند السفود يصعدها الصناع لتفقدها ورمها، فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلألأت المنطقة ورأيت شيئا عجيباً، وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبة**». هذا الأسلوب في صناعة هيكل القبة شاهده العالم الأثري «كريسول» وتحقق من صحته قبل أن تقع إزالته في السنوات الستين. كما أفاد المقدسي بوجود **مصلى في المغارة يسع 96 شخصاً**، وبالفعل لا يزال هذا المصلى مستعملاً وبه محراب يعود إلى القرن العاشر الميلادي على ما يعتقد.

وينهي المقدسي هذا الوصف الدقيق الجيد بالتعرض إلى مسألة توزيع مجمل المعالم داخل الحرم. وقد انتبه إلى أن كل المباني توجد في الجهة الغربية من الحرم حتى لو بدا الجانب الشرقي شاغرًا ليس فيه بناء. وقد حاول أن يفسر عدم الانتظام هذا بقوله:

«وليس على الميسرة أروقة والمغطى لا يتصل بالحائط الشرقي، ومن أجل هذا يقال لا يتم فيه صف أبداً وإنما ترك هذا البعض لسببين: أحدهما قول عمر: اتخذوا في غربي هذا المسجد مصلى للمسلمين، فتركت هذه القطعة لئلا يخالف، والثاني أنهم لو مدوا المغطى إلى الزاوية لم تقع الصخرة حذاء المحراب فكرهوا ذلك والله أعلم[17]».

يفسر المقدسي التوزع العام لمعالم الحرم بأمرين، الأول احترام توصية الخليفة عمر بأن لا يبنى في الجهة الشرقية من الحرم، والأمر الثاني هو ضرورة أن يكون محراب قبّة الصخرة في نفس محور محراب المسجد المغطى، ولا شك أن أي بناء في الجهة الشرقيه من شانه أن يفقد هذه المحورية الدينية الأساسية.

والمتأمل في وضع الحرم الشريف اليوم يلاحظ بالفعل محورين بني على أساسهما الحرم الشريف:

- المحور الأول: خط نظري يقسم كامل مساحة الحرم إلى قسمين متقابلين متساويين، وهو خط يمر محاذيا للجانب الشرقي من المسجد الأقصى وجدار قبّة الصخرة،

-والمحور الثاني خط يربط محراب المسجد الأقصى بمحراب قبّة الصخرة.

ومن ثم نرى أن كل المعالم الإسلامية الأساسية الكبرى تأخذ موضعاً غربياً شرق المحور الأوسط الذي يقسم الحرم نصفين متناظرين. والواقع أن الابتعاد عن الجهة الشرقية وعدم البناء بها له تفسير طبوغرافي. فهذه الناحية تشهد انحداراً لأرضيتها وتم بها بناء دهاليز لتسوية الأرضية تعرف عند المقدسيين بمسجد مروان ولذا يعسر عليها حمل وزن أي بناء، ولكن المقدسي يعطي تفسيرات أخرى يغلب عليها الجانب العقدي.

الخاتمة

إن المتتبع لما كتبه المقدسي عن موطنه يلاحظ فيه بكل جلاء الجانب الذاتي الشخصي. فالمؤلّف يكن حنيناً أكيدًا وحبّا جامحاً لمسقط رأسه بما يجعله يفتخر ويتباهى به على كل المدن والأقاليم في مختلف أرجاء المعمورة، مفضّلا إياه على

17 - **أحسن التقاسيم**، ص. 170

مكّة المكرمة والمدينة المنورة اللّتين يقتصر فضلهما في الدنيا دون الآخرة. ومع ذلك ففي كتابته جانب كبير من الواقعية نلمسها خاصة عند التعرض لوصف المعالم التاريخية. فهنا يرقى إلى مستوى الأثري والمهندس المعماري المعاصر. فتراه يمعن المشاهدة ويدقّق في المقاييس ويتحرى في الوصف ويجتهد في التحليل والتفسير. كل هذا يجعل من كتابه «**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**» مصدرًا لا غنى عنه لا من الناحية الجغرافية والتاريخية فحسب بل وكذلك من الناحية المعمارية.

مصادر ومراجع

البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق أنيس الطباع، بيروت، 1988.

ابن الفقيه الهمذاني، **كتاب البلدان**، ط ليدن بريل، 1306هـ.

الإصطخري، «**مسالك الممالك**»، ليدن، بريل، 1927.

الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ط. دار المعارف بمصر، القاهرة، 1967.

المقدسي البشاري، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط. القاهرة 1991.

المقدسي، شهاب الدين بن تميم، **مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام**، تحقيق أحمد الخطيمي، بيروت، 1994.

محفوظ فوزي، **عمارة الخلفاء**، نشر جامعة منوبة، تونس، 2013.

- Berchem, Max Van, *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, Part 2 Syrie du Sud, T.2 Jérusalem Haram, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1927.

- Creswell, K.A.C, *Early Muslim Architecture, Umayyads, A.D. 622 - 750*, avec la collaboration de Marguerite Gautier - Van Berchem pour l'étude des mosaïques de la Coupole du Rocher et la Grande Mosquée de Damas, Oxford, Clarendon Press, 1969.

- Golvin, Lucien, *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*, T. II, Paris, 1970.

- Grabar, Oleg, *Le Dôme du Rocher. Joyau de Jérusalem*, Institut du Monde arabe, Paris, 1997.

- Le Strange, Guy, *Palestine under the Moslems: a description of Syria and the Holy Land from A.D. 650 to 1500 / translated from the works of the mediæval Arab geographers*, London: Alexander P. Watt for the Committee of the Palestine Exploration Fund; 1890.

- Miquel, André, *« Le Haram al-Charif », dans Le Miḥrāb dans l'Architecture et la religion musulmanes*, Actes du colloque international tenu à Paris en mai 1980, Paris, 1988., p. 65 - 68.

- Papadopoulo, Alexandre, *Le Miḥrāb dans l'Architecture et la religion musulmanes*, Actes du colloque international tenu à Paris en mai 1980, Paris, 1988.

- Raby, Julian et Johns, Jeremy, *Bayt al-Maqdis: 'Abd al-Malik's Jerusalem*, Oxford, University Press, Faculty of Oriental Studies, University of Oxford, 1992.

- Sharon, Moshe, *Corpus Inscriptionum Arabicarum Palaestinae*, Volume Seven J (2), Jerusalem 1, Leiden - Boston, 2021.

علامة ميلية محفوظة بمتحف اللّوفر بباريس قسم الفنون الإسلامية رقم AO 4087 تذكر إيليا ويمكن أن نقرأ فيها النص التالي:

1 الطريق/ 2 عبد الله عبد الملك/ 3 أمير المؤمنين رحمت الله/ 4 عليه من إيليا إلى هذا/ 5 الميل ثمانية أميال

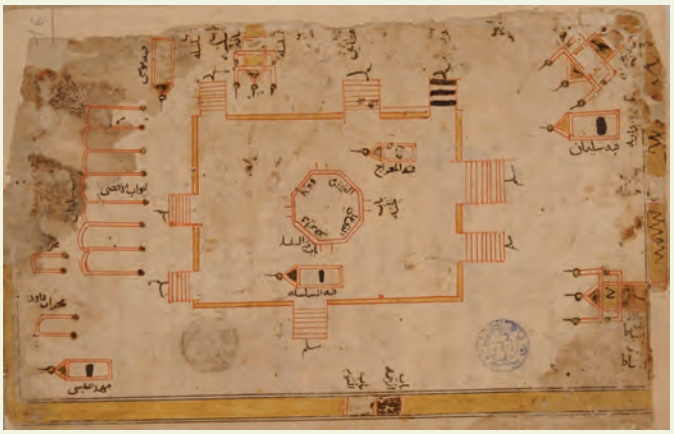

رسم الحرم الشريف من كتاب «تاريخ بيت المقدس»، لأبي الفرج عبد الرحمان ابن الجوزي، المكتبة الوطنية التونسية مخطوط عدد 07538 مؤرّخ من سنة 885 الهجري الموافق لسنة 1481م

صورة جوية للحرم الشريف بالقدس ويظهر فيها مختلف المعالم التي أنشأت في الجانب الغربي من الحرم كما تظهر فيها الدكة التي أقيمت عليها قبّة الصخرة وقبّة السلسلة وقبّة النبي: ما يلاحظ أن المسجد الأقصى يقع في محور مع قبّة الصخرة. وفي أسفل الجدار القبلي للحرم بقايا القصور الأموية.

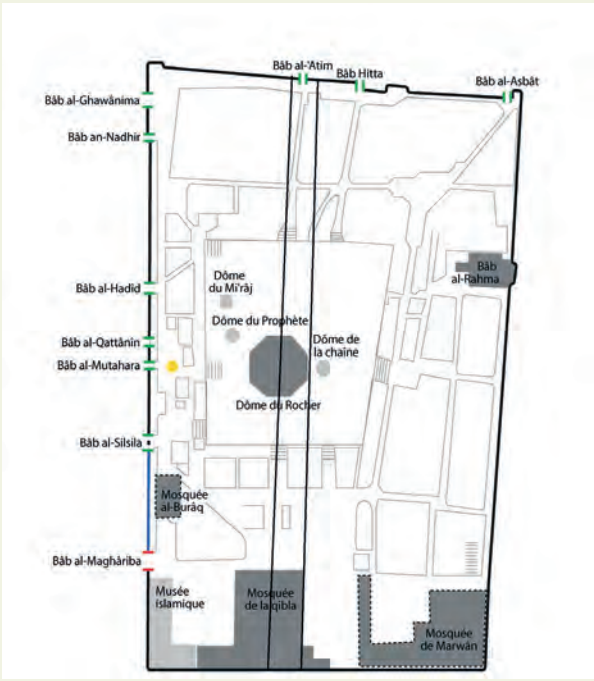

مثال الحرم الشريف ورسمنا فيه المحورين اللّذين على أساسهما وضعت المعالم

قبة الصخرة وبجوارها قبّة السلسلة التي يعتقد أنها تعود كذلك إلى العصر الأموي وهي بيت مثمن مفتوح

الصخرة من الداخل وعليها البائكة الدائرية

مغارة قبّة الصخرة التي استغلت مسجداً. وقد أكّدت الدراسات الأخيرة أن المحراب يعود للعصر الفاطمي وليس أمويا كما كان يعتقد في بداية القرن العشرين

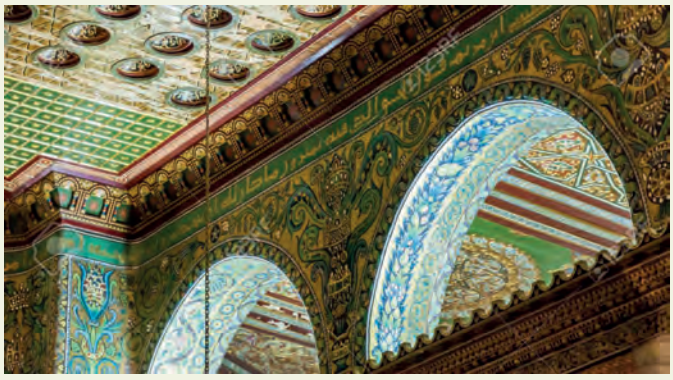

الفسيفساء الأموية في قبّة الصخرة وهي أقدم فسيفساء في العالم الإسلامي تعود إلى عصر عبد الملك بن مروان وهي مؤرّخة بدقة من سنة 72 هجري كما ورد ذلك في النقيشة التي تعلوها وتبرز فيها تأثيرات مزدوجة بيزنطية فارسية.

المدن الفلسطينيّة بين نبض الزمان وحصار العدوّ الصهيوني

منجي بورقو(*)

مقدّمة

تمسح أراضي فلسطين 27.009 كلم²، منها 5.844 كلم² بالضفة الغربية و365 كلم² بقطاع غزّة. ومعًا لا يمثلان إلّا 22,9 بالمائة من المساحة الجمليّة. تقع فلسطين وسط مجال الدول العربيّة بالمشرق وهي تمثّل همزة الوصل بين قارّات آسيا وإفريقيا وأوروبا، ومنها مرّت عدّة شعوب. وهي أيضاً واحدة من الأماكن الّتي ظهرت بها الحضارات القديمة، كما كانت مهدا للديانات السماويّة، لذلك تعتبر التجمّعات السكنيّة وتحديدًا المدن الفلسطينيّة من أقدم المدن في العالم، لا سيما بالنسبة لمدن مثل القدس وبيت لحم والخليل. وتتأتّى أهميّة المدن الفلسطينيّة من الدور الاستراتيجي والتاريخيّ والدينيّ الّذي لعبته.

وقد تكون مدينة أريحا الموجودة على بعد 16 كلم شمال البحر الميّت من أقدم المدن في العالم، وهي تترجم دور الإنسان في تدجين الكائنات الّتي من حوله والرغبة في الاستقرار وفي التنظّم الاجتماعي بالقرب من مصادر الماء، ومن عين السلطان تحديداً.

ولأنّ الأراضي الفلسطينيّة تتكوّن اليوم من ثلاثة أقاليم كبرى هي الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة والأراضي المحتلّة، فإنّه من الأنسب في هذا العرض الموجز أن نقدّم المدن الفلسطينيّة حسب انتسابها إلى كلّ إقليم من هذه الأقاليم.

1 - عدّة عوامل ساهمت في أهميّة ظاهرة التحضّر بفلسطين

اجتمع التاريخ والجغرافيا ليمثّلا معاً أبرز العوامل الّتي ساهمت في قدم التمدين بفلسطين. والدليل أنّ المدن الفلسطينيّة تزخر بعديد المواقع والمعالم التاريخيّة، منها عديد دور العبادة القديمة مثل هيكل سليمان بالقدس، كما توجد بنفس المدينة كنيسة القيامة وأوّل القبلتين وهو المسجد الأقصى، وأجمل دور العبادة من الناحية المعماريّة وهي قبّة الصخرة. كما توجد ببيت لحم كنيسة المهد. ومن المعالم الّتي ساهمت أيضاً في تجميع السكّان وتضخّم أعدادهم نذكر الحرم الإبراهيمي بمدينة الخليل ودير الجنّة المقفلة

(*) مجمعي وأستاذ الجغرافيا بكليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، مدير دار المعلّمين العليا بتونس سابقا.

وقصر مرقص نصّار وبرك سليمان الموجودة بإرطاس قرب مدينة بيت لحم.

ولعبت المعطيات الجغرافية قسطا لا يستهان به، إذ ساعدت على تجمّع السكن. وهذا حال السهل الساحلي على الواجهة الغربيّة لأراضي فلسطين، إذ هو منطقة التقاء الطرق البريّة والبحريّة للعالم القديم والجديد. وهو ما ساهم في ظهور عديد المدن الّتي استفادت من امتداد الترب الرمليّة بالمنطقة الساحليّة لتطوير الفلاحة بظهيرها، وكذلك من قرب البحر لتنمّي مبادلاتها التجاريّة فيما بينها وبقيّة المدن المتوسّطيّة الأخرى. وأحسن مثال على ذلك مدينة عكّا ومدينة حيفا من ناحية الشمال ومدينة غزّة ومدينة خان يونس من ناحية الجنوب. كما لعبت التضاريس الجبليّة الّتي تحتلّ الجزء الأوسط من فلسطين الدور الفعّال لتلتحق بها أوفر الأعداد من السكّان باعتبار موقعها المشرف الّذي يوفّر الأمن للأهالي ويساعد على مراقبة الطرقات المؤدّية لمختلف التجمّعات السكنيّة الجبليّة. ومن ناحية أخرى، ساهمت منطقة الغور الّتي تشرف على واد الأردن في تشجيع السكّان على الاستقرار وتعاطي الأنشطة الفلاحيّة، كما ساعدت على سهولة الاتّصال بمدن الجوار سواء منها الّتي تنتمي إلى المنطقة الجبليّة أو إلى الضفّة الشرقيّة لنهر الأردن وتحديدا المملكة الأردنيّة.

وإلى كلّ العوامل المذكورة سابقا انضافت منذ حرب النكبة سنة 1948 وقيام الدولة الإسرائيليّة، العوامل السياسيّة الّتي برزت مع ظهور الاستعمار الصهيوني واستحواذه على نسبة 80 بالمائة من الأراضي الفلسطينيّة وإجبار السكّان الأصليين على العيش في أراض لا تزيد مساحتها عن 20 بالمائة من المساحة الجمليّة، والحال أنّ عددهم يناهز 05 ملايين نسمة موزّعين بين الضفّة الغربيّة (3 ملايين نسمة) وقطاع غزّة (2,1 مليون نسمة)، وهذا ما يفسّر الاكتظاظ الهام الّذي تعرفه مدن قطاع غزّة، لا سيما مدن غزّة (220 ألف نسمة) وخان يونس (92 ألف نسمة) وبيت لاهيا(90 ألف نسمة). ومن ناحية أخرى، تسببت عمليّات التهجير العديدة الّتي مورست ضدّ الشعب الفلسطيني الأعزل في تضخّم القرى والبلدات على إثر تقبّلها لأفواج كبيرة من المهجّرين حتّى تحوّلت إلى مدن يزيد سكّانها عن بعض عشرات الآلاف من السكّان. وأحسن مثال على ذلك مجموعة القرى الّتي تحيط بمدينة الخليل بالضفّة الغربيّة، وقد تحوّلت في أغلبها إلى مدن عامرة منها مدينة يطّا (150 ألف نسمة) ومدينة دورا (43 ألف نسمة) ومدينة الظاهريّة (40 ألف نسمة) وقد كانت كلّ واحدة منها لا يتعدّى سكّانها ألف نسمة قبل سنة 1948.

2 - أهمّ المدن الفلسطينيّة تاريخا وأكبرها حجما من حيث السكّان

كما ذكرنا سابقا سنتولّى تقديم المدن الفلسطينيّة حسب الترتيب التالي: مدن الضفّة الغربيّة ثمّ مدن قطاع غزّة وأخيرا مدن الأراضي المحتلّة.

المتحف الفلسطيني the palestinian museum
جمعية غير حكومية Non-Governmental Association

٠٠٠٦.٠٣.٠١٥٩

منازل من طين في أريحا

الانتفاضة الأولى.صورة غير ملونة يظهر فيها منازل من طين في أريحا

أ - مدن أراضي الضفة الغربية

توجد أهمّ مدن الضفّة الغربيّة ضمن سلسلة الجبال الفلسطينيّة. والمعلوم أنّ هذه الأخيرة تمتدّ بالضفّة الغربيّة دون سواها وتحتلّ نسبة 86.2٪ من مساحة الضفة، وتمتد ما بين سهل مرج ابن عامر شمالا وحوض بئر السبع جنوبا، ومنطقة غور الأردن شرقا والسّهل السّاحلي غربا. يمكن أن نميّز داخل السلسلة الجبليّة بين ثلاثة أجزاء تمتدّ من الشمال إلى الجنوب كما يلي:

أوّلاً مدن جبال نابلس: جبال نابلس هي ذات امتداد شمالي شرقي – جنوبي غربي ثم جنوبي. وتمتدّ من سهل مرج ابن عامر شمالاً إلى جبال رام الله جنوبًا، ومن طولكرم غربا حتّى منطقة الغور والبحر الميّت شرقا، وهي بذلك تشمل مدن جنين وطولكرم وطوباس والسامريّة ونابلس وقلقيلية. وتعتبر نابلس أقدمها وأكبرها حجما. لا تبعد نابلس عن القدس إلاّ 25 كلم وتعتبر من المدن الفلسطينيّة القديمة، إذ هي كنعانيّة المنشإ منذ ما يقارب تسعة آلاف سنة. سمّاما الأوائل «شكيم» بمعنى الكتف والأرض المرتفعة

نابلس : أسواق البلدة القديمة

وسمّاها البعض الآخر «موبورتا» و«مامورتا» والكلّ يعني نفس المعنى. أمّا التسمية الحاليّة للمدينة فهي مأخوذة من التسمية الّتي أعطاها لها قيصر روما «فاسبسيانوس» (Vespasyanus) لمّا أمر ببناء مدينة جديدة على أنقاض الأولى الّتي حطّمتها الجيوش الرومانيّة وسمّاها «فيلافيا نيابوليس» (fluvia néapolis) ومعناها المدينة الجديدة وكان ذلك سنة 70 ميلاديّا.

وكان موضع المدينة المشرف والحصين وراء تسميتها بالحارس والمحرس. ومكّنها الموقع المتميّز من أن يأتي إليها المهاجرون والتجّار والغزاة، وقد سمّيت جبال نابلس بجبال النار لبطولة أهاليها وصعوبة الانتصار عليهم.

نشأت النواة الأولى لمدينة نابلس في الوادي الّذي يفصل جبل عيبال (940 م) عن جبل جرزيم (881 م) حيث تسيل الينابيع وتظهر محليّا الترسّبات الغرينيّة على قلّتها والصالحة للزراعة. وما عدا ذلك تكون الصخور جرداء رغم أهميّة كميات الأمطار السنويّة وهي تساوي 631 ملم.

ويعرف بأنّ نابلس هي أوّل المدن الّتي نزل بها إبراهيم عليه السلام قادما من العراق وبنى فيها أوّل مذبح في بلاد كنعان.

يبلغ اليوم عدد سكّان محافظة نابلس 400 ألف نسمة دون اعتبار سكّان المستوطنات اليهوديّة، إذ حرصت إسرائيل على تركيز عديد المستوطنات بالقرب منها، لتستفيد من عمليّة التحصين الطبيعيّة للمدينة. ولا تزال إسرائيل ماضية في سياسة الهدم وإرهاب السكّان والتقليص من أراضي الحمضيات للنابلسيين لأجل الحفاظ على ترويج المنتوج الإسرائيلي. وقبل احتلال 1967 وبالنسبة للصناعة كانت نابلس تنتج الصابون والحلويّات والمنسوجات وكل ما يهمّ الحدادة والصباغة والدباغة ولكن لم

تعد توجد اليوم الا بعض الصناعات الغذائية وبمحلّات صغيرة الحجم.

من معالم نابلس البئر الّذي يعتقد أنّ يعقوب عليه السلام هو الّذي حفره. وفي تخوم البئر يوجد قبر النبي يوسف. أمّا أعلام نابلس فهم كثر، منهم إبراهيم عبد الفتاح طوفان المتوفّى سنة 1941 يكنّى بشاعر الوطن، وأيضاً نهاد القاسم المتوفّى سنة 1980، القاضي بدمشق ووزير العدل أيّام الوحدة بين مصر وسوريا.

ثانياً مدن جبال القدس: جبال منطقة القدس هي ذات امتداد شمالي – جنوبي وتقع في وسط الضفّة الغربيّة بين جبال نابلس شمالا وجبال الخليل جنوبا وغور الأردن والبحر الميّت شرقا والسفوح الغربيّة لجبال القدس ورام اللّه المتّصلة مع السّهل السّاحلي الفلسطيني غربًا. وأهمّ المدن هي رام اللّه وأريحا وبيت لحم وخاصّة القدس. تنفرد هذه الأخيرة بموضعها وموقعها وحضارتها. فهي من أقدم المدن، إذ وجدت قبل بابل ونينوى، وهي أقدس المدن على وجه الأرض لاحتوائها عديد المعالم الدينيّة وبقيت صامدة رغم أنّه تمّ هدمها وإعادة بنائها أكثر من ثماني عشرة مرّة في التاريخ.

قامت القدس الأولى الكنعانيّة منذ حوالي خمسة آلاف سنة، وشيّدت على جبال القدس الّتي تفصل غور الأردن عن السهل الساحلي، وتحديدا بين جبلي نابلس شمالا والخليل جنوبا. فالموقع دفاعيّ وهو في نفس الوقت مشرف. كانت القدس مجال نشأة الديانة اليهوديّة والمسيحيّة وجاء الإسلام كهمزة وصل بين مكّة والقدس روحيّا وماديّا، إذ كانت القبلة الأولى في الإسلام. أقدم أسماء المدينة كنعانيّا وهو «شياليم» أي مدينة السّلام ونسبة إلى إلاه السّلام عندهم. وسمّيت أيضاً «بأورساليم» وقد وردت في التوراة تحت اسم «أورشاليم» وتنطق بالعبريّة «بروشالايم». غير أنّ داوود عليه السلام حوّل الاسم إلى مدينة داوود سنة 998 قبل الميلاد. ولم يدم هذا الاسم الاّ 73 سنة. وكان هادريان الامبراطور الروماني غيّر الاسم ليصبح «إيليا» ومعناه بيت اللّه وبقي الأمر كذلك 89 سنة. ولم يعد اليها اليهود الاّ سنة 1855 لمّا اشترى منتغموري اليهودي ومن معه قطعة أرض بالقدس.

تعدّ قلعة «يبوس» من أقدم البنايات في القدس وقد تمّت عمليّة التشييد منذ حوالي 4500 سنة من طرف الكنعانيين القادمين من الجزيرة العربيّة. وتمّ التشييد بالقرب من واد قدرون أو جيحون. غير أنّ الموضع المشرف لا يسمح بانفجار الينابيع بالقرب من المدينة، فكانت المياه ولا تزال تجمع في برك وتمّ أخيرًا جلب المياه إليها من العيون المجاورة.

وكان سليمان عليه السلام قد شيّد الهيكل بالمدينة وذلك بمساعدة المعماريين الفينيقيين، ويعتقد أنّه المعبد اليهودي الأوّل. وفي الإسلام، كانت القدس القبلة الأولى وإليها كان إسراء النبيّ محمّد صلاة اللّه عليه ومنها كان عروجه. وقد تسلّم عمر بن الخطّاب مفاتيح القدس سنة 15هـ وبنى بها عبد الملك بن مروان قبّة الصخرة المشرفة سنة 72 هـ، وأقام الوليد بن عبد الملك

المسجد الأقصى حوالي سنة 90 هـ واحتلّ الفرنجة القدس سنة 1099 ميلاديّا ووضعوا الصليب على قبّة الصخرة ولكنّهم هزموا في معركة حطّين سنة 1187 ميلاديا فأعادها صلاح الدين الأيّوبي إلى المسلمين. ويرجع الفضل إلى صلاح الدين الأيوبي في إعادة بناء دور العلم الّتي حطّمها النصارى وكذلك خزائن الكتب الّتي أحرقت.

وبعد الحرب العالميّة الأولى ووعد «بلفور» تحالفت الإمبراطورية البريطانيّة مع الحركة الصهيونيّة فتمّ توطين اليهود في فلسطين واحتلّوا القدس في 03 أفريل 1949 وتمّ تقسيمها إلى قدس غربيّة يهوديّة محتلّة وقدس شرقيّة عربيّة. وفي جوان 1967 استولى الصهاينة على القطاع العربي من القدس فبدأت مرحلة التصفية الحضاريّة والتهويد للمدينة المقدّسة.

وبمرور الزمن هجرت النواة القديمة وحلّت بجانبها أخرى على تلال مجاورة لما يعرف اليوم بالقدس القديمة وحولها شيّد السلطان العثماني سليمان القانوني سورا عظيما سنة 1542 ميلاديّا بأبعاد أربعة كلم. وله سبعة أبواب: هي باب العمود (أو باب دمشق) وباب الساهرة (منذ عهد السلطان سليمان القانوني) وباب الأسباط (وهو أيضاً من عهد السلطان سليمان) وباب المغاربة (وهو أصغر أبواب القدس) وباب النبيّ داوود (يؤدّي إلى ساحة داخل السور) وباب الخليل (ويسمّى أيضاً باب يافا) والباب الجديد (بني سنة 1898). وبمرور الزمن خرج البناء خارج السور وظهرت القدس الجديدة وبها الأحياء الفاخرة مثل حيّ المكبر جنوبا وحيّ المشارف شمالا. وتقدّر اليوم الكثافة السكانية داخل المدينة بـ 1.260 س/كلم^2.

وبداية من سنة 1948 وخاصّة 1967 بدأت ظاهرة ما سُمّي «الانقلاب الديمغرافي والانتروبولوجي» بالقدس إذ ما فتئ عدد اليهود يتزايد على حساب أعداد العرب. واليوم تواصل إسرائيل الاستيلاء على الموارد الطبيعيّة للقدس من أرض ومياه وترب. كما تسعى إلى إضعاف الاقتصاد العربي ومحاصرته واستغلال اليد العاملة البخسة من السكّان العرب وإجبارهم على مغادرة المدينة والهجرة منها. وتسعى إسرائيل بالمقابل إلى توسيع مساحة الأرض

المحتلّة لصالح المؤسّسات الدينيّة اليهوديّة والمنتزهات اليهوديّة والمضيّ قدما في التوسّع الاستيطاني بالقدس الشرقيّة ومحاولة فرض الفكرة الصهيونيّة بأنّ فلسطين هي «أرض بلا شعب» ويجب أن تعطى «لشعب بلا أرض» والسعي إلى جعل القدس الكبرى عاصمة لإسرائيل.

ثالثاً: مدن جبال الخليل، تقع جبال الخليل إلى الجنوب من جبال القدس، وتشكّل نهاية جبال فلسطين الوسطى، وهي ذات امتداد شمالي – جنوبي، وتتصل بصحراء النقب جنوبا والبحر الميّت شرقا. وهي تعتبر أطول كتلة جبليّة في الضفّة الغربية ومن أهمّ مدنها حلحول ودورا ويطّا والظاهريّة وخاصّة الخليل. توجد مدينة الخليل بالجنوب الغربي من الضفّة الغربيّة، جنوب بيت لحم وبالتالي فهي على أطراف المناخ المتوسّطي والصحراوي. كانت الخليل مركزا هامّا من مراكز البريد مع مصر وغزّة والغور وذلك بواسطة الحمام الزاجل، لا سيما خلال العهد المملوكي. بنيت مدينة الخليل منذ حوالي 5500 سنة وكانت تسمّى في الأصل «أربع» نسبة إلى من أنشأها الملك أربع الكنعاني. والكنعانيّون حكموا المنطقة من سنة 3500 إلى سنة 1200 قبل الميلاد. وجاءها النبيّ إبراهيم ودفن فيها وشيّد بالمكان ما يعرف إلى اليوم بالحرم الإبراهيمي وقد شيّد فوق بقايا بناء أقامه هيرودوس. كما اتخذ داوود وسليمان مدينة الخليل قاعدة لهما. وأضيف إلى الحرم عديد الشرفات خلال الفترة الإسلاميّة وكذلك القباب الواقعة فوق مراقد إبراهيم ويعقوب. وزمن الصليبيين سمّيت المدينة «قلعة القدّيس إبراهيم»، أمّا الحرم الحالي فهو كنيسة بنيت سنة 1172م وحوّلها صلاح الدّين الأيّوبي بعد سنة 1187 إلى جامع.

وقد أعطي للمدينة عديد الأسماء الأخرى منها «حبرون» وهو اسم يهودي يعني صحبة أو اتّحاد. وسمّيت أيضاً خليل الرحمان وهي تسمية إسلاميّة نسبة إلى إبراهيم عليه السلام. وسمّيت كذلك بيت إبراهيم ولم تسمّ الخليل إلا منذ بداية القرن العشرين. وفي الحقيقة ساهمت الوظيفة الدينيّة في استمرار وجود مدينة الخليل على مرّ العصور. يبلغ سكّان محافظة الخليل أي المدينة وما حولها من بلديّات مثل «حلحول» و«دورا» و«يطّا» وقرى عديدة مثل «سعير» و«الظاهريّة» و«الريحيّة» حوالي 720 ألف نسمة.

ويبقى الحرم الإبراهيمي الشريف من أهمّ معالم المدينة. إنّها بناية ضخمة محاطة بسور ضخم بني بالحجارة المهندمة وتوجد فوق السور منارتان ويتكوّن الحرم من صحن مكشوف وأضرحة لها دلالات إشاريّة فحسب، لأنّ الأضرحة الحقيقيّة توجد داخل الغار الشريف وهو مرقد الأنبياء. ويتعرّض الحرم الإبراهيمي بصفة دوريّة إلى انتهاكات صارخة من طرف العدوّ الصهيوني. ونظرا للقيمة التاريخيّة والتراثيّة لمدينة الخليل فقد تمّ إدراجها ضمن مواقع التراث العالمي لليونسكو منذ عام 2017.

ب - مدن قطاع غزّة

يوجد قطاع غزّة بالمنطقة الجنوبيّة من السهل الساحلي الفلسطيني وهو يظهر على شكل شريط ضيّق بطول 41 كلم وعرض يتراوح بين 6 و12 كلم. أكبر مدن القطاع هي غزّة وهي ثاني المدن الفلسطينيّة من حيث السكّان بعد القدس إذ يسكنها قرابة نصف سكّان القطاع. وبحكم الموقع المتقدّم، ما فتئت غزّة عبر التاريخ، تستيقظ على هول الغزوات وشجاعة تصدّي الأبطال. أمّا المدن الأخرى فهي تتوزّع على بقيّة القطاع، حيث توجد من الجنوب إلى الشمال مدن رفح وهي المدينة الفلسطينيّة الموجودة في أقصى جنوب غرب قطاع غزّة على الحدود مع مصر وبها المعبر الوحيد بفلسطين الّذي لا يسيطر

عليه العدوّ الصهيوني. أغلب سكّان رفح أتوا من مدينة خان يونس القريبة منها أو أتوا من بادية صحراء النقب وصحراء سيناء، ونسبة هامّة منهم يسكنون اليوم مخيّم اللاجئين برفح، وقد أتوا إليها على أفواج خاصّة منذ النكبة في 1948 والنكسة في 1967. وما فتئ عدد السكّان يتزايد حتّى تعدّى اليوم 130 ألف نسمة. أمّا مدينة خان يونس وبها الخان الّذي بناه سنة 1387م يونس التورزي الدوادار أي الكاتب الأوّل للسلطان وماسك الدواة. ويبلغ سكّان محافظة خان يونس قرابة 90 ألف نسمة. وشمال غرب خان يونس توجد مدينة خزاعة ثمّ مدينة عبسان وهو اسم مثنّى لأنّه توجد بلدة عبسان الكبيرة من ناحية الجنوب بعدد سكّان يزيد قليلاً على 20 ألف نسمة، وبلدة ثانية بالقرب منها من ناحية الشمال تسمّى عبسان الصغيرة أو الجديدة ولا يزيد السكّان فيها على 12 ألف نسمة. ونظرا للتمدّد العمراني فقد التحمت عبسان الصغيرة بعبسان الكبيرة. وتتوسّط مدينة دير البلح قطاع غزّة وسمّيت كذلك لوجود الدير الّذي شيّده الراهب هيلاريوس في منتصف القرن الرابع ميلاديّا والمدفون بالمدينة، وكذلك لأهميّة ما يوجد فيها من غراسات النخيل الّتي تنتج البلح.

أمّا مدن شمال القطاع فهي بيت لاهيا وتعني بيت الآلهة والمعابد وبيت حانون الّتي يعتقد أنّه كان بها البيت القديم الّذي كان يخصّص لعبادة الآلهة، وكانت بها عديد الأصنام. أسّس البيت الملك حانون وجعلها مصيفا له، حتّى سمّيت بيت حانون. وقد تجاوز اليوم عدد سكانها 40 ألف نسمة. وأخيرا توجد مدينة جباليا الّتي يبلغ عدد سكّانها حسب الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني سنة 2021، 195 ألف نسمة، قرابة النصف منهم من القادمين الجدد إذ بها أكبر مخيّمات قطاع غزّة للاجئين، وتعمّره منذ النكبة سنة 1948 أفواج المهجّرين من القرى والمدن القريبة من قطاع غزّة والتي تمّ احتلالها من طرف إسرائيل.

غزّة هي عاصمة القطاع وقد سمّاها أهل كنعان «هزاتي» وأهل مصر «غازاتو» والآشوريّون «غزاتي»، وهي مدينة كنعانيّة الأصل توجد في شمال غرب قطاع غزّة وتحديدا على الأطراف الساحليّة للسهل الغربي بفلسطين. كلمة غزّة مشتقة من الكلمة الفارسية «غازا»، الّتي تعني «الكنز أو الثروة». ولعبت مدينة غزّة دور همزة وصل بين بلاد مصر والشام والجزيرة العربية وهي واقعة على أشهر الطرق التجاريّة القديمة الّتي كانت تربط بين حضرموت ومكة والبتراء والمدينة والهند. بنيت غزّة القديمة على ربوة على ارتفاع 45 م ويحيط بها سور، وذلك منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. أمّا ما يعرف بغزّة الجديدة فهي مقامة على سهل رمليّ في اتّجاه البحر وتسمّى أيضاً «الحارة الغربيّة». يتعدّى عدد سكّانها اليوم 200 ألف وتبلغ الكثافة ذروتها

بالأحياء القديمة مثل الشجاعيّة والزيتون والتفّاح وفي مخيّم الشاطئ للاجئين. وبحكم موقعها، عاشت غزّة ولا تزال عديد الغزوات والحروب. وهي اليوم قاعدة للفدائيين باعتبار أنّ نسبة هامّة من سكّانها نزحوا إليها بعد عمليّة الطرد والتهجير، لا سيما منذ نكبة 1948. اشتهرت غزّة بصناعة الفخّار والنسيج الحريري والصوفي وقد وردت تقنيات هذه الحرف من مصر والهند. كما كان يستخرج الكبريت من مكان يسمّى المشبسة، على بعد ستّة كلم من المدينة. كانت أرض مدينة غزّة تنتج الحمضيّات والشعير من الحبوب والخضروات وخاصّة زيت الزيتون بين وادي غزّة ووادي سنيد، ولكنّ المحاصيل تراجعت اليوم كثيراً، خاصّة بسبب تقلّص المساحات المفلّحة أمام الزحف العمراني. كما كانت حول المدينة مزارع الخضروات وتسمّى السواني وتروى بمياه جوفيّة. تشكو مدينة غزّة من الازدحام السكّاني حتّى أصبحت اليوم عبارة عن قطعة من الاسمنت المسلّح يصعب على العدو إقامة المستوطنات فيها والدخول في حرب شوارع مع فدائييها.

ج - مدن الأراضي المحتلّة

تمتدّ الأراضي المحتلّة على حوالي 80 بالمائة من أراضي السّهل السّاحلي المطلّ على البحر المتوسّط وبالأجزاء الشماليّة لغور الأردن وأخيرا بصحراء النقب. وتحتوي جميعها على ثروات طبيعيّة من تربة ثريّة ومياه بالنسبة إلى الجزئين الأوّلين ومواد طاقيّة وأوليّة بالنسبة للجزء الثالث أي صحراء النقب. ونظرا لما تحتويه هذه المناطق من موارد وإمكانيّات، فقد تمّت تهيئتها منذ القديم وعرفت بمحاصيلها الزراعيّة المتنوّعة من حمضيّات وتفّاح ورمّان وحتّى القطن والموز وأيضاً الحبوب بأنواعها. وتعتبر الأراضي المحتلّة ومدنها ذات أهميّة استراتيجيّة من حيث موقعها، لذلك سعى الإسرائيليون منذ اليوم الأوّل لاحتلالهم الأراضي الفلسطينيّة عام 1948 إلى فرض السيطرة الكاملة على مجمل المناطق الثلاث وتولّى تجميع الوافدين الجدد من اليهود وزاد من تطوير المدن الفلسطينيّة الموجودة من قبل. ومن أشهر مدن السّهل السّاحلي الواقع في غرب فلسطين المدن الفلسطينيّة التالية: عكّا مدينة الأبراج والقلاع والأسوار، وحيفا النافذة البحريّة المفتوحة ذات الأهميّة العسكريّة والتجاريّة، ويافا، المدينة المنيعة والجميلة، واللدّ ذات المناخ الطيّب والغراسات الكثيرة والمتنوّعة، والرملة، مدينة الصناعة وبساتين الحمضيّات، وعسقلان الّتي قيل فيها للشام غرّتان، غزّة وعسقلان، والمجدل وهي توأم عسقلان. أمّا بصحراء التقب فتعتبر بئر السبع أكبر المدن وأكثرها نشاطا وهي البوّابة الشماليّة لصحراء النقب والبوّابة الجنوبيّة لفلسطين. سكنت القبائل الكنعانيّة هذه المنطقة وتعرّضت المدينة إلى عديد الغارات وعرفت الغزو الآشوري والبابلي والفارسي واليوناني والروماني. أمّا أغلب أجزاء المدينة الّتي نراها اليوم فهي تعود إلى سنة 1900 وذلك بإذن من الباب العالي، وبني فيها مسجد حوّله العدوّ إلى متحف. وبدأت الزراعة تنمو بمنطقة بئر السبع مع استقرار البدو مع بداية القرن العشرين. احتلّها العدوّ الصهيوني منذ 21 أكتوبر 1948 واستغلّها قاعدة عسكريّة لمهاجمة قطاع غزّة وسيناء وقناة السويس وركّزت بالقرب منها أكبر المستوطنات الإسرائيلية وهي «ديمونا» و«ايلات» و«أوفقيم» و«عراد» و«نتيفوت» و«يروحام». وتولّى العدوّ الصهيوني طرد أهل بئرالسبع ويقال إنّ عدد من أطرد من البدو بلغ سبعة آلاف ومعهم أغلب سكّان المدينة، فلم يبق منهم إلاّ 200 نسمة في الوقت الّذي استوطن فيه سكّان العدوّ بعدد يقارب 1800 نسمة في سنة واحدة وهي سنة 1949. كما أنيرت المدينة بالكهرباء مباشرة بعد الحرب العالميّة الثانية. ويعتبر الشعيرالمحصول الأهمّ بظهير بئر السبع، ثمّ الذرة والعدس.

وبعد الحرب العالميّة الثانية تمّت غراسة أشجار التفّاح واللوز والليمون. وقد حافظت بئر السبع على الوظيفة التجاريّة إذ كانت تمثّل المدينة سوق الشعير الأوّل في فلسطين، كما ظهرت بها منذ سنوات 1990، الصناعات التحويليّة والهندسيّة والإلكترونيّة والكيميائيّة وقد ركزتها إسرائيل. وهي اليوم عاصمة النقب وتعرف نهضة لا مثيل لها إذ لم يكن يتعدّى عدد السكان العرب بها ستة آلاف، سنة 1948 بعد أن تمّ تشريد العدد الأكبر منهم وكان هناك العدد القليل من اليهود وقد أتوا خاصة من روسيا وأثيوبيا. أمّا اليوم فقد بلغ العدد الجملي للسكّان 220 ألف نسمة منهم حوالي الثلث من العرب. وما يفتأ العدوّ الصهيوني يحطّم مساكن العرب أصحاب الأرض. وقد جهّزت المدينة بما يلزم من المرافق إذ بها البرج الشامخ بارتفاع 240 م وهو لاقط للإشعاع الشمسي بهدف توليد الكهرباء للاستجابة لطلبات ما يقارب من 120 ألف من المساكن والمؤسّسات. كما يوجد ببئر السبع القطب التكنولوجي الّذي شيّد منذ سنة 2014 ويشتمل على أكثر من 75 شركة خاصّة وعموميّة. وأصبحت المدينة مرتبطة اليوم بتل أبيب بواسطة السكّة الحديديّة وذلك منذ سنة 2005. وبالقرب من بئر السبع تمّ تركيز محطّة لمفاعل نوويّ من ثمانية طوابق تحت أرضيّة وذلك لأغراض عسكريّة بمدينة أطلق عليها اسم ديمونا وهي تقع على بعد 36 كم جنوبي بئر السبع و35 كم غربي البحر الميّت. كما تمّ بها تركيز عديد محطّات التجسس.

3 - أغلب المدن الفلسطينيّة مكتظّة ومحاصرة من طرف المستعمر الصهيوني

أ- اكتظاظ مدن الضفّة والقطاع إلى حدّ التشبّع

يبلغ معدّل الكثافة السكانية في الضفة الغربية 510 نسمة في كلم^2، أمّا على مستوى المحافظات فأعلى المحافظات كثافة سكانيّة هي محافظة القدس، بما يساوي 21.262 نسمة في كلم^2 ويرجع ذلك إلى ضيق مساحة المحافظة وإلى الدور الدّيني للقدس الّذي يجعل منها عاملا جالبا لعدد متزايد من الوافدين الجدد. وتليها بالقطاع محافظة غزّة بحوالي 20 ألف نسمة في كلم^2 لتقبّلها اللاجئين على مدى عشرات السنوات واستقرارهم في مخيّمات حول المدينة لا سيما في مخيّم الشاطئ المكتظ. ولا تقلّ بقيّة مدن قطاع غزّة ومخيّماتها اكتظاظا، لا سيما مدينة خان يونس ومدينة دير البلح. يتسبّب ارتفاع الكثافات في صعوبة العيش إذ بيّن الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني بأنّ 53 بالمائة من سكّان قطاع غزّة مثلاً يعيشون تحت عتبة الفقر وأنّ 16 بالمائة منهم يعيشون الفقر المدقع.

ب - محاصرة المدن من طرف العدوّ

إضافة إلى الفقر، تعيش المدن الفلسطينيّة الحصار إذ لا يمكن الدخول إليها والخروج منها إلاّ عبر المعابر والّتي يتمّ فتحها وغلقها حسب مزاج المستعمر. وللتضييق أكثر على المدن الفلسطينيّة أقام العدوّ عديد المستعمرات حول المدن واعتبرها بمثابة الغلاف للمراقبة وإحكام السيطرة على السكان الفلسطينيين، منها على سبيل

الذكر مستوطنات «مسواه» و«جلجال» و«تومر» حول أريحا، ومستوطنات «محولة» و«روتيم « و«روعي» حول طوباس ومستوطنات «جيلو» و«جفعات زئيف» في القدس، ومستوطنات «براخا» و«يتسهار» حول نابلس، ومستوطنات «إفرات» و«بيتار عيليت» حول بيت لحم، ومستوطنات «كريات أربع» و«كفار عتصيون» بمنطقة الخليل. وإضافة إلى كلّ هذا شرع المستعمر منذ سنة2002 في بناء الجدار الفاصل بين الأراضي المحتلة عام 1948 وأراضي الضفة الغربية بذريعة حماية الاحتلال الإسرائيلي من العمليّات العسكريّة الفلسطينيّة، لكن الجدار يهدف في الحقيقة إلى ضمّ المزيد من الأراضي الفلسطينيّة لتغيير الواقع الجغرافي والديموغرافي فيها لصالح الاحتلال الإسرائيلي، وعزل تجمّعات بكاملها عن محيطها الأصلي، والمساهمة في إحكام الحصار على الشعب الفلسطيني وتفقير اقتصاده الوطني بشكل كبير.

خاتمـــــة

توالت الأحداث سريعة منذ بدء الاحتلال الإسرائيلي لأراضي فلسطين، وسارع العدوّ الصهيوني في كلّ مرّة إلى احتلال المزيد من الأراضي ومحاولة تغيير المشهد المحلّى للمواقع الفلسطينيّة وتغيير أسماء المدن العربيّة بأخرى عبريّة بالمناطق الّتي سيطر عليها كليّا. أمّا بالمناطق الّتي بقيت تحت نفوذ الحكم الفلسطيني المحلي فقد شيّد فيها العدوّ المستعمرات وأحكم السيطرة على مدنها. وتزامنا مع عنجهيّة المحتلّ واستباحته للأراضي والمدن والدماء الفلسطينيّة يحاول أصحاب الأرض مقاومة المحتلّ بالقلم والحجارة والسّلاح.

إشارات بيبليوغرافيّة

أبو عصيدة محمّد غانم (2019) التوزيع الجغرافي للمستوطنات الإسرائيليّة وتأثيرها على السكّان الفلسطينيين في الضفّة الغربيّة. أطروحة دكتوراه في العلوم الجغرافيّة، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، 398 ص.

بورڤو منجي (2024) فلسطين أرض الحضارات، المدن والمواقع والأعلام. نقوش عربيّة، 170 ص.

جماعي (2013) موسوعة المدن الفلسطينيّة، دائرة الإعلام والثقافة، 850 ص.

الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني (2007 و2017) التعداد العام للسكّان والمساكن والمنشآت، 2007 و2017.

موسوعة المدن والقرى الفلسطينيّة PDF (الموسوعة الحرّة)https ;//arabiandibooks.infos

المتحف الفلسطيني the palestinian museum
جمعية غير حكومية Non-Governmental Association

٠٠٠١.٠١.٠٤١٠

ملصق صادر عن لم تكن أبدًا الحرية والأخلاق الدولية محمية"،" م.ت.ف، ١٩٧٠

محمية" صادر منظمة ملصق بعنوان "لم تكن أبدًا الحرية والأخلاق الدولية خطاب السياسي التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٠، ويتضمن اقتباسًا من الإسرائيلي إبا إيبان في الأمم المتحدة عام ١٩٦٧.

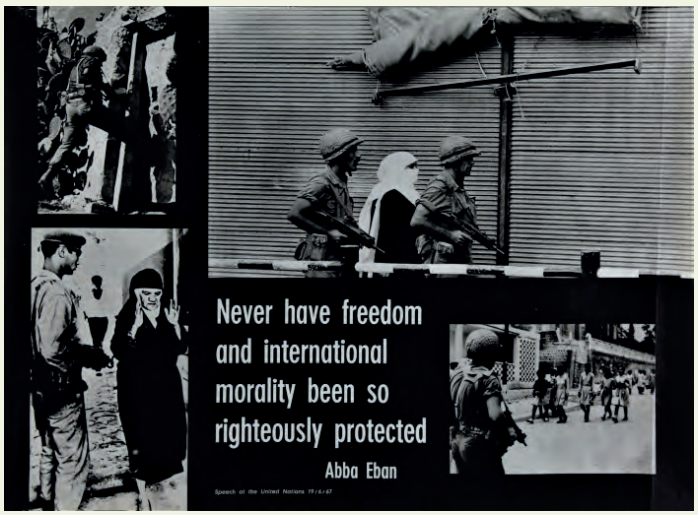

قـدس المغاربـــة

توفيـق بن عامـر(*)

إن لمدينة القدس في نفوس المغاربة مكانة خاصة ولهم بها علاقات متميزة منذ دخول الإسلام إلى بلاد المغرب. فقدسية المكان جزء لا يتجزأ من عقيدتهم لاحتوائه على المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى الرسول ومعراجه. فقد ورد في القرآن ذكر المسجد الأقصى ومكانه المبارك في سياق التعرض لحادثة الإسراء في الآية الأولى من سورة الإسراء: «**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**» ووردت الإشارة إلى المعراج في سورة النجم من الآية 7 إلى الآية 11: «**وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**» وكذلك من الآية 13 إلى الآية 18: «**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**» كما وردت الإشارة إليه ضمنيّا في سياق تغيير التوجه إلى القبلة عند إقامة الصلاة في الآية 144 من سورة البقرة: «**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**» مع تأكيد ذلك في الآيتين 149 و150. كل تلك الآيات وغيرها مما تعج به كتب الحديث من تفاصيل حول تلك الأحداث تدل على منزلة مدينة القدس ومسجدها الأقصى الدينية.

فقد روى علماء الحديث سواء في الصحاح أو المسانيد أو السنن العديد من الأحاديث المنقولة أو المنسوبة إلى الرسول حول أهمية الزيارة

للمسجد الأقصى والصلاة فيه، إذ روى أحمد بن حنبل في مسنده والبيهقي في سننه والزبيدي في كنز العمال قوله: «**بيت المقدس أرض المحشر والمنشر ائتوه فصلوا فيه فإن صلاة فيه كألف صلاة في غيره فمن لم يستطع فيهدي له زيتا يسرج فيه فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه فصلى فيه.**»[2] وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما قوله: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى.**»[3] كما روى ابن حجر قوله: «**الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة والصلاة في مسجدي بألف صلاة والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة**». وقد أجمل كل من الإمام البغوي والطاهر بن عاشور العناصر المشكّلة لقدسية المسجد الأقصى فذكروا منها أنه من وضع النبي إبراهيم وأنه مصلى الأنبياء كداوود وسليمان ومن تلاهما من أنبياء بني إسرائيل وأنّ عيسى حلّ به وأعلن

(*) مجمعي وأستاذ الحضارة العربيّة الإسلاميّة بكلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس.

2 - ابن حنبل (أحمد) – مسند الإمام أحمد - حديث رقم 27625 – البيهقي – السنن الكبرى – الزبيدي – كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال – باب فضل الحرمين والمسجد الأقصى – رقم 4114.

3 - البخاري – صحيح البخاري – باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة – رقم 1132 – مسلم – صحيح مسلم – كتاب الحج – باب لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد – رقم 3450.

فيه دعوته وأنّ النبي محمّد قد حلّ به وقام فيه بإمامته للأنبياء في قصّة الإسراء والمعراج ورحلته الغيبيّة إلى سدرة المنتهى[4]. وهكذا يتّضح أنّ هذه القدسية التي اكتستها « بيت المقدس » كما يسمّيها المغاربة كسائر المسلمين قديما هي التي بوّأته تلك المكانة العقدية في نفوسهم ولذلك كانوا يشعرون عند أدائهم لمناسك الحج أن حجهم لا يكتمل إلا بزيارة المسجد الأقصى الحرم الثالث بعد الحرمين الشريفين مكة والمدينة. فعلاقتهم بالقدس كانت بالأساس ذات طابع ديني تعبدي وإن كانت قد تطورت عبر التاريخ كما سنرى إلى أنواع أخرى من العلاقة.

كان المغاربة إذن يتوافدون باستمرار على مدينة القدس في مواسم الحج ويزورونها في الأغلب في طريق عودتهم إلى بلدانهم ومنهم من كانوا يفضلون الإقامة بها ومجاورة المسجد الأقصى للعبادة عن العودة إلى بلادهم. وقد تكاثر عدد المجاورين المغاربة عبر التاريخ وتألف منهم حي لسكناهم سيعرف فيما بعد بحي المغاربة. ويعود استقرارهم بذلك الحي إلى سنة 296 هـ/909 م. لكن زيارة المغاربة للقدس لم تكن فقط لغاية دينية تعبدية بل نشأت لهم معها علاقات علمية وثقافية في مختلف العصور. إذ كانوا يقصدونها لطلب العلم ويأخذون عن شيوخها وعلمائها وكان من بينهم أيضاً من انتصب للتدريس فيها من شيوخ وعلماء بلاد المغرب. وقد زار المدينة العديد من الفقهاء والمحدّثين والمؤرّخين والأدباء والصوفية كما كان الرحالة والجغرافيون المغاربة يقصدونها ويصفون أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية خاصة.

ومن مشاهير العلماء المغاربة المجاورين بمدينة القدس أبو بكر الطرطوشي وأبو بكر بن العربي اللذان كان لهما دور هام في انتشار الفقه المالكي في تلك الربوع. وكان من بين فقهاء المغرب والأندلس من تولوا خطة قضاء القدس مثل الشيخ ابن الأزرق الغرناطي الذي تولى تلك الخطة في القرن التاسع للهجرة ومثل الشيخ محمد النفاتي التونسي الذي تولى قضاء القدس سنة 1074 هـ/1663م. ومن الأدباء والمؤرّخين الذين زاروها ودونوا عنها في مؤلّفاتهم المقّري التلمساني صاحب نفح الطيب والذي أقام بها بضع سنوات، وكذلك العلامة ابن خلدون. أما الصوفية فنذكر من بينهم خاصة أبا مدين شعيب الذي زارها في القرن السادس للهجرة وأنشأ بها زاوية للمريدين، وكذلك الشيخ صالح حرازم الذي زارها في أواسط ذلك القرن. ومن مشاهير الجغرافيين الذين زاروها ووصفوا مسجدها وأحياءها الإدريسي صاحب «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**». وأما الرحالة فنذكر من بينهم خاصة ابن بطوطة الذي زارها في القرن الثامن للهجرة وأبدع في وصف عمارة الأقصى وما حوله في رحلته، وكذلك الرحالة أبو سالم العياشي الذي دوّن عنها في رحلته خلال القرن الحادي عشر للهجرة وكان له أثناءها لقاء سنة 1074 هـ/1663م مع قاضي القدس الشيخ محمد النفاتي التونسي إبان توليه لخطة القضاء.

4 – البغوي (أبو محمد) – معالم التنزيل – بيروت – دار ابن حزم – ط1 – 2006 –ص725 – ابن عاشور (الطاهر) – التحرير والتنوير – دار سحنون للطباعة والنشر – 15 /20.

ولعل من أدق وأبدع ما وصفت به مدينة القدس ومسجدها الأقصى وقبّة الصخرة ما ورد في رحلة ابن بطوطة «**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**» إذ أشار إلى سور المدينة وكيف هدم صلاح الدين الأيوبي جزءا منه مما يلي المسجد حتى لا يتحصن به العدوّ وكيف أتم الملك الظاهر بيبرس بعده هدمه بالكلية لنفس الغرض. وذكر أن المسجد الأقصى « ليس على وجه الأرض أكبر منه» وأن طوله من الشرق إلى الغرب 752 ذراعًا، وعرضه من جهة القبلة إلى وسطه 435 ذراعًا وله من جهة القبلة باب واحد يدخل منه الإمام وفي الجهات الثلاث الأخرى أبواب كثيرة، وساحة المسجد غير مسقوفة. أما المسجد فله سقف «في النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة وهو مموه بالذهب والأصبغة». ووصف مسجد قبّة الصخرة بقوله: «هو من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف، وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد إليها في درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً محكم الصنعة»[5] ولم يكن أبو سالم العياشي في رحلته «**ماء الموائد**» أقل دقّة وإبداعا[6].

وإذا ما كان المغاربة يشدون الرحال إلى القدس ويقيمون بها لغاية العبادة والمبادلات العلمية والثقافية والمساهمة في شؤونها الإدارية والقضائية فإن علاقتهم بها لم تكن تقتصر على هذه الشؤون بل كانت لهم معها مبادلات تجارية نشيطة. فكثيرة هي أخبار التجار المترددين عليها والمقيمين بها في كتب الأخبار وأدب الرحلة مما يدل على أنها كانت مركزا تجاريا هاما ببلاد الشام وملتقى لتجارة المشرق والمغرب. لكن هذا الصنف من العلاقات بين القدس وبلاد المغرب كان سائدا خاصة في زمن السلم. أما في حالة الحرب فقد شهدت علاقة المغاربة بهذه المدينة تطورا من نوع

5 – ابن بطوطة – تحفة النظار – بيروت – دار إحياء العلوم – د ت – ص 57 – 58.

6 – العياشي (أبو سالم) – الرحلة العياشية أو ماء الموائد.

آخر. ذلك أن المغاربة قد هبوا للمشاركة بشكل فعال في الجهاد ضد الاحتلال الصليبي لمدينة القدس التي احتلها الفرنجة سنة 493 هـ/1099م وساهموا في دحر المحتل الصليبي وفتح المدينة سنة 583 هـ/1187م صحبة القائد صلاح الدين الأيوبي ببسالة شهد لهم بها التاريخ.

وقد كان لهم في ثقافتهم الدينية ما بعث فيهم تلك الحمية ولاسيما الحديث المروي عن الرسول في قوله: «**لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس.**»[7] ومما يروى في هذا الصدد أن صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين قد طلب المدد العسكري من السلطان الموحدي يعقوب المنصور فأرسل إليه بعثة عسكرية تألفت من 180 أسطول حسب ما ذكره ابن خلدون في تاريخه. وكان الهدف من هذه البعثة اعتراض أساطيل الأوروبيين المتوجهة إلى الشام ومحاصرة مدن عكا وصور وطرابلس. وكانت هذه البعثة بقيادة الأمير عبد الرحمان بن منقذ الشيزري وشارك فيها الأمير عبد العزيز ابن شداد بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي حسب ما ذكره العماد الأصفهاني. وكان من أبرز القادة الذين شاركوا مع صلاح الدين في الحملة العسكرية ضد الصليبيين ابن دوباس المغربي الفندلاوي المعروف بأبي الحجاج المغربي[8].

وكان ممن استجاب من المغاربة تطوعا لنداء صلاح الدين المتصوف الكبير أبو مدين شعيب الملقب بالغوث، إذ يذكر أنه انطلق من مدينة بجاية في ألف فارس من المغاربة وألفي رجل من المشاة وشكلوا في مجموعهم ربع جيش المسلمين وخاضوا معارك لفتح القدس وإجلاء المحتل عنها وقد استبسل خلالها الشيخ أبو مدين في منازلة العدو حتى بترت ذراعه هناك. ولما كان للمغاربة

7 – ابن حنبل (أحمد) – المسند – حديث رقم 22320.

8 – المغربي (عبد الرحمان محمد حامد) – طائفة المغاربة في القدس الشريف – كلية عين شمس – 2000 م – ص 71 – 91.

دور كبير في كسر شوكة الفرنجة وتحقيق الانتصار في معركة حطين ومعركة بيت المقدس طلب منهم صلاح الدين الاستقرار بالمدينة وأسكنهم فيها بشكل دائم وخصص لهم الزاوية الجنوبية الغربية لحائط الحرم، وكانت تلك الزاوية سهيلة تسهل مهاجمة المدينة من جهتها بينما الجهات الثلاث الأخرى جبلية ووعرة. ويروى عن صلاح الدين أنه قال في تلك المناسبة « **أسكنت هناك من يثبتون في البر ويبطشون في البحر وخير من يؤتمنون على المسجد الأقصى وعلى هذه المدينة.** »[9] وكان ذلك منه اعترافا بشدة المغاربة وصمودهم في الحرب وقد أدرك الصليبيون الفرنجة أيضاً تلك الخصال فيهم حسب ما ذكره الرحالة ابن جبير عندما مر بأرض فلسطين عند عودته إلى الأندلس بعد أداء مناسك الحج فألزموهم بدفع المكوس والإتاوات إذا مروا بأرضهم[10]. وعندما تولى التجل الأكبر لصلاح الدين الملك بدمشق وهو نورالدين أبو الحسن علي الملقب بالملك الأفضل 589 – 592 هـ / 1193 – 1195م أوقف الحي المحيط بحائط البراق وما يتصل به من الأراضي للمغاربة وأسس لهم مدرسة وجامعا. وأصبح ذلك الوقف يمثل نواة لما صار يعرف بحارة المغاربة في مدينة القدس. وانطلاقاً من ذلك التاريخ أصبح للمغاربة وجود رسمي بالمدينة وأصبحوا مقدسيين يقاسمون أهل المدينة الحقوق والواجبات[11].

وقد شهدت مدينة القدس بعد فتحها نموّا ديمغرافيا ومعماريا بسبب تزايد عدد السكان والزوار المغاربة بها. فقد شجع ذلك الفتح وحفاوة المقدسيين المغاربة على السفر إليها لاسيما أنهم كانوا يتمتعون باحترام كبير من قبل أهل المدينة،

9 – المقدسي (أبو شامة) – كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية – بيروت – دت – ج2 – ص 170 – 172.

10 – ابن جبير (محمد بن أحمد الكناني الأندلسي) – رحلة ابن جبير – تحقيق حسين نصار – دارمصر للطباعة – دت – ص 291.

11 – الحنبلي (مجير الدين) – الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل – عمان – مكتبة المحتسب – 1973م – ص 46

وقد تردد صدى ذلك الإكرام في أنحاء المغرب كله. كما شهدت المدينة نموا معماريا لحي المغاربة بما أوقفه الملك الأفضل عليه من أراض وأنشأه به من بنايات فاتسع الحي وأطلقت عليه منذ ذلك التاريخ تسمية « **حارة المغاربة** ». وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن وثيقة الوقف الذي أمر به الملك الأفضل توجد في مكتبة كلية سانت أنطوني بجامعة أكسفورد ومدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن وفي سجل المحكمة الشرعية بالقدس. وقد اعترف المؤلّف اليهودي عوزي بنزعان في كتابه « **القدس بلا أسوار** » بكل هذه الوثائق وأوردها في ذلك الكتاب[12]. وقد أضيفت إلى وقفية الملك الأفضل أوقاف أخرى من أهمها أوقاف الشيخ أبي مدين شعيب وحفيده، وقد اشتملت على قرية عين كارم الواقعة على تخوم القدس، وكذلك عدد من المباني على طريق باب السلسلة المحاذي لحارة المغاربة. كما أوقف الشيخ أبو مدين زاوية المغاربة للعابدين المقيمين بالقدس. ومن أوقاف المغاربة أيضاً ما أوقفه المجاهد عمر المصمودي من دور وزاوية أنشأها

12 – سجل المحكمة الشرعية بالقدس – عدد 77 – ص 588. بنزعان (عوزي) – القدس بلا أسوار – ط 1974 م.

صورة نادرة للقدس قبل الاحتلال، سنة 1935

بأعلى حارة المغاربة من الجهة الشمالية الغربية وقد اشتملت على مسجد وعشر حجرات. وقد توسع نطاق تلك الأوقاف المغربية عبر العصور: ففي زمن المرينيين خصص السلطان المريني أبو الحسن علي بن عثمان سنة 738 هـ مبلغا ماليا كبيراً من الدينار الذهبي لشراء العقارات والأراضي في القدس[13].

هكذا توسّعت حارة المغاربة بالأوقاف الخاصة بها وقدرت مساحتها بـ45000 متر مربع أي 5٪ من مساحة القدس القديمة. فقد كان هناك أربع حارات شكلت مدينة القدس القديمة وكانت حارة المغاربة أقربها إلى المسجد الأقصى وهي الحارة الوحيدة التي تفضي إلى الحرم القدسي مباشرة. وهي تقع بالجانب الجنوبي الغربي لمدينة القدس وغربيّ المسجد الأقصى. يحدها جنوباً سور مدينة القدس وشرقاً الحائط الغربي للمسجد الأقصى المعروف بحائط البراق وشمالاً قنطرة أم البنات وغرباً دار القاضي شمس الدين ودار عماد الدين بن موسكي. لكنها توسّعت في العصور اللاحقة وتباينت حدودها بين الحين والآخر وامتدت قبيل العهد العثماني وخلاله إلى خارج السور وعرف ذلك الامتداد باسم حارة المغاربة البرانية. ومن الضروري الإشارة في هذا السياق إلى أن **باب المغاربة** المفضي إلى الحرم القدسي يضاهي في شهرته حارة المغاربة عبر التاريخ، وتعود شهرته إلى موقعه قبالة حارة المغاربة ومنه يمر المغاربة إلى وسط الحرم. ولِباب المغاربة أهميته التاريخية والدينية أيضاً إذ يروى أن الرسول ليلة الإسراء كان دخوله من ذلك الباب[14].

وقد لعبت حارة المغاربة دورًا أساسيا في تاريخ مدينة القدس وحياتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والروحية على مدار عدة قرون، إذ ظلت مركزا فكريا يستقطب العلماء والفقهاء وخاصة

13 – يوسف (حمد أحمد عبد الله) – من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس – القدس – 2000 م – ج1 – ص 251 – 252 – انظر أيضاً: المريني (أحمد) – قصة المغاربة مع مدينة القدس الشريف – المجلة الإلكترونية هيسبريس Hespress – ركن كتاب وآراء – 8 أوت 2018 م.

14 – العسلي (كامل) – حارة المغاربة في القدس وأهميتها التاريخية – مجلة القدس الشريف – 1988م – ص 10.

أتباع المذهب المالكي بسبب تمركز المغاربة فيها مع وجود المدرسة الأفضلية التي أوقفها الملك الأفضل[15]. كما كانت ملتقى لشيوخ الصوفية علاوة على الحجاج والتجار. وقد حافظ مغاربة القدس على مكانتهم في زمن العثمانيين منذ دخولهم المدينة سنة 1517م، وكان شيخ المغاربة ممثلا لهم لدى السلطان العثماني ومسؤولا عن أوقافهم. إلا أنه في أواخر عهد الخلافة العثمانية ومنذ نهاية القرن الثامن عشر وعشرينات القرن التاسع عشر للميلاد بدأت الدسائس الصهيونية تحاك ضد فلسطين مستهدفة مقدسات مدينة القدس وما جاورها. فبالرغم من أن السلطان عبد الحميد الثاني قد سمح لليهود بممارسة طقوسهم الدينية قرب حائط البراق فإن الحركة الصهيونية قد حاولت توجيه طموحاتها وأطماعها إلى مكان الحارة في القدس، إذ سعى البارون «روتشيلد» عام 1887م إلى شراء الحارة بأكملها بغية هدمها وتعويضها بساحة لصلاة اليهود. كما حاول الحاخام «حاييم هيرشنسون» والشركة الصهيونية لتنمية الأراضي الفلسطينية شراء حائط البراق عام 1895 م. وفي سنة 1914م عرض اليهود مبلغ 20 ألف جنيه إسترليني لشراء الحارة. لكن كل تلك المحاولات قد باءت بالفشل.

وبعد الانتداب البريطاني وصدور وعد «بلفور» سنة 1917م كتب «حاييم وايزمان» إلى «بلفور» في شهر ماي من سنة 1918م يصف الحارة بأنّها

15 – يوسف (حمد أحمد عبد الله) – من آثارنا العربية والإسلامية في بيت المقدس – مجلة القدس – 2000 م – ج1 – ص 112 – 114.

«أكواخ بائسة ومبان مهجورة» واقترح عليه تسليم حائط البراق مقابل أن يدفع اليهود ثمنه بسخاء. لكن المفتي كمال الحسيني رفض ذلك العرض. وفي عام 1919م جمع الصهيوني «حاييم وايزمان» مبلغ 75 ألف جنيه إسترليني لشراء حارة المغاربة لكن الحكومة البريطانية رفضت ذلك العرض. وفي الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين نظّم يهود فلسطين مظاهرات مطالبين بحائط المبكى مدّعين أن حائط البراق الذي يسمّونه حائط المبكى هو جزء من هيكل سليمان وأنّه المكان الذي «تجلّى فيه الربّ» وأنه يُستخدم منذ عهد سليمان مكاناً للصلاة. ومنذ قيام دولة إسرائيل سنة 1948م ووصول اليهود إلى القدس الغربية بدأت الاستهدافات الصهيونية لأوقاف المغاربة فاعتدوا على قرية عين كارم وقف الشيخ أبي مدين. وبعد حرب 1967م هدم الاحتلال الإسرائيلي حارة المغاربة بأكملها وشرّد سكّانها وحوّل ثمانية قرون من التاريخ الإسلامي الحافل إلى ركام وأنشأ مكانها ساحة المبكى التي خصّصت للصلاة والاحتفالات اليهودية. ومن أسماء العائلات المغربية التي دمّرت منازلها: الزواوي والدوكالي والجبري والمراكشي والفيلالي والفاسي والتواتي والجريدي والشنقيطي وغيرهم[16]. وقد بقي منها إلى اليوم عائلات بالقدس الشرقية. فقد كان عدد المغاربة المقيمين بالقدس زمن الملك الحسن الثاني بالمغرب 2740 يتقاضون إعانات سنوية من وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية. وهم إلى اليوم يواجهون، مع إخوانهم الفلسطينيين، الغاصبَ المحتلّ ويطمحون إلى العودة إلى ديارهم التي هجّروا منها ويتصدّون لعنجهية العدوّ الذي لا يرعوي[17].

16 – المريني (أحمد) – قصة المغاربة مع مدينة القدس الشريف – المجلة الإلكترونية هسبيريس Hespress ركن كتاب وآراء – 8 أوت 2018 م.

17 – لمزيد التوسع يمكن الرجوع إلى أحدث ما صدر حول علاقة المغاربة بالقدس وهو ما ألفه الدكتور نظمي

يوميُّ الفلسطينيِّ المجهولِ

Le quotidien du Palestinien inconnu

محمّد أبو هاشم محجوب(*)

كيف يمكننا اليوم تخصيص اليومي الفلسطيني: إنه خاصة هذا اليومي الذي ارتفع ليصبح هو الحدث، ولكنه الحدث العاري من كل تأويل. لا يوجد أي غطاء فلسفي يستقبل هذا الحدث الذي بات اليوم بعرائه، وصفوره النظري، وقصور تقليديات القول الفلسفي عن إيوائه، يؤرّق الإنسانيّة بأسرها.

اليومي مجهول دائماً. هو يومي لا تضاريس فيه، ولا تميز لأي جانب على آخر. هو يجري من دون أن نشعر به ولا أن نفرده بتقدير مخصوص. ولكن قراءته تحيل على معنى صامت فيه. لا ينتج ذلك المعنى عن تميز فيه لشيء من أشيائه، ولا لإحساس يطغى عليه. اليومي خطّ تستوي فيه الأشياء، بل تتنافس عليه في أن تصبح نكرة غير معرّفة. ومع ذلك فإنّ النّفاذ إلى رتابته، وكشف ما يقيم بين أشيائها من الإحالات المتبادلة لبعضها على بعض، يمكّن، لا من إدراكه هو كيَوْمي، وإنّما خاصّة من إدراك حقيقة الجماعة الّتي يجري فيها، ويترامى بينها زمنا غير معرّف، مهما كان فيه من الذّرى.

ويمكننا وصف اليومي من خلال ترتيب الأفعال فيه، وعرض الأماكن والتردّدات عليها، وبينها، تسجيلا لأحداثها، واستيفاء لتفاصيلها وحسابا لإيقاعها.

ولكنّ ذلك ليس دائما في مكنتنا. إنّ مراد الفيلسوف، وهو يتعرّض لليومي، هو نفض مجهوليّة اليومي عنه، وتحويله إلى موضع للمعنى، ومثل هذا البحث عن المعنى ليس من شأن المقاربات العلميةّ الّتي تكتفي دائما بحساب المعطيات.

لذلك يختار الفيلسوف أن ينهج غير هذا النهج، وأن يقرأ من خلال منشور الصّورة المبثوثة على آلاف الشّاشات، وفي آلاف الفضاءات التواصليّة، جوهر هذا اليومي من حيث هو ملخّص روح شعب معرّض للإبادة بموجب استثناء تأويليّ يسمح لعين الإنسانيّة الي صاغت كونيّة الحقوق وكونيّة موازين العدل والإنصاف، أن تخرج من دائرة الحقوق تلك شعبا كاملا، تقبل في شأنه أن تغتصب أرضه دون حرج، بل تودّ حتّى أن ينكتم صوته انكتاما فلا يُسمع، تحقيقا لمفهوم الجريمة المثاليّة. سأصف هذا اليومي من خلال صورة تداولنا جميعاً على رؤيتها: «حذاء الصبيـ/ة المجهولـ/ة». هذه قراءة ليوميّة

(*) مجمعي وأستاذ متميّز في اختصاص الفلسفة بجامعة المنار، عميد كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة القيروان سابقا، ومدير دار المعلّمين العليا بتونس سابقا.

الحياة الفلسطينيّة من خلال صورةٍ/ لوحةٍ تُستقرأ من منظور فينومينولوجي/ «جمالي».

1 رُبّـمَا

رُبَّمَا كانت صبيّةً.. رُبَّمَا كان صبيّا.. **رُبَّمَا**. أمّا الحذاء ففاتحُ فاه. عجباً؟ خوفاً؟ ضحكاً؟ أم تثاؤبَ اشمئزاز وضجر ممّا يجري؟ **رُبَّمَا**. أم تراه انذعارًا وهلَعًا وارتِعابًا.. ما أكثر كلمات الخوف، أمّا كلماتُ الطمأنينة فأقلُّ بكثير.

والصُّورة أمامنا ليست لوحة رسمها فنّان. بل صورةٌ شمسيةٌ ربّما التقطتْها عدَسَةُ صحفي كان يتصيّد دالَّ المشاهد ونادرها. **رُبَّمَا**. كما وردت في بعض الألبومات وقد امتدّت إليها في رفقِ يدُ المصوّر/ الناظر: **رُبَّمَا** أرادت تسوية الفُرْدة اليسار حتى ينعَر منها الدّم الأحمر كما ينعَرُ من فُردة اليمين. لكنّ الفُردة المقلوبة قد سبَقتْ. هكذا وقعت من قدم الصبيـ (ة): مقلوبة لا يتبيّن منها فمُها الفاغر إلا خيالاً وإعادةَ تركيب يستغني عن المنظور. والدّم لا ينعَر إلا خيالا، هو الآن جفَّ.. ولعلّه تجمّد، حتى بات غطاءً على لُسَيْن (languette)، الجِلْد المحيط بمنزل القدم من النّعل، بالمِقْدم (chaussant)، بل تجمّد عليه تجمُّدا حتى غطّى على الفرَّاشة المُثبَتة على قاع الحذاء الرّياضي الذي درج الصَّبيُّ أو دَرَجت الصبيّةُ على أن يَعْبرا به كلَّ الفصول. وخالطتْهُما الدّمَ المتجمّدَ أربطةُ الحذاء (lacets)، والعينيّاتُ (oeillères) التي تتخلّلها الأربطةُ، من خِلاف، فوق لسان مِقْدم الحذاء. ربَّما انسكبتْ دماء لم تكن تخثّرت، ولا تجمّدت، بعدُ، حتى ترسّبت على عقِب النّعل (talon)، وعلى صفيحته (semelle)، فتكدّست منها سُليْكات دم (filets de sang) قان أحاطت بالحذاء حتى صارت كالزّخرف الحزين من حوله.

وعلى يسار الفُردة اليمنى اضطجعت اليسرى، يكاد الخيالُ لا يبيح لك أن تجد فيها أيّ فرق، لولا أنّ الصورة تكشف عن دم متخثّر في أسفل الحذاء الرّياضي: ربّما مرّ أو مرّت على بركة من دمٍ قبل السقوط..

أترى كان دم صبي؟ أترى كان دم كهل؟.. ربّما تسلّل الدم من عقب النعل حتى تسرّب تحت العقب، فظلّت منه آثار تكاد تنطمس لولا العدَسة. ولكن الفُردة اليسرى قد تمدّدت على جنبها الأيمن فصار منزلُ القدم كالصرخة المكتومة، أو كنهاية الصرخة عندما ينكفئ الجُرح على نفسه، ويكاد يكتظم. ربما جاوبت الفُردة اليسرى يمناها بأن لا وقت، وقد لا يكون ثمة من جدوى، في الصراخ، والقاتل يرانا ويسمعنا.

ربّما جرت الأمورُ كما وصفتُ. ربّما. لكنّنا لا نملك أيّ توثيق عمّا صاحب ما جرى من صرخات الصّبي أو الصّبية: ترى هل صرخت؟ ترى هل صرخ؟ أم ترى كتما مِزاق الألم، أم تُرى لم يجدا نفَسا يصرُخان به قبل الموت؟

ربَّـما..

ولكنّ هذه الفقرة الأولى لا تريد أكثر من إثباتِ لَعلّية المشهد الّذي تَصفه، صورةً قد بلغت من الإبداع ما ينزّلها بمنزلة العمل الفنّي. لا نريد إذن أن نحكم على ما تدلّ عليه هذه الصُّورة، ولا على مرجعها الواقعي والعيانيّ، ولا على إحداثيّاتها الفعليّة. تلك

أشياء لا تهمّنا مثلما لا يهمُّنا أنّ أيّ عمل فنّي ينقُل أو لا ينقل، يُحاكِي أو لا يُحاكي. فنحن في جميع الأحوال نُغلِق باب المحاكاة ونحكم إغلاقه.

2 – **أشياء الإحالة وإعادة خلق العالم**

وإنّما نريد أن نصف «فينومينولوجيا» ما تقوله الصّورةُ، أعني ما تحيل عليه، أعني ما تظهره، تكشفه (révèle, fait ressortir) جدلا بين تُرابيّتها، طِينيّتها، المخصوصةِ وعالمها المُخاتل: وتلك هي يوميتُها.

إنّ نسق إحالات الصورة، وما تبنيه هذه الإحالات هنا، هو الذي يهمّنا. ما نطالب به أنفسنا هو إذن أن نقتصد الانفعال في قلب الغضب: هل يمكن أن يكون ثمة غضب أكثر مما يرتبط به مشهد حذاء الصّبيّ أو الصبيّة ملطّخا بدماء الموت جرّاء قصف لا يَفرز ولا ينبّه. ومع ذلك سيكون علينا وضعُ ذلك الانفعال بين قوسين، وأن نقصر الخطاب على «وصف» **ما يظهر** في «لوحة» الحذاء المجهول.

«الحذاء المجهول» على إيقاع «الجندي المجهول». كلنا نعرف حكاية الجندي المجهول.. أو على الأقلّ قبرَه. قد يموت المقاتل الباسل في ساحة الوغى. ليس أكثر من الموت في وحشة الوحدة، حيث لا أحد يعرفك، حيث لا أحد يسأل عنك، حيث لا أحد يضع على جثمانك اسمًا تُدفن تحته. ربما كان الأموات يتساوَوْن إذا ماتوا. ما جدوى أن يكون ابنَ فلان أو شقيقَ فلانة، ما جدوى أن يظلَّ في ذاكرة حبيبةٍ مكلومة أو أمٍّ ثُكلت؟ قد يأسفون عليه، قد يحزَنون وقد يبكون. أما هو فإنّه هو الذي مات. وفي موته ليس إلا هو صاحبَ الحدث.

ولكنّ الجندي المجهول، ولا أعني به فقط «مؤسّسة» الجندي المجهول، هو في تلك الحرب لم يمت فقط: بل مات من غير أن يكون إلى جانبه من يعرفه أو يدلُّ عليه. تلك حال من اللّا – هُويّة، من عدم التّعين، تَلفُّ الميّت المجهول، وتصاحبه إلى الأبد: تصاحبه أين؟ أين تقع «مجهولية» هذا الذي مات بلا اسم؟ إنها تقع في وعي كل الذين يحيطون به، ساعةَ دفنه مثلا، أو ساعة ردمه في مقبرة جماعية فرضتْها الظروف: إنها تقع كالفراغ، كـ«اللّا – حدث»، كالصّفر من الوقوع: لا أحد يعرفه حتى يبكي عليه، أو يرسمَ في ذاكرته صورةً عمّا كان، أو يتخيلَ العالم الذي كان عالمَه وقد خلا منه. ولكننا عندما ندفن هذا الجندي تحت اسم «الجندي المجهول»، إنما نرفعه إلى أقصى درجات «المعروفية»: هذا الجنديُّ المجهول هو هذا الذي ارتكبت الإنسانية خطيئة قتله وهو في وحشة المكان والنّاس.. **هو ليس بالضرورة بطلا، فكل الجنود الذين قاتلوا أبطال. ولكنه الميت الذي لا أحد سيبكيه. هو بطل لأنه وحيد، ولذلك صار مؤسّسة: ما هي المؤسّسة؟ إنها صورية شاملة جامعة، لا مضمون لها، ولكنّ الجميع يعترفون أنفسهم فيها.**

فكأنّما مقام «الجندي المجهول» سياق من الألفة الجماعيّة، بلِ الشّاملة، نلفّه فيها، ليصبح هذا «**المعروف من لا أحد**» هو هذا «**المشارُ إليه من الجميع**». فكأنّما بات المجهول الأقصى هو المعروف الأقصى.

ما الذي حقّقته إذن لوحة «حذاء الصبيّ المجهول/الصبية المجهولة؟

حذاء اللوحة حذاء «فاغر» (béant).. لا قدم تلبسه. ربما كان «فُغوره» نموذجيا.. هو أولاً حدث وليس حالاً. ولذلك يقطع الحذاء الفاغر أسلوب الحياة، وامتدادَها اليوميَّ المعتاد. ولذلك هو اليوم عملٌ فني. الحذاء يقول فُغورَه، فليس من شأن الحذاء أن يظل خالياً من قدمه. ولكنه اليوم خال منها.

حذاء اللوحة حذاء مغبرّ: هو يحمل معه ذكرى الرّوغات التي مرّ بها، هربا، توقّيا، استطلاعا لا يَهاب ولا يتهيَّب، مراوحة يومية، بل مراوحة من كلّ حين، بين الهبوط تحت الأرض والطفو فوقها، هربا، اختفاء، مخاتلة للموت، مراوغة لعين الدرون (drone)

المسيّرة الّتي لا مهرب منها إذا رَصدت.. ربّما كان الحذاء جوّاب شوارع، ربّما حملته قدمه الّتي فارقته اليوم إلى مَفارق طرق، ومنثنَيات مساربَ لا يعرفها إلاّ أبناء المسارب والمخيّمات. كلّ ذلك يحمله الحذاء الّذي هو اليوم يتوقّف عن المشي، كأنّما ليقُصَّ الحكاية ويُركِّب أجزاءها اليوميّة المقطوعة تماما كتقطّع الطّرق تحت قصف الطائرات. كلّ ذلك يحمله غبار الحذاء فيرفض معه غُبور العالم، غُبور الدنيا، «غُبور» الحقّ الذي يجري من تحته. كلّ ذلك تحمله اللّوحة وتقول قولاً معانِدًا لا يقدر أحد على إسكاته.

حذاء اللّوحة حذاء دام. لا نعرف، ولا نريد أن نعرف أنّ الدم هو دمُ الصبي فقط أو أنّه اختلط بدماء الذين كانوا معه. صار الدّم هو العنصر اليوميّ للمقاوم الغزّاوي، وليس دم شخص بعينه.

حذاء اللّوحة حذاء يحيل على عنف الموت اليومي، ووحشية القصف دون فرز: كلهم أهداف للقصف: إنّ حدث الموت الذي هو حدث لا نعيشه إلا في وحدتنا وفرديتنا المخصوصة قد بات حدثا لا يفرّق، ولا يعطي هويّةً لأحد. لقد بات حدثا يوميّا مكرورا. هم يقصفوننا ويمنعون عنا أن نموت ضمن «تجربة» الموت الإنسانيّة. أصبح موتانا ضمن اليومي حدثا يوميّا يكاد يفقد تراجيديّته المخصوصة. أصبحنا نموت كالنمل، وحتى النمل ترفّقت به أقدام سليمان وجيشه.

حذاء اللوحة يحيل على عالم يومي تتآلف فيه عناصر صبًى: قد يكون مرِحا دون أن يعني ذلك أنه مُريح. قد يكون متعِبا دون أن يعني ذلك أنه مكروه، قد يكون حذاء تنِطّ منه رؤى كثيرة: صداقات وأحلام.. وسباقات لهوٍ تصادق مع قشْفٍ يومي بات عادةً. حذاء اللّوحة ليس حذاء رفاهٍ ولا سَعةٍ من الحياة. ولكنّه اتسع لقدم تعجّلت كلَّ يوم أن تراوِغ القصف، ثم أن تخرج بعد القصف لتعتليَ أكداس الركام وتنظر. هل كانت مفجوعة من أن تسقط كما سقطت صديقتها «أ.» أو «م.» أو «ل.»؟ أم تراها كانت ترى نفسها دائما فوق أكداس الحجارة تعُدُّ ما بقي لها من الأصدقاء؟ ربما كانت تسائل الأكداس في كلّ مرّة عن شريك لها في أحلامها.. ربّما كانت تذكّره ويذكّرها كل ليلة قبل أن يَأْويا كلٌّ إلى حيث العائلة، أن لا تقفَ هي، ولا يقف هو، تحت السّقف إذا ابتدأ القصفُ.. أن يسرعا إلى مكان مأمون.. هل بقي مكان مأمون في غزّة؟ حتى أحلامُ الأطفال قد طالها المنعُ.. وصارت أشلاءَ تحت القصف. ربما كانت تجمع أشلاء أحلامها.. ربما لذلك كان غبارُ الأنقاض على حذائها المطاطيّ الصغير..

لا شكّ أنّ حبّات الغبار التُّرابي قد تسلّلت إلى قدمها بين اللّحم وجلد الحذاء، حتى تقرّحت القدمان.. أربطةُ الحذاء لا تزال معقودةً.. لم تجد الوقت لتنزع حذاءَها وهي تدخل إلى الموت.. نزعَه الموت من قدمها.. بعنف، ودون أي ترفّق، فلا وقت للترفّق تحت القصف. هكذا فغر المِقْدم الأيمن كاللّهاة الملتهبة التي أعطشها حبس المياه أسابيع.. وهكذا اكتظمت لهاةُ الفُردة الثانية وكأنما

انثنت على ألمها: هل ينفع الصراخ أمام الموت. صبيةً كانت وصبيّاً كان. ولكن شظايا القصف اليومي علّمتهما أن يكتما ألمهما.. فإذا حضر الموت أكبّ الواحد منهما على وجهه.. مستقبلا ظلمة التراب.

يغادر الصبي وفمه مفتوحة فاغرة من الهول.. لا يمكن أن ننتصر على الهول كل يوم. ربما كان أملُه أن يظلّ خفيفا ينِطّ في حذائه بين القنابل والصواريخ.. تماما كما تعوّد أن ينِطّ بين حبّات البرَد المتساقط يلتقطُها. كم هي لذيذة حبات البرَد تروي عطشا باردا: هل ثمة فرق بين عطش البرد وعطش القيظ والحرارة؟ ولكن حبّات البرد هذه المرّة كُرات لهيب حارقةٌ قاتلة.. لذلك هو يغادر ملتاعا من جهة، صابرا مصابرا من جهة أخرى.

هل الصبي/الصبيةُ هما الجنديُّ المجهول؟ ليس مهمّاً أن نضع اسما على الحذاء. ليس مهمّاً أن نعرف من هو صاحبه. الحذاء هو اليوم مِقدم لكلّ قدم، ومأوى لكل رجل عارية. وكلّ قدم حافية يؤويها حذاء الصبية المجهولة.. وترافقها تهوينًا عليها وسرّدا للحكاية وهمْسا حتى لا يسمع هؤلاء الشامتون المتربّصون في كل زاوية، ومخاتَلةَ خلاص.

تستدعي اللّوحة عالم الصَّبيِّ.. أو عالم الصّبيَّة.. في نَكِريَّته الجذرية (anonymat radical) التي ليس منها فكاك. ولكنّها في قلب المجهولية التي تلُفُّ الحذاء تجعل الصبيّ أو الصبيّة أشدّ عناصر ذلك العالم معروفيّة: إنّهما النابت في تلك الأرض، يمكنه أن يكون أيّ صبي وأيّةَ صبيّة.. **فإنّهما يوقّعان كيان المكان بدم الصبيان. ألا إنّ دم الصبيان قد يتخثر وقد يراق على التراب والأحذية، ولكنّه لا يتبخّر أبدا**. لن تدخل في حذاء الصبي أو الصبية أيّة قدم أخرى.. سيظل الحذاء، ستظل لوحة الحذاء، تنتظر أن يقوم الصبي أو الصبية قوْمتَهما الأخيرة ليعيدا نشر الزمان وكتابة التاريخ، وليكونا هما اللذان يلبسان الحذاء ويدخُلان الأرض المقدّسة من جديد. ولكنّ العالم ساعتَها سيكون قد بَلِي وأُنهك، ولن يجد أوفق من الصبيّين، من الشّابين، لخلْق عالم جديد.

ما تستطيعه لوحة الحذاء قد صار أكثر ممّا تستطيعه آلاف المقالات، ومن آلاف المرافعات في المحافل الدولية: هذا اليومي الفلسطيني قد بات اليوم صحيفة يومية يقرؤها، ويستطيع أن يقرأها الناس جميعاً في كلّ أنحاء المعمورة.

3. ما هي فلسطين؟

ما هي فلسطين إذن؟ تدركون معي عسْر هذا السؤال وعسر الإجابة عنه. ربما كانت علامة.. ربما كانت تباشير شيء ما. ولكن كلّ هذه رمزيّات. وبحور الرّمز ما لها ساحل، كما قال الشيخ محي الدين. ربّما كان الشيء الوحيدُ الذي يمكننا أن نجازف به، إجابةً عن هذا السؤال المتعنّت، هو أنّ جميع الشعوب المعنية به قد قامت ضمن تواقُت لم تألفه حضارةٌ: كأنما هي استجابة لنداء، كأنّما هي السّاعة قامت. فلسطين هي اليوم قوْمةٌ (قومة لا نهضة (Renaissance) ولا إحياء (Renascimento)): **كفى من هذه الحذلقات التي تعيد علينا سرديّةً كأنّما كتب علينا أن نمرَّ من سراطها لنكون**): ها نحن نقوم قوْمة واحدة، زمانيّتُها تواقت الشّعوب ضدّ توقيت الدّول والحكومات، وضد ساعاتها: ما هي فلسطين إذن؟ هي تواقتُ قوْمة الشعوب. ولكنّ هذا مجرّد عنوان. ولا يزال علينا أن نكتب التفاصيل: تفاصيل المفهوم.

في الشعر الفلسطيني الحديث:
محمود درويش لاعب النرد/لاعب اللغة

المنصف الوهايبي(*)

إلى أيّ حدّ يصحّ الكلام على شعر فلسطيني حديث؟ والمسوّغ لهذا السؤال أن الشعر ينتسب إلى اللغة؛ وليس إلى الجغرافيا. وحتى لو نسبناه إلى الجغرافيا، فإنّه من الصعوبة بمكان، أن نخضع الشعر، الذي كتب في فلسطين قبل قرار التقسيم 1947، لقوانين تاريخ الأدب الفلسطيني وقواعده. وهذا الشعر إنما ينتسب إلى العربية، والتقدير العلمي الصادق يقتضي منّا أن نقول إنّ المصطلح «شعر فلسطيني» لم يظهر إلاّ بعد هزيمة 1967، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار، فيمكن أن نرجعه إلى الثلاثينات من القرن الماضي، وتحديدًا ثورة 1936 (إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وعبد الكريم القرني). أمّا الشعر الذي ظهر في فلسطين قبل ذلك، فهو جزء من تاريخ الشعر في أرض الشام (سورية ولبنان وفلسطين)، ومن تاريخ الشعر العربي عامة. ومن مفارقات التاريخ أنّ الاستعمار الغربي (الفرنسي والبريطاني خاصة عام 1918) الذي رسم الحدود بين هذه البلدان، رسم أيضاً «الحدود» الأدبيّة بينها، أو هو أضفى على هذه الآداب، دون قصد، هويّتها الجغرافيّة.

محمود درويش: المنفيّ/ «لاعب النرد»[2]

مدخل: النصّ «اللامألوف»

لا نحسب أنّ الهمّ الإيديولوجي قد ولّى إلى غير رجعة في ما يتعلّق بمجمل المنجزات الفنّيّة والأدبيّة بما في ذلك تجربة محمود درويش وتجربة أمل دنقل أو سعدي يوسف خاصّة. لكنّنا نحسب مع ذلك أنّ هناك فيضا

في ربط نصوص درويش بمرجعيّات تقوم خارجها، وهو ما يجعل هذه المقاربات لا تفعل أكثر من مقايسة هذه النّصوص بوقائع ليست نصّية أو بواقع، والواقع فنيّا، ليس أكثر من بنية جوفاء. ونحن لا نرى داعيا إلى رمي هذه المقاربات بشبهة الخروج عن النّصّ، كما لا نرى داعيا إلى تبرئة النّصّ الدّرويشي نفسه من «تحريض» غير مقصود على مثل هذه المقاربات. إذ يصعب أن ننكر أنّ النّصّ أو الأثر، أيّ نصّ أو أيّ أثر، لا ينتسبان بنسَب من الأنساب إلى ما يوجد خارجهما، أي إلى وقائع قد لا تكون بالضّرورة من طبيعة نصّية. كما أنّه من الصّعب أيضاً أن ننكر كون النّصّ الدّرويشي يخلو من عناصر التّحفيز للقيام بمثل هذا الإرجاع؛ فهو يحفل بإحالات إلى واقع يوجد خارجه يعلم النّاسُ طبيعته ومجرياته بتفاوت لا محالة؛ وإن كانوا يعلمونه في سياقات أخرى وخطابات أخرى؛ غير سياق القول الشّعريّ وخطابه. ولمّا كنّا قد قدّرنا أنّ استئناف مثل هذا المنحى الذي يقرأ محمود درويش استنادا إلى مرجعيّة مغايرة (هي غير النّص المقروء)؛ مرجعيّة

(*) مجمعي وشاعر وأستاذ متميز بكلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة سوسة.

2 – محمود درويش: لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط 1، 2009.

تتمثّل أساسا في قضيّة فلسطين، إنّما هو يتولّى فقط مراكمة قراءات حاصلة بالفعل، إن لم يكن مجرّد تَكرار لها ليس إلاّ. ونحن إنّما ننحاز إلى القراءات التي تركّز على ما يُسمّى المرجعيّة الذّاتيّة.

قد تكون الكتابة عند الشاعر فعل إبعاد، والإبعاد هو دائما غير المدرك وغير الحاضر وغير الواعي. وهي بهذا الصنيع لا تهب نفسها، كما هي في تجربة ظواهرية لحضور ما. والقارئ لا يرى عادة ما يقرأ، وإنما منشوده أن يسمع معنى الشيء الذي أراد الشاعر «المتكلّم الغائب» قوله.

إنّ المشكل هو معرفة المدى الذي تؤدي فيه الكتابة الفنّية وظيفة النافع حقا، إذ قد تلتمس في الكتابة تأثيرات خاصّة قد تصمد وتستمكن، وقد تندثر وتزول. ذلك أنّ تفسير الكتابة الفنّية، من منظور «نفعي» خالص، ليس بالنافع المجدي. فربما كان من مقاصد صاحبها أن يسمو بالكتابة إلى كمال مقسوم، أو أن يحرز منها قوّة يغالب بها قوى طبيعيّة أو غيبيّة عاتية أو يروّضها بالقلم الموفق والحروف المسطورة.

إذن قد تخدعنا الكتابة، وقد تموّه علينا، خاصة في نصّ «لامألوف» مثل «لاعب النرد» يتجاذبه قراؤه؛ وقد يسترسلون مع نزعات النفس ونوازع التحيّز؛ فتتلوّن قراءاتهم بأمزجتهم وشتّى المؤثّرات التي ألمّت بهم. وربما أسبغ كل على النصّ من نفسه وفاض. وربما قطعوا، بهذا الصنيع علاقة بيننا وبين النصّ في منابته.

إن تخيّر الكتابة عند الشاعر، لا يرجع إلى وظيفة «النافع» أو «الالتزام» ولا إلى قيمة باطنة تستمدّها الكتابة من طبيعتها الخاصّة. وإذا كان في القول بالنفعيّة عند الشاعر «الملتزم» مثلا مقدار من الصحّة، فإنّ هذه النفعيّة، وإن أعانتنا على تفسير الميل إلى الكتابة والأخذ بها في أطوار دون أخرى، لا تكفي وحدها لتفسير الكتابة الفنّية التي يستشعر القارئ صعوبة، أو يجد عنتا في إيلافها أو إدراكها.

فليس بالمستغرب إذن، أن ينهض الإدراك عنده، على ربط هذا النوع من الكتابة بتجربة شعريّة سابقة، كما هو الشأن عادة في أي إدراك أدبي؛ على نحو ما نجد عند قرّاء محمود درويش مثلا. وسواء كان التماثل قائما بين التجربتين أو لم يكن، فإنّ إدراك القارئ ما كان ليستتبّ، لولا الفروق التي استشعرها بين النص «اللامألوف» الذي هو فيه، والنماذج السابقة عليه، أو تلك التي لم تفارق مفهوم الشعر المعروف عنده. فمن الصعوبة إذن أن نبحث في الإدراك دونما بحث في العدول عمّا هو معروف، أو في ما هو فرق، وحيّد (بتسكين الياء) بين «لامألوف» ومألوف، بما يسوق إلى القول إنّ الإدراك من حيث هو ارتباط بنمط من أنماط المعرفة، لا يمكن إلاّ أن يجمع إدراك المختلف إلى إدراك المؤتلف. والسؤال هو كيف يتأدّى هذا الإدراك، أو الإجراء المعرفي في القراءة؟ وما الذي يترتّب عليه عندما يتطلّب القارئ هذا «الغريب» فيخفق، ويحجز النص القراءة بدل أن تدركه القراءة؟ كيف يرى القارئ هذا» الغريب اللامألوف»؟ وكيف يمكن «تَعرّفُه» والتحقّق منه؟ والحق أنّي لست متأكدا ما إذا كان مصطلح Reconnaissance الفرنسي يناسب المصطلح الإنكليزي Recognition. ولعل الأقرب إلى الصواب هو الاختيار بين Reconnaissance التي يمكن أن تُحمل على معان مثل التعرف والاستكشاف والتحقق والاستطلاع وIdentification التي يمكن أن تحمل على المماثلة، أو المطابقة أو التماهي أو ما يسمّيه الفلاسفة تحقّق الذاتية.

نقول هذا لأنّ الأمر أشبه ما يكون بالـ«Punctum» أي نقطة الكثب أو القرب، فكلما دفع بها القارئ إلى حكم قيمي، اضطربت الرؤية واختلطت وكفّت عن أن تكون واضحة مميّزة. ولا فرق في هذا بين القرّاء، سواء استوصلوا النص بمألوف الشعر تمحّلا

واعتسافا، أو نشدوا شوارده وطلبوا ضواله على «طرائق الشعر» المألوفة، أو المعهودة، فقيّدوا حدوثه بحدوث سابق عليه. بل لعلّ قراءة «المعترضين» **أن تكون أنمَّ** على تجربة خاصّة يخوضها قارئ مشدوه مستغرب سواء استساغ بعض هذا الشعر أو تجافى عنه. إنّ الإدراك يجري إذن على أساس من مقايسة بين حدوث غير معروف أو غير سائغ عند طائفة وحدوث معروف عند طائفة أخرى، أو أنّ «القياس يطلقه». ونرجّح أنّ مقايسة كهذه دليل على أنّ القراءة تصطنع ترسيمة خفيّة لما تعدّه أظهر خصائص هذا الشعر، ولا نملك ها هنا إلا أن نتساءل ما إذا كانت هذه القراءة تبرز حقّا الخصائص الأعمق في الشعر أم هي تقتطف الكلام وتحتفظ منه بـ«مجمل القول» المميّز الموجود في النص، أو المستخلص منه؛ ثم تستظهر به من حيث هو مملوك الشاعر وخصائص طريقته؟

الجواب الذي نثبته، بشيء من الاحتراز، أنّ ترسيمة كهذه تستأنس بالسمات المهيمنة في الشعر، تبني القراءة على إيلاف النصّ والأنس به؛ ولكن دون أن تحيط به في كلّيته. واختزاله في ظواهر بعينها لا يمكن إلا أن يجعل إدراك النص إدراكا متقطّعا وقراءته قراءة مقتضبة، ولا نخالنا نجانب الصواب إذا نعتناها بالقراءة البلاغية التجزيئيّة.

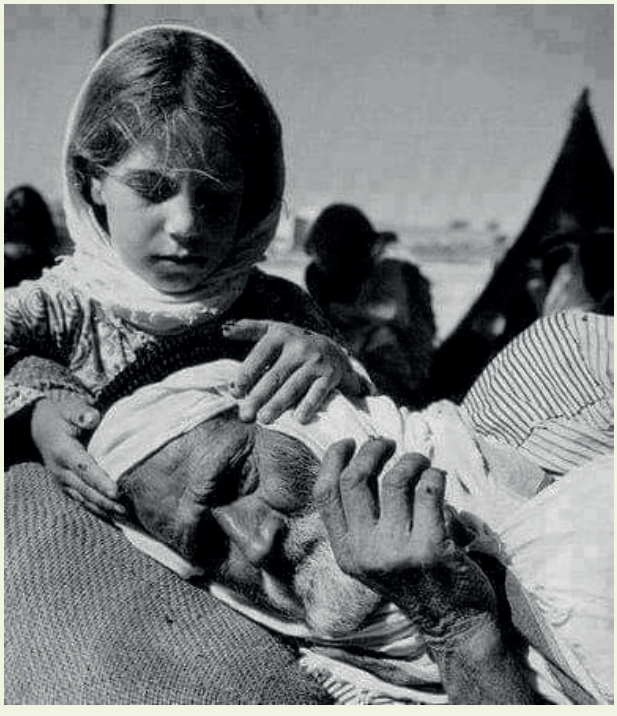

يمكن بناء على ما تقدّم أن نتميّز نمطين من القراءة: قراءة التعرّف وقراءة الإيلاف (من آلفتُ الشيء، أولفه إيلافاً كما في سورة قريش؛ على اختلاف قرّائها هي أيضاً، إذ كان منهم من قرأ «إلافهم» بغير ياء مقصورة الألف، و«إلْفهُم»).

وهي قراءة تقوم على تعرّف النصّ والتحقّق منه من خلال المماثلة بينه وبين نصّ آخر حينا كلّما وشج القارئ قرابته بهما، ومن خلال المباينة حيناً. وفي الحالين كليهما يفقد النص صورته ليتّخذ صورة القارئ.. ولا فرق في هذا بين قارئ وآخر، فالمعنى الباطن الذي ينشده هذا أو ذاك، في النصّ «الغريب» هو المعنى الخفيّ المستتر، أي هو دلالة منجزة ما على القارئ إلا اكتشافها بواسطة نصوص وروايات يدفع بعضها بعضا. والقراءة، بهذا المعنى، قراءة حافّة بالنص، لا يصدر صاحبها في تأويل الغريب عن منطق النصّ، وإنما عن نصوص مماثلة لها أو مباينة.

إن القراءة إذ تعبر من نصّ إلى نصّ يمكن أن تكون هي أيضاً فعل تبديد أو مراوحة بين معنى ينشده الشاعر ومعنى يؤدّيه القارئ؛ فلا يكون لصورة الأول البنية نفسها التي لصورة الثاني. وكثيراً ما تترجّح القراءة، بسبب من ذلك، وتظلّ «مقبوليّة» المعنى معلّقة مقدّرة؛ بل إنّ الصورة تمّحي في المعنى الذي تضيفه القراءة إليها أو تضفيه عليها. ذلك أنّ الشرح أو التفسير يقتصر في مواضع كثيرة على وضع «المعنى» في علاقة مباشرة مع صيغة تعبيره، أو مع البنى القوليّة المخيّلة التي تدلّ عليه، وكأنّ الصورة قول مركّب لا يسلم فيه بالمعلول، إلا إذا لزم عنه لذاته علة.

خطاب المنفى:

ما بين قصيدة درويش وفكر إدوارد سعيد، شيء كالسرّ حيث كلّ منهما «يخترع فلسطينهُ» من هامش ما أو حاشية ما، أو مسافة ما. نقول هذا بحذر كبير، ومعرفتي بتجربة درويش أعمق بكثير من معرفتي بسعيد

الذي أعوّل في فهمه على دارسيه من العرب والأجانب؛ بحكم أنّي أتدبّر فكره مترجما إلى الفرنسيّة والعربيّة. ولكنّي أكاد أطمئنّ إلى الرأي القائل بأنّ ما يجمع بين هذين «المؤتلفين المختلفين» إنّما هو «الاغتراب» الذي تولّدت منه الكتابة عندهما، وتحرّرهما من سلطة الأعراف وشتّى مؤسّسات المعرفة التي تتمثّل الثقافة الفلسطينيّة عامّة؛ على ضرورة تنسيب الحكم، فقد كان هذا «التحرّر» أقلّ عنتا عند سعيد الذي يعيش في الغرب «الحرّ» منه عند درويش. ولكنّ كلاّ منهما كان يعيش تجربة المنفى، ويعرف كيف يجعل من «فقدان» فلسطين، مدخلا، لا إلى الهويّة الفلسطينيّة فحسب، وإنّما إلى إعادة ابتكارها أيضاً. والمنفى عند سعيد الذي هجّر من القدس، مع عائلته عام 1947؛ شأنه شأن درويش، حال مجازيّة أو حافز إبداع، على قدر ما هي تاريخيّة مردّها إلى طرد وحشي، وتمزيق أرض وتهجير قسري؛ ولكنّه أيضاً «روح شتويّة» في أيّام المنفى الباردة؛ أو كما يقول درويش وكأنّه يذكّرنا بالعبارة الفرنسيّة «له ستّون شتاء» أي هو في الستّين من عمره: الآن في المنفى... نعم في البيت، في السّتين من عمر سريع يوقدون الشّمع لكَ فافرحْ، بأقصى ما استطعت من الهدوء، لأنّ موتاً طائشاً ضلّ الطريق إليك من فرط الزحام... وأجّلكَ[3]

والمنفى جرح لا يندمل، وحزن مبرّح؛ أو «حياة مشوّهة» بعبارة «أدورنو» الذي يستأنس به سعيد. لكنّه يغدو أداة مقاومة وتحرّر. بل هو عالم خصوبة، وليس جدبا روحيّا، ولذّة للمبدع الذي يتحرّر من ضيق المكان، ومن لزوم ما لا يلزمه من إكراهات التصرّف بشكل مخصوص، استجابة لشروط مقرّرة يمليها الفكر والهويّة. بل يتحرّر من كلّ ما هو جاهز أو مصنوع مسبّقا على مقاس أمّة أو مجتمع أو مكان أو ذاكرة أو سرديّة معيّنة. والمنفى من هذا المنظور، عند هذين الفلسطينيّين، إبداع يحقّق تلك المعادلة الصعبة بين الفرد الذي «ينقطع» عن المجموعة، ويبقى فيها، فيمشي في الناس وحيدا، وبين مضايق العبارة وسمت الأحداث. والمنفى ليس «استئصالا جراحيّا» كما تقول الفرنسيّة «لاتيسيا زاشيني»[4]. والاستئصال كما نفهمه هو البتر أو القطع قبل الإتمام. وإنّما هو جدل بين الداخل والخارج، والاعتزال والالتزام، والذاكرة والنسيان، والارتيابيّة والنزعة الإنسانيّة، والمألوف والغرابة، وترك الأرض، وأرض التبنّي، وأرض الأحلام، وعطفات التاريخ وثناياه، وضياع المكان فالعودة إليه، أو المصالحة معه إلى أجل غير مسمّى. وقد عاد درويش إلى رام الله، ولكنّه لم يعد إلى فلسطين. وهو ما ندركه من شعره ومن حواراته. لكن ما يحسن بنا في هذا السياق هو أن نتنبّه إلى أنّ المقصود ليس «المنفى الاختياري» فهذا من الغربة أو الاغتراب والاعتزال؛ أو لنقل إنّ كلّ منفى غربة، وليست كلّ غربة منفى.

على أنّ هذا أو ذاك يقوّي الذاكرة، فلا ينقطع من المكان الأوّل أو «أوّل منزل» أثره في المنفيّ، حتى وهو يتعهّد ذاتيّة مخصوصة «متشكّكة» كلّما تعلّق الأمر بخطاب متحكّم استبداديّ، أو اتّخذ هيئة من تساؤلات النقد الذاتي، حيث يتفحّص المنفيّ منجزه السابق. وفي ما يخصّ درويش، نقدّر أنّ هذا ممّا ساعده على إغناء تجربته الشعريّة، ونقلها نقلة نوعيّة. وللمنفى عتبات كثيرة، لا يقف عليها إلاّ الذين اختبروا مضايقه من فلسطينيّين وسوريّين وعراقيّين وغيرهم. والقرن العشرون كما يلاحظ سعيد، هو بكلّ جدارة قرن الهجرات الكبرى التي لم تنقطع، بل نراها تزداد ضراوة يوما بعد يوم؛ حيث أنّ «خارج الإقليميّة» هو الظاهرة الأكثر انتشاراً،

3 – محمود درويش، كزهر اللوز أو أبعد، رياض الريس للكتب والنشر 2005

4 - Laetitia Zecchini,Je suis le multiple Exil historique et métaphorique dans l'œuvre d'Edward Saîd,Tumultes 2010,pp 49 - 66

وليس استقرار الناس في أوطانهم. وقد تكون أوّل هذه العتبات عتبة الشعور، حيث تبدأ الخبرة بالظهور، فالوعي بالانتماء أو الانتساب إلى وطن أو مجموعة؛ لكن دون أن ينتمي المنفيّ إلى أيّ منها، حتى عندما تكون حاله في ما نسمّيه «الوطن الثاني» أشبه بـ«تعريق النبتة» كلّما امتدّت عروقها بعيدا في الأرض؛ فهي إنّما الأصل الذي يذهب سفْلا، ومنه تتشعّب العروق. ولعلّ هذا ما يفسّر نبرة «الاعترافات» التي تستوقفنا في كتابات سعيد، وفي مجاميع محمود ما بعد بيروت، أو بدءا من «الجداريّة» على ما نرجّح، إلى نصّه الأقوى «لاعب النرد» وهو الذي نتّخذه مثالا للخطاب الشعري الكنائي، في ما يأتي. وهي تخصّ عندهما مساءلة «الجذور» سواء في البلد الأمّ أو بلد المنفى، لكن من دون أن تتّخذ ذلك الشكل «التأسّلي» الذي يعيد صاحبه إلى طبائع الأسلاف، أو يجعله يتشبّه بهم في أخلاقهم وشمائلهم. فالمنفى عند درويش «مباعدة»، وأفضّل شخصيّا هذا المصطلح المستعار من المسرح الذي يعني موقف البعد المتحفّظ، يتّخذه الممثّل من شخصه، والمشاهد من العمل المسرحي؛ وهو أنمُّ وأدلّ على ما نحن بصدده، من مصطلح «إبعاد». والمباعدة «هجرة داخليّة» وموقف معطّل أو هو «معلّق».

ودرويش وإن كان يستنبت نصّه في تربة الميثولوجيا الفلسطينيّة، فإنّ قصيدته تفيض عن هذه الميثولوجيا وعن الشعر، فنرى فيضها يغطّي «سرير الغريبة»، بل يصل إلى أبعد من زهر اللّوز وحواره مع سعيد، حيث يتمازج الصوتان؛ إلى «فلسطين الأخرى» أو الطريق التي لا تفضي إلى أيّ مكان. والشّاعر الحقّ هو الذي يجيد التّعامل مع ثنايا اللغة، أي طيّات صرّة العلامات والرموز التي يحملها الإنسان، وهو الذي يجيد طرحها وثنيها، يطرح الذي جعّده الكمش وشوّه مرآه، ويطوي أو يثني ما شطّ به البسطُ حتّى كادت تتمزّق حواشيه. وهو «محنة اللفظ» كما يسمّيها القدماء، على نحو ما نجد في حوار الشاعر مع المفكّر؛ وهما اللذان لم يكفّا طوال حياتهما عن مقاومة التزمّت بشتى أشكاله، من أجل الاحتفاء بتعقّد الهويّة وتعدّدها، وكرم ضيافتها. ولا غرابة في ذلك، فالمنفى عالميّ متعدّد، وفلسطين «سيّدة البدايات» هي أرض عالميّة بامتياز. بل إنّ سعيد يكاد يحذو حذو «أدورنو» «فقد ولّى زمن البيت»، وحذو «نيتشه» في **المعرفة المرحة**: «إنّه لمن دواعي غبطتي أن لا أكون مالكا [لمنزل]»[5]. وما يميّزهما هي هذه الحركة المستمرّة ذهابا وإيابا، التي هي أشبه بمفصل في نابض؛ تسمح بفتح باب في الاتجاهين، بين التجربة والخلق، بين الشعر والحياة؛ بين المكان الفلسطيني والفضاء العالمي. وقد نعزو تمسّك بعضنا، مثل الكاتبة الشاعرة الفلسطينيّة ليانة بدر، بـ«فلسطينيّة» شعر محمود، إلى حنين ما يشدّنا إلى بداياته «الملتزمة»؛ إلى «سجّل أنا عربي» و«أحمد الزعتر» أو «مديح الظلّ العالي» و«أحبّك أو لا أحبّك» و«المزمور الحادي والخمسين بعد المائة»... أو رغبة في الرّجوع بالكلام إلى مرحلة التّسميات الأولى. والحقّ أنّ الكاتبة عرفت كيف تتحاشى هذا المنزلق، أي إقحام وعي جديد في وعي قديم. ومردّ الأمر في شعر محمود، منذ «سرير الغريبة»، إلى رؤية للكون قد لا أتردّد في نعتها بـ «الأسطوريّة»

5 - F.Nietzsche, **Le gai savoir** ; Construire une maison et cela contribue même à mon bonheur, de ne pas être propriétaire.

أو «السحريّة». أعني تلك التي يصنّفها المعاصرون عادة إلى رؤية قائمة على قانون المشابهة أو المطابقة والرّمزيّة، ورؤيّة قائمة على المجاورة أو الاستبدال الكنائيّ.

وفي هذين الحيّزين، تنهض القصيدة عند محمود وغيره، ببناء نظام لغويّ خاصّ و«تاريخيّ»، ومن مقتضيات البحث أن نقرأها في هذا السّياق، فنأخذ بالحسبان كلّ الوحدات اللّغويّة التي تكوّنها من الصّوت إلى المقطع والمعجم والتّركيب النّحوي والصّورة، لأنّ تحليلها هو تحليل الخطاب قبل كلّ شيء. وهذا جانب لابدّ من مراعاته في قراءة شعر محمود الذي تتحوّل فيه فلسطين إلى ذريعة شعريّة لا أكثر ولا أقلّ (وهي عبارة سمعتها منه عام 1991 في تونس وأنا أعلّق على قصيدته «الهدهد»)، أو هي أشبه بضوء غامض يشعّ في مكان ما من القصيدة. فليست القصيدة شيئا دُونًا نخاطر به ونملي عليه ما ليس منه، عسى أن نظفر فيه بمطلوبنا من الشّعر (استعادة الوعي بالهويّة الفلسطينيّة). فهذا لا يعني أكثر من أنّنا نطلب من شعر محمود أن يرشح بما ليس فيه، ويبوح بما هو سياسيّ لاحق.

المشكل في هذا النّوع من القراءة أنّ أسطورة الأصل والبدايات وهي لبّ معضلة الهويّة، تؤخذ لدى البعض على أنّها مسلّمة أو حقيقة من حقائق اللّغة. فقد يغفل الشّاعر، وهو ينشئ قصيدته، على أنّ الكلمات علامات ورموز اصطلاحيّة توافقيّة، وقد يفسح المجال لتعبيريّة صوتيّة خاصّة به. لكن لا في هذا ولا في ذاك تكمن قيمة القصيدة. فالقصيدة لغة حيّة، والكلمات وهي تتجاذب وتتدافع، يمكن أن تغيّر ما يطوف بذهن صاحبها من أخيلة وصور أو هي تقصّر في أدائها، ويأتيه منها ما لا يريده، ويريد منها ما لا يأتيه. وأقدّر أنّ الممكن والمحتمل في شعر محمود، ممّا يؤكّد أنّ اللّغة بما اندسّ في ذاكرتها من تاريخ طويل، وما صار لها من كيان تستقلّ به عن مستعملها، يمكن أن تقول بالشاعر إذ يريد أن يقول بها. لا أعرف كيف كان محمود يكتب قصيدته، ولكنّي أحدس من شعره، ومن حواراته أنّ لغته ترتبط بالعمليات الذّهنيّة على قدر ارتباطها بالأشياء. وأظنّ أنّ هذه مزيّته. وعلى حبّي لتجربة سعدي يوسف وهي تجربة لها أثر في شعر محمود في مرحلة ما، فأنا أقول كلّما سُئِلْتُ عن الفروق بين الشاعرين: شعريّة سعدي هي شعريّة الأشياء، والقدرة الفائقة على ملامستها باللغة، في حين يضيف محمود إلى الأشياء هذا البعد الذهني أو الميتافيزيقي؛ وكأنّه يكتب تحت وطأة حسّ بفقدانها.

ولذلك نقف في «سرير الغريبة» و«كزهر اللوز أو أبعد» و«أثر الفراشة» و«لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي»... على الشّاعر فِي محمود منذ «سرير الغريبة» وربّما «الهدهد»، وليس الفلسطيني في محمود؛ هو المستبصر المتأمّل في هويّة نصّه أكثر من هويّته الفلسطينيّة. يقول محمود درويش: «أقدّم أحياناً كشاعر قضيّة، وأنا أقوم بقراءة شعر مخالف لهذه الصورة». (جريدة الأخبار، 28 نيسان 2007). وهذه أمارة على التّجربة الكتابيّة عنده. بل لأَقُلْ دون لبس أمارة على تحرّره من سطوة فلسطين. ولولا خشية الاستطراد، لبيّنّا كيف تحوّل محمود في مجاميعه الأخيرة إلى أحد أبرز الذين لا يقدّمون «الإبستيمولوجيا» على «الأنطولوجيا»، ولا هذه على تلك في الشّعريّة العربيّة، وإنّما يجمع بينهما. وهذا ممّا يفسّر في نظري، سرّ إعجابه بالمتنبّي وتفضيله على أبي تمّام. وشعر أبي تمّام ينطوي على «نظريّة» في المعرفة والخيال عاش الشّعر العربي في كنفها قرونا طوالا. ومن هذا الجانب افتقد فيه أنصار القديم، ذلك الإحساس بالأشياء الذي ميّز الشّعر الجاهليّ القائم على «تأنيس الكون بتسميته وتسمية مكوّناته». وهو ما عرف المتنبّي كيف يتحاشاه، لأسباب يطول الخوض فيها.

بيد أنّ من دواعي الإنصاف أن نشير إلى أنّ شعريّة محمود هي من «غرابة» لغته المألوفة، أي في هذا «الضديد» [الأوكسيمور]. واللّغة المألوفة – وهو ما لا نتنبّه إليه عادة – كثيراً ما تجعل الأشياء الطّبيعيّة بل الطّبيعة الإنسانيّة نفسها، غاية في الغموض. والألفة تذهب بالأشياء أو هي لا تجلوها في كونها الخاصّ. وما نتلقّاه من العالم وأشيائه ينقلب، بحكم العادة والألفة، إلى نماذج تُحتذى ورواسم لا نصغي لها. والغرابة عند محمود تكمن في جعل المألوف كما لو أنّه غير مألوف، الأمر الذي يغري بالقول إنّ اللّغة عنده تنزع عن الأشياء شريط الألفة والعادة، أو هي تضفي عليها ما يشبه سحر الجدّة والطّرافة. ومحمود شاعر ملحمي وبخاصّة في قصائده الطوال، وغنائيّ ولكن بمقدار. وثمّة جذر رومانسيّ ظلّ ينبض في شعره. ونعرف أنّ الرّومانسيّين هم الذين أعلوا من شأن الخيال لاعتقادهم أنّ الخيال هو شكل الفنّ الذي يجعل الأشياء المألوفة كما لو أنّها غير مألوفة. والحقّ أنّ هذه الرّؤية الرّومانسيّة لا تزال تخلب ألباب كثير أو قليل من الشّعراء في العصر الحديث، وهم يحاولون حلما عصيّ المنال: أي كتابة قصيدة الكون «التّواجديّة»، القصيدة التي لا تصوّر الشّيء أو تشهد له فحسب، وإنّما تتوق إلى أن تكون الشّيء نفسه الذي تستدعيه أو تستلهمه. أدرك أنّ كلّ هذا يحتاج إلى الاستئناس بشواهد دقيقة من شعر محمود، عسى أن نتبيّن نسبة اطّراد الأسماء في خواتِيم الجمل عنده، أي تلك الدالة على الاسميّة، ونسبة الأفعال الدالّة على الحدثيّة، وما إذا كان مردّ هذه «الغنائيّة» إليها أم إلى الإنشاد وما يقتضيه من ضرورة النّبر في آخر البيت على «ذروة المعنى»؛ ومن شأن الاسم أن يعزّز هذا النّبر كلّما وقع على كلمة بأكملها. ومحمود شاعر مخلص للتقفية – وإنْ بأسلوبه الخاصّ – وليس مثل سعدي الذي تحرّر من سطوة القافية. إنّ نصّ محمود شأنه شأن النصوص الكبرى مادّة للتّأويل، ومن مقتضيات الموضوعيّة أن نحاول فهمه، من داخله وحسب منطقه الذّاتي. فقد يتسنّى لنا على هذا الأساس أن نصيب من النّص بعض معناه الكلّي أو معناه «الحدث» الذي يتولّد من خلال ما نحمله إلى النّصّ وما يحمله النّصّ إلينا. وأظنّ أنّ هذا ما سعت إليه ليانة بدر، وهي تقودنا بتؤدة إلى جغرافيا القصيدة عند محمود، وهي هويّته الشعريّة. ولا يعني ذلك طبعا أنّنا نقلّل من شأن المقاربات التي تركّز على هذا الموضوع أو ذاك؛ فلا نحسب أنّ الهمّ الإيديولوجي قد ولّى إلى غير رجعة في ما يتعلّق بمجمل المنجزات الفنّيّة والأدبيّة بما في ذلك تجربة محمود درويش. لكنّنا نحسب مع ذلك أنّ هناك فيضا في ربط نصوص درويش بمرجعيّات تقوم خارجها، وهو ما يجعل هذه المقاربات لا تفعل أكثر من مقايسة هذه النّصوص بوقائع ليست نصّية أو بواقع، والواقع فنيّا ليس أكثر من بنية جوفاء. والحقّ أنّ ليانة بدر عرفت كيف تتحاشى هذا المنزلق؛ أي إقحام وعي جديد في وعي قديم[6]

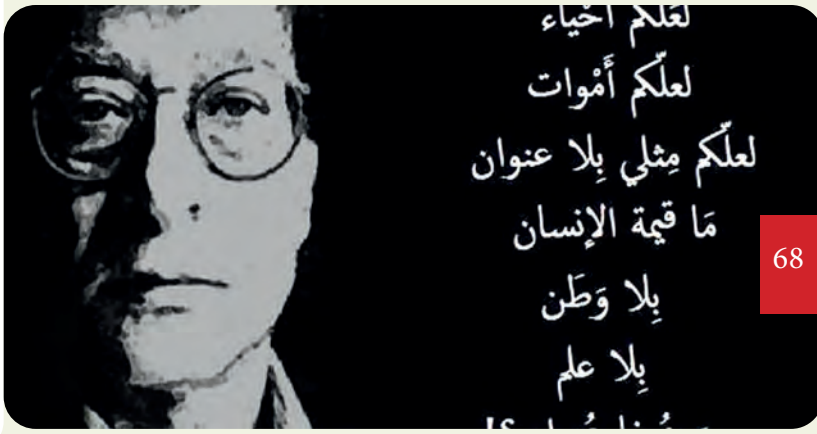

6 – ليانة بدر «تغريدة الشاعر: أثر المكان على [هكذا «على» بدل «في»] الهويّة في أعمال محمود درويش» دار الناشر، رام الله 2013. لا نجد في رصد هذه الحالة أو «فلسطين الأخرى» أفضل من قصيدة «عنواني» للهنديّة أمريتا برايتام (نقلا عن الفرنسيّة): «اليوم أزلتُ رقم منزلي، واقتلعتُ الصفيحة المعدنيّة التي كانت تحمل اسم شارعي، وكلّ صفائح الشوارع الأخرى/ لكن إذا كنت تصرّ

لاعب النرد: لاعب الشعر

محمود درويش الذي تعرّفنا إليه وعليه، لاعب نرد حقيقي، ولكنّ هذه اللعبة، على ما يبدو من سيرته الشعريّة، لم تشحذ مخيّلته، ولا هي كانت من دواعي الشعر لديه.

ولعلّ الأقرب إلى الحقّ أنّ ترجمة محمّد بنّيس لقصيدة «مالارميه» الشهيرة «رمية النرد»[7]، والمقدّمة الممتعة التي كتبها لها هي التي نبّهته إلى ما أحبّ أن أسمّيه «نرديّة النرد» قياسًا على قولنا «شعريّة الشعر» أي ما يجعله شعرا؛ أو كأن نجعل الحجر «حجريّا» أو نكتته في الأخضر خضرته، حيث الكلمات تضيء وتستضيء، ويقدح بعضها بعضا بعبارة «مالارميه». والأشياء إنّما هي شعريّة بسبب من بنيتها لا محتواها أو موضوعها. فقد أدار محمود نصّه على صور افتراضيّة محورها كلمة «المصادفة» و«الحظّ»، وهما الكلمتان اللتان أتاحتا لبنّيس أن يصل قصيدة «مالارميه» بأصل عربيّ أندلسي، ويكشف عن أنّ الكلمة الفرنسية hasard مشتقّة من كلمة الزهر العربيّة. وإنّها لكذلك، فقد انتقلت هذه الكلمة إلى الاسبانيّة، ومن هذه إلى الفرنسيّة؛ في نوع من سياحة الكلمات. وهي تحمل في لهجات المغاربيّين، اسم «الحظ». وتُطلق كلمة «الزهر» عندنا على النصيب من الخير والفضل، بالرغم من أنّ كلمة «حظّ» في العربيّة قد تُطلق على النصيب من الشرّ أيضاً. ولكنّي لا أدري ما إذا كانت ترجمة بنّيس هذه: «رمية نرد لا تبطل الزهر» سائغة على طرافتها، إذ نحن نخشى بهذا الصنيع أن نملي على النصّين الفرنسي والعربي ما ليس منهما أو ما قد يجافي خاصّتهما، أو نجعل العاميّ»الزهر» بالمعنى التونسي أو المغربي، يزحزحُ الفصيح، وينوب منابه دون وجه حقّ. والمقصود بزهر النرد هو قطعة العاج أو العظم المكعّبة المستعملة في هذه اللعبة «لعب الطاولة» كما تسمّيها العامّية. فضلاً عن أنّ الكلمة الفرنسيّة لا تعني»الحظّ» إلاّ في استعمالات مخصوصة مثل التركيب بالنعت: حظّ سعيد heureux hasard. وفي ما عدا ذلك، فمعانيها لا تخرج حسب سياقها واشتقاقاتها، عن المصادفة والاتفاق والمخاطرة والمجازفة والمقامرة والمفاجأة والسير بلا قصد والرمية من غير رام، واستعمال عبارة غير موثوقة. ونقدّر أنّ شعريّة مالارميه أمسُّ بهذه المعاني إذ هي منشدّة إلى «الديونيزوسيّة»، وليس إلى «الأبولونيّة». وعليه فالترجمة التي نقترحها لعنوان قصيدة «مالارميه»: «أبدا لن تبطلَ [تعطّل] الصدفةَ رميةُ نرد»؛ خاصّة أنّ العبارة الفرنسيّة coup de hasard تعني «صدفة» و «مالارميه» نفسه يرى أنّ الكلمات في الشعر يشعل بعضها بعضا، أو يستضيء بعضها ببعض، وكأنّها تتلاقى مصادفة أو بواسطة نوع من اللعب.

لا حرج من إدراج مفهوم اللّعب[8] بالمعنى «الاستطيقي» للكلمة، أي طريقة وجود الأثر نفسه، ضمن ما يمكن أن نسمّيه «أنطولوجيا الشعر» ودلالته الهيرمينوطيقيّة. نقول»الاستطيقي» ولا نقول «الجدّي» لأنّ اللعب جدّ هو أيضاً. وهو ما لا نظفر به في معاجم العربيّة التي تضع كلمة «لعب» ضدّ جدّ، أو بمعنى مزح أو فعل فعلا لا يجدي عليه نفعا، أو بقصد اللذة والمتعة أو تزجية الفراغ.

وللتوضيح فإنّنا نحاول، على أساس من الموقع الذي نتّخذه من هذه القصيدة

على أن تجدني/ إذن في كلّ مكان حيث تُشرق نفس أبيّة/ اعلمْ أنّ ذاك هو منزلي.»

D'un ciel à l'autre ;Une anyhologie de poésie indienne contemporaine, Gallimard 2007.

7 – أبدا لن تبطلَ [تعطّل] الصدفةَ رميةُ نرد بترجمتنا Mallarmé; Un coup de dés jamais n'abolira le hazard وترجمة محمّد بنّيس: رمية نرد لا تبطل الزهر، دار توبقال 2007. انظر رأينا أعلاه في المتن، في ما يخصّ كلمة «زهر» التي تعني الحظ في العاميّة المغاربيّة عامّة.

8 - Huizinga,Homo ludens,essai sur la fonction sociale du jeu,trd.Cécile Seresia,Galliçmard 1988

الاستثنائيّة في تجربة محمود، أن نفتح «ثغرة» في جدران هذا العالم، عالم اللّعبة الفنّيّة المنغلق على نفسه أستيطيقيّا. ولعلّه من الواضح أنّ عملنا وهو مختزل جدّا- بحكم السقف المحدّد لهذا المقال- ليس بالعمل التأويلي، لأنّ بنية الشعر على ما نرجّح بنية هيرمينوطيقيّة، أو هي مؤوّلة سلفا، أو أنّ النصّ ينشأ مؤوّلا. ربّما كان محمود إذن يتأوّل «نرد «مالارميه»، أو هو يلاعبه. نسوق هذا دون أن يكون من مقاصدنا تجريد مفهوم اللّعب من الدّلالة الذّاتيّة، إذ لا نخال المكانة التي تحوزها الذّات (ذات محمود من حيث هي ذات متلفّظة) في هذه اللّيدولوجيا، بخافية. ولعلّ تعديل (الأنا - أفكّر) الدّيكارتيّة (بأنا - ألعب) يمكن أن تبدّد بعض حذرنا بذات تشطّ أو تتسلّط أو تهيمن بصلف على العمليّة الفنّيّة؛ على اعتبار أنّ (الأنا - ألعب) هي علاقة مفتوحة أكثر منها كيانا أنطولوجيّا «ترنسندنتاليّا».

خاتمة:

نقدّر أنّ أظهر ما نخلص إليه من هذا المقال جملة أمور نسوقها في ما يأتي: أوّلها أنّ بنية الشعريّة عند درويش، تزاوج بين التعبيرين الكنائي والاستعاري شكلاً وصورة ودلالة، محكومة بطرفين يتفاوتان هما: «الأبولونيّة» بكلّ سماتها من تناسب وتوازن وتناغم [الكنائي]، و«الديونيزوسيّة» بكلّ سماتها من مصادفة وعشوائيّة وغرابة [الاستعاري]، أو بناء لغويّ خاصّ يقوّض ما نسميّه «المعنى المنطقي» الذي يديره القارئ على قاعدة الفهم. وقد تكون اللغة غريبة، وقد تكون مأنوسة تأخذ بالمعيش واليومي، ولكنها تستولد مع ذلك صورا «سرياليّة» أو هي تذكّر بالسرياليّة؛ وفيها يتخيّل الشاعر الماضي دون أن يستعيده، وكأنّه الكائن الذي يكون حيث لا يكون.

وتنهض هذه الشعريّة بطرفيها الاستعاري والكنائي، بـ«طوبوغرافيّة متخيّلة» تصل بين أزمنة وأمكنة متحوّلة، وتكتنِهُ الفضاء من حيث هو المكوّن الجمالي الأظهر بل الأقوى في «شعريّة الأثر»، وتؤسّس الكتابة من حيث هي تغريب لأوضاع طبيعيّة أو لأشياء مألوفة، بل تجعل الشيء الذي ليس له مضادّ، يكتسب بنية مخصوصة في حقل الظواهر، ويتمدّد خارج عالمه الخاصّ؛ فيتحدّث إلينا، ونصغي له ونتواصل معه.

شعريّة تقوّض الحدود والفواصل بين الأجناس الأدبيّة؛ حتّى لكأنّنا إزاء «بنية تماهٍ بالمطابقة». وهناك اليوم مراجعات متتالية لمقولة «الجنس» أو «النوع الأدبي» و«الشعر»، ولم نعد نطمئنّ كثيراً لما استقرّ من تصنيفات اقتضتها دوافع هي في أحيان كثيرة إيديولوجيّة، وأحياناً تبسيطيّة. وقد لا تكون هناك حدود جليّة أو قطعيّة. وقد تكون هذه الشعريّة «هجينة» في بعض قصائده. وصحيح أنّ التّراشح بين الخطابات والأجناس يوفّر دفقا تجديديّا للكتابة الإبداعيّة نفسها؛ إلاّ أنّ ذلك لا يعني، بالمقابل، انتفاء تخوم الأجناس وإنّما يعني «رسمها» على نحو رخْوٍ مرِنٍ هو في الواقع، أمارة قوّة نصوصه. والكتابة الشعريّة «مختبر» مُشرع على موارد شتّى، وتجسيد لأجناس مختلفة وتشبيك بين

نصوص متباينة الأزمنة والأنساب تتعالق في ما بينها على نحْو ملتبس؛ فهي متماهية من حيث هي، في الوقت نفسه، متجاورة؛ من حيث هي، في الوقت ذاته أيضاً، متحَاورة.

وثاني ما نخلص إليه هذا الحضور الطاغي للذات الذي ينقل الخطاب الشعري إلى أفق «سيرذاتيّ مرجعيّ»، يختلق بواسطته الكاتب لنفسه شخصيّة ووجودا ويظلّ محافظا في الوقت نفسه على هويّته الحقيقيّة، مقيما مع القارئ ميثاقا قرائيّا مزدوجا: أنا المؤلّف الشاعر الكاتب أروي لكم حكاية، أنا بطلها، غير أنّ أحداثها لم تقع لي البتّة.

وهو يتقصّد أن يكون نصّه مشطورًا بين ذاكرة متاهة أو هي فوضى، ورغبة في النظام تخفي رغبة في حصول معنى أو دلالة. فأيّ خيط ينتظم هذه المتاهة المعقودة على الانفعال أو الوجدان على قدر انعقادها على الإدراك، حيث المتلفّظ يتجلّى تدريجيّا بشكل لولبيّ، وينجرف في تيّار الكلام ودوّاماته، ويتخبّط في خيوطه؟

لِنَقُلْ إنّها محكومة بخطاب كنائيّ/ استعاريّ مداره على الجمع بين شكلين متناقضين أو متدافعين بداهة: سرد مبنيّ مثل السيرة الذاتيّة على ذاتيّة الكاتب والسارد (أي الشخصيّة) والإيهام بالواقع، أو بعلاقة ما بين الفنّ والحياة؛ كما هو الشأن في العمل الروائي السيري، حيث المؤلّف يقصّ حياته بأساليب الرواية، وباستعمال أسماء محرّفة أحياناً، أو استخدام ضمير الغيبة أو أسلوب الالتفات من عدول من التكلّم إلى الغيبة أو الخطاب أو العكس. وفيها يلتبس «أنا» السارد بـ«أنا» الشخصيّة بـ«أنا الكاتب»، وهو ينسى ما يريد أن ينسى، ويتذكّر ما يريد أن يتذكّر. فلا ارتجال ولا بداهة ولا إرسال على سجيّة في هذا النصّ القويّ. وهذا نعت أفضل في تقديري من «جميل» وإنّما « كتابة» محكومة بضوابط العقل والحدْس معا، وإعادة تسمية الأشياء، «تعميدها» تعميدا لغويّا ثانيا؛ تقطع دابر الكلمة، أو تخلّص الأشياء من أسْر الاسم، لتشرعه على الخيال والواقع معا حيث وجه ذا قفا ذاك، وقفا ذاك وجهه. وليس بالمستغرب عنده، أن تتراسل الأشياء والموضوعات على نحو غير مألوف، وأن يحفّها الإلغاز والغرابة في كلّ مسالكها، ولكن دون أن يسوق ذلك إلى القول بأنّ تراسلها ثمرة مصادفة أو اعتباطيّة. إنّما هناك تنافر منطقيّ قاعدته إضاءة تماثلات قائمة في نظام النصّ نفسه، مثلما هي قائمة في نظام «الجنس» الذي ينضوي إليه، إذا كان لابدّ من التصنيف. والصورة ترتبط بتمثيليّة اللّغة ومدى قدرتها على تمثّل جملة من الأفكار والمفاهيم أو المعاني والدلالات. وتاريخ الصّورة ومفاهيمها، إنّما يعلّمنا، قبل كلّ شيء أنّ خبرة الشاعر عن العالم هي مثل خبرة أيّ منّا، غير مباشرة، فما بين الشيء والذّات المتعالقين، تنهض اللغة بصفتها موجّها للدّلالة.

وثالث ما نخلص إليه أنّ بنية الخطاب الشعري عند محمود درويش منذ «كزهر اللوز أو أبعد» مشرعة على النّثر لا لتقوله نثرا وإنّما لتقوله شعرا؛ وإن كانت تقوله في الوقت نفسه نثرا لكنّها لا تقوله كذلك؛ وهو في موضعه المألوف؛ وإنّما في غير موضعه كما الأشياء في غير سياقها المألوف. لكن كيف يفلح هؤلاء أرض الشّعر بالنّثر؟ وقصيدتهم (قصيدة تفعيلة)[9] والتّفعيلة من جهة القياس أداتهم المألوفة؛ لكنّها تفعيلة في «منظوريّة» جديدة باصطلاح فلاسفة الفينومينولوجيا إذ يتلفّتون بها ناحية النّثر فيطعّمون قصائدهم بسرديّة خاطفة أو مطوّلة وبمفردات اليوميّ والمعيش، ويخلّصونها من الإسراف في

9 – . من لطائف الشعريّة العربيّة الأقدم، ما نقف عليه من «شعر تفعيلة». ومثاله أرجوزة لعلي بن يحي المنجّم أدارها على تفعيلة واحدة:طيفٌ أمّ/ بذي سلَمْ/ بعد العتمْ/ يطوي الأكمْ... انظر للتوسّع: محمد عوني عبد الرؤوف، بدايات الشعر العربي بين الكمّ والكيف مكتبة الخانجي مصر 1976 ص.69 وما بعدها

التّنغيم دون أن يمنعها ذلك من أن تكون نصّاً شعريّاً إنشاديّاً.

ما يعنينا في هذا السياق، أنّ شعراء قصيدة النثر عندنا لا يتصوّرونها إلاّ خارج الأوزان المعروفة، وأنّ أكثر شعراء الموزون لا يتصوّرون الشعر خارج الوزن. وهذا على ما نرجّح فهم قاصر، قد ينمّ على أنّنا لا نتقبّل أنّ الأشكال الفنّيّة أو الأجناس الأدبيّة يمكن أن تموت هي أيضاً، وأن تنتسخ، وتتحوّل وتُبعث في هيئات جديدة. وفي تراثنا، يمكن من منظور كتابيّ، أن نعدّ القرآن «مؤسّسة كتابيّة» فصلت بين الشعر(القصيدة) والقرآن، وليس بين الشعر والنثر.

هذا وغيره يعزّز من وجاهة القول بأنّه لا وجود لشعر صاف، ينشد صاحبه لغة كليّة جديدة مدارها على علاقة حميمة بين الصوت والمعنى؛ حيث الإيقاع يحرّر الكلمة من سطوة الكلام العادي، ويكشف عن وهن اللغة أو قُصورها. والشعر ليس إلهاما كما يزعم الرومانطيقيّون، وإنّما هو حاصل مِراس ودربة، بل هو صنعة بالمعنى العميق للكلمة. والإلهام «ربّة شعر مهذار»، والشعر ليس لعبة مصادفات لغويّة. إنّما الشاعر مفكّر له لغته الشعريّة الخاصّة، وقد تكون عادية في جانب منها؛ ولكنّها ليست لغة التواصل العادي، إذ هي تنشأ في تلك المسافة الخاوية التي تتركها خفقة جناح الطائر. وصحيح أنّ بعضهم

مثل سليم بركات أو سركون بولص وغيرهما، تخلّى عن الوزن وانصرف إلى «الشعر الحرّ»؛ ولكنّه ظلّ كمن يحلم بكتابة ما هو صامت في اللغة أو ما هو زئبقي، وكأنّ همّه أن يمسك بالشذى لا بالوردة، أو بـ«إيقاع الفكرة» وهو المعنى اليوناني للموسيقى. ونقدّر أنّ محمود في قصيدته «لاعب النرد»[10] كان يلعب لعبة قصيدة النثر، ولكن داخل الوزن. وهذه القصيدة إنّما مدارها على الإيقاع الذي يملأ كلّ المكان الفلسطيني سواء في الحياة اليوميّة أو من حيث هو خبرة أو تجربة، بل في الخطاب العالِم من حيث هو مرجع مثل المقطع العجيب الذي يستحضر فيه محمود حالته المرضيّة الوراثيّة، ثمّ يفرّعها إلى استعارات غير مألوفة:

وانتميتُ إلى عائلةٍ
مصادفَةً،
ووَرِثْتُ ملامحها والصفاتْ
وأمراضها:
أوّلاً – خَلَلاً في شراييِنها
وضغطَ دم مرتفعْ
ثانياً – خجَلاً في مخاطبة الأمِّ والأَبِ
والجدَّة – الشجرةْ
ثالثاً – أَملاً في الشفاء من الانفلونزا
بفنجان بابونجٍ ساخنٍ
رابعاً – كسلاً في الحديث عن الظبي
والقُبَّرة
خامساً – مللاً في ليالي الشتاءْ
سادساً – فشلاً فادحاً في الغناءْ

إنّ ما نسمّيه (قصيدة النّثر) يمكن أن تكتب داخل الوزن، كما نجد عند سعدي يوسف مثلاً أو عند درويش في مجاميعه الأخيرة حيث تتخفّف (الشّعريّة) من شعريّتها أو ما زاد منها على الحاجة أو من فضل القول بعبارة أسلافنا؛ أو من أجل «جماليّة أقلّ» بعبارة محمود نفسه، في حوار مع مجلّة «الشعراء» الفلسطينيّة.

10 – لاعب النرد سبق ذكره

هكذا تقيم لغة في اللّغة أو هكذا يقيم الشعر في النثر، والنثر في الشعر. ولم يكن بالمستغرب أن يتمثّل درويش بعبارة أبي حيّان التوحيدي في «**الإمتاع والمؤانسة**»: «أحسنُ الكلام ما قامت صورتُهُ بين نظْم كأنه نثر، ونثر كأنه نظْم.»

المصادر والمراجع (حسب ورودها في المقال)

محمود درويش: «**لا أريد لهذي القصيدة أن تنتهي**»، بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ط 1، 2009.

محمود درويش، **كزهر اللوز أو أبعد**، رياض الريس للكتب والنشر 2005

- Laetitia Zecchini, *Je suis le multiple Exil historique et métaphorique dans l'œuvre d'Edward Saîd*,Tumultes 2010,pp 49 - 66

- F.Nietzche, *Le gai savoir*

ليانة بدر «**تغريدة الشاعر: أثر المكان على [هكذ «على»ا بدل «في»] الهويّة في أعمال محمود درويش**» دار الناشر، رام الله 2013

- *D'un ciel à l'autre* ; Une anyhologie de poésie indienne contemporaine, Gallimard 2007

- Mallarmé; *Un coup de dés jamais n'abolira le hazard*

- Huizinga, Homo ludens,*essai sur la fonction sociale du jeu*, trd.Cécile Seresia,Galliçmard 1988

محمد عوني عبد الرؤوف، «**بدايات الشعر العربي بين الكمّ والكيف**»، مكتبة الخانجي مصر 1976 ص.69 وما بعدها.

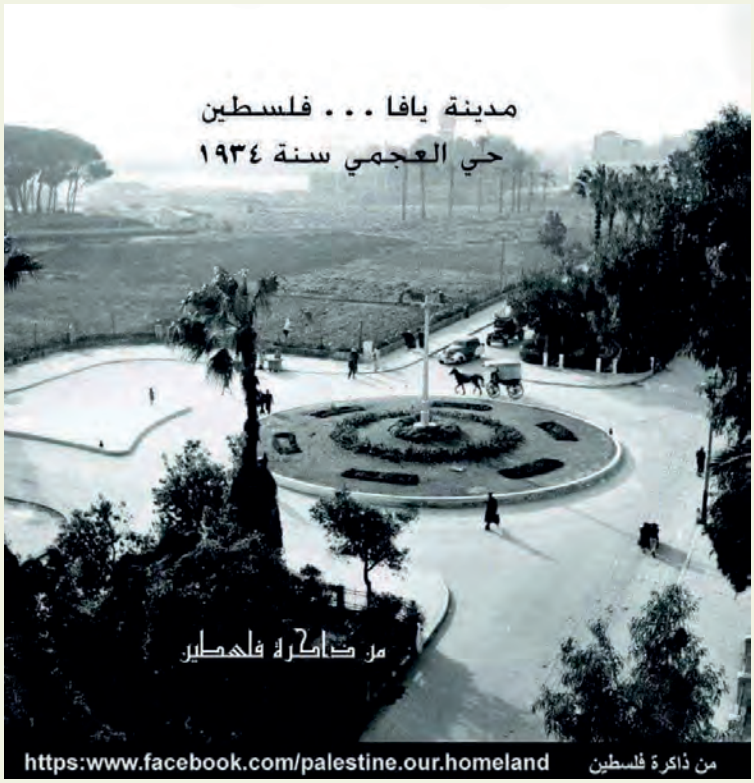

غـزّة، مـوؤودة أخـرى سُئلـت

عياض ابن عاشور(*)

ما فقهتم من بصيرة الحكماء يا من قضَيْتم مقاصدَكم من الأحياء
فأنزلتم عليهم طارقَ عذابٍ وفتّكتم بأرواح الأبرياء؟
من لفَظ أنفاسَه مصلوبا، صارخا مِن عَلى الأوتاد:
«يا إلاهي أنا الحقّ، لِم ودَعْتَني قربانا لأوثان الاستعباد؟
وهجَرتني طليقا في أكوان الاغتراب؟
وتركتني وحيدا في دنيا الفساد؟»

أيا أجساد الجمْرِ في الأنقاض والدُخان،
مَن زلزل حياتكم ومزّق أبدانكم بالصواريخ والنيران
وأسقمكم بالجوع وجرّعكم قهرا قَطَراتِ الشَوْكَران؟

يا آلَ إبراهيم ويعقوب والأسباطْ،
قرّاءُ الصحف الأولى والمزامير والتوراةْ،
هذه فتنة دبّرها وحوشُ المؤمنين بعِجل الإبهارْ،
وقد دكّوا بحوافر الشرّ دكّاً اللوْحَ الكريمَ والأسفارْ
وكذلك الأعمار.

أرأيتِ ما رأيتُ، أرأيتِ ذاك الغُبار؟
أجَيْشٌ قادم من منتهى الأقدار؟
أم قنبلة فجّروها على مشافي الرُضَّع والكبار
وعلى المعابد والمدارس والدّيار؟
فليَأتِيَنّ التجلّي وليأتينّ الندمْ،
ولْنُقرِئ السّلامَ: لا بالكيف ولا الْكَمْ.

(*) مجمعيّ وأستاذ القانون الدّستوري، وعميد كلّيّة العلوم القانونيّة والسياسيّة بتونس سابقا.

شقيقتي، صديقتي، معدنَ قوسي وسهمي،
وسَدادَ نصلي ورَمْيتي، وفولاذ سيْفي ومِدادَ كُتُبي،
لولاكِ لضيّعتُ اسمي وكُنيتي،
ومتاعي وسلامي وكياني وقبلتي.
فاجلسي بجانبي واكشفي عن أسراري،
وانظري في الأفق، واقطِفي ثمر أشجاري،
وخذي عصير الحبّ من أعماق كبِدي،
وازدَري هذا الذي قايض ذَرّ الرَماد بجمال الخُلقِ.

تعِب الكونُ منّا، سُلّانِ البطش والدَمار[2]،
ارفَعي عين شبابك نحو النجم والأقمارْ،
سلاما على الحكيم اليونانيّ وغيلانَ الدمشقي
والحلاج والنسيمي والمختارْ،
والسُهروردييّن الأُخَرْ يُنشِدون آيَ الفضل للأبطال والأبرارْ،
ضحايا جنون الإنس، وبلايا الأشرارْ.
طوبى لكم أسيادنا! يومَ لا يُفيد سَلْوًا ولا تَصلُح الأعذارْ.

غـزّة!
أنـتِ حـقُّ العالَمِيـن: وجـهُ اللاهـوت العزيـز والناسـوت المُشـفِقِ،
فاسمَعي السماءَ العليا في مِدْرَارِ الأفقِ،
من زُرقة قبّتها تذرف دمعَ الخَنقِ،
على موؤودة أخرى سئلت بأي ذنب تُحرقِ،
في انتظار يأتي يومٌ يَزِن فيه ذَرْعُ العدلِ الطارقَ بالطارقِ.

2 – أصاب عائلة ماجد البطش ما أصاب من الدّمار جرّاء القصف الشديد الذي لم ينقطع ولم يتوقّف. وما ذكر هذه العائلة إلاّ تمثيلاً وإيحاءً لا إجلالاً لهذه الأسرة دون سائر أهل غـزّة. انظر الرابط:
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%AC%D8%B2%D8%B1%D8%A9_%D8%B9%D8%A7%D8%A6%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%B7%D8%B4

محمّـد الغـزّي(*)

أتذكّر حين تطلّ الشمس
أسوار الأقصى
وقباب القدس

أتذكّر حين تطلّ الشمس
كيف عبرنا نهر الأردن
وغادرنا هذا الفردوس

أتذكّر حين تطلّ الشمس
كيف بقيت أحنّ إلى منزلنا
وإلى زيتونة باحتنا...
وأربّي أمل العودة في النفس

أتذكّر حين تطلّ الشمس
وغداً كنت قطعت على نفسي
أن أخلع نعلي في باب الأقصى
وأقبّل ثانية أرض القدس.

(*) شـاعر وأسـتاذ الأدب العربـي والنقـد بجامعـة القيـروان سـابقا.

غـــزّة: شهـابٌ واعـدٌ بالنّـور في ظلمـة العالـم

علي اللواتي(*)

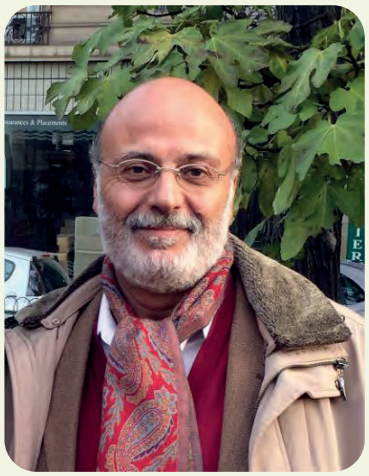

غـزّة المثخنـة بجـراح النّكبـة المرهقـة مـن حصـار طويـل فـي غفلـة مـن العالـم...

غـزّة العرق النّابض في جسد ميّت...

غـزّة الرّمـز والأيقونـة والقـدوة للمضطهديـن علـى الأرض فـي كفاحهـم مـن أجـل الحيـاة والحريّـة...

صمـودٌ؛ مقاومـةٌ؛ تحـدٍّ: كلمـاتٌ أعَـدّتِ إليهـا بريقَهـا بعـد أن أُفْرِغَـتْ مـن كلّ معنـى...

ويـا لَلذِّكْـرِ العَطِـرِ ذِكْـرُكِ بيـن الأمـم، ويـا لَوقـعِ مأسـاتكِ فـي وجـدان الإنسـانية بعـد طـول لاَ مبـالاة وجفـاء وغفلـة!

أحْييـتِ الأمـل فـي النّصـر وسـط الخـراب وأيقظـتِ ضمائـرَ مـن سـباتها عبـر العالـم وصنعـتِ وعيًـا جديـدا يغيـظ المسـتبدّين لأنّـه يكفُـر بالباطـل والظّلـم ويُطْلِـق في البأسـاءِ بشـارةً بالخـلاص.

غـزّة أمثولـةُ الصّبـر علـى الدّمـار، دمـارُ كلّ حـيّ وكلّ شـيء؛ فـأيُّ لبـنٍ أرضعتِ أبنـاءك ليثبتوا بأسـلحة بسـيطة فـي مواجهـة أذكـى الأسـلحة وأشـدّها تدميـرا؟ وكيـفَ يصمـدون أمـام جيـشٍ اعتـاد هزيمـة الجيـوش فـي أيّـام قليلـة؟!

غـزّة إليـك هـذا النّشـيد تحيّـةَ إكبـار لا يخالطهـا تفجُّـعٌ عاجـزٌ ولا دمـعٌ ذليـلٌ ولا طقـوسُ رثـاء، فأنـت روحٌ منتصـرةٌ وليـس للمـوت علـى الأرواح سـبيل. فعسـى أطفالـك يـرون فـي سـمائكِ الطائـرة الورقيّـة التـي أوصـى بهـا شـاعرك الشّـهيد رفعـت العرعيـر فتعيـد إليهـم الحـبّ بعـد انقشـاع الظّلمـة.

أرواح الأطفـال الشّـفيفة تبتسـم لخلاصهـا وتحـوم علـى أرضٍ يبـاب فتعجـب فيهـا لخـراب الأنفـس وكيـف ينمـو الشّـر أعشـابًا خبيثـة بيـن العمائـر العاليـة وفـي القلـوب المريضـة.

أن يُقتَـل مـن أهلِـكِ أربعـون ألفـا، مائـة ألـف أو أكثـر مـن ذلـك، فمـن يهتـمّ؟ وأنّ تعربِـدَ الدّابـةُ مكشّـرة عـن أنيابهـا فتمـزّق وتطحـن وتلتهـم مسـتعينة بالـذّكاء الاصطناعـي فـي عَجَـاجِ الـدّم والدّخـان مـن بيـت حانـون إلـى رفـح، فمـن يعقلهـا أو يكبـح جماحهـا؟.. أهـو الغـرب عرّابهـا ومـن أرخـى لهـا العنـان لتحلـم فـي دعـةٍ وأمـان بالتهـام المزيـد مـن الفرائـس الموعـودة لهـا بيـن النّيـل والفـرات؟ أم هـم بنـو قومـك العاجـزون إلاّ عـن الدّعـاء لـك؟ أم أنظمتهـم المتخاذلـة إذ يدافـع بعضهـا ظاهريّـا عـن الحـق الفلسـطيني ويعمـل ضـدّه فـي الخفـاء؟! يـا لَـذوي القربـى غُثـاء السّـيل! ياللرَّعايـا فـي زمَـنِ المُواطَنـة! يـا لَلْأقْنـان فـي آخـر مـزارع الإقطـاع، ويـا لَلأجنـادِ

(*) مجمعيّ وسيناريست وكاتب وشاعر ورسّام وناقد فنّي ومترجم.

حماةِ الدّيار ولا حمايةٌ ولا حميّة ! أما آن لكم أن ترفعوا الرّؤوس لتشهدوا البشائرَ تَتْرَى من سماء غـزّة المحاصرة إلى فضاء العالم؟ !

عـدوُّكِ، غـزّةَ، ورعاتُـه يجتمعون عليك كالضّباع يسيل لعابها تلمُّظًا، وخلفهم ذوو قُرباكَ تشرئبُ أعناقُهم لفتاتٍ يتساقط من الأشداق. لا تطلبي منهم نجدةً ولا شدَّ أزْرٍ ولا معونة فهم لا يملكون نفعًا لأنفسهم في تيه زمنهم الميّت. ولتكوني الشّاهدةَ على انهيار ضمائرهم، الكاشفةَ لكلّ خسّةٍ فيهم، الفاضحةَ لكلِّ نذالة. وإذ تأكل النّارُ جسدك يُعرّي لهيبُها سوءاتهم ويُبْدِي سوادَ أنفسهم وسوءَ نفاقهم. لأنّتِ النَّفَسُ الحيُّ وسط الصّدور الحَرِجَة، وأنت الوعدُ بالنّور في ظلام هذا العالم.

مهرجانٌ دمويٌّ يُنْصَبُ لغـزّة المكتظّة المحاصرة فيُصَبُّ الرصاصُ عليها صبّاً وتجوبُ صورُ الجرائم الأرضَ فتستفيق الضّمائرُ وتغضبُ لاستشراء ظلم يجيزُه بل ويكرّسُهُ نظامٌ دولي ينتهك العدالةَ والمبادئ والأخلاق؛ ولا خوف على الكيان فحقُّ النّقض بيد الحامي يضمن بقاءَ القهرِ سيفًا مُسَلَّطًا على كلّ رجل وامرأة وطفل في فلسطين، فيمنع إدانته ويُديم عدوانه ويجهض كلّ أملٍ للفلسطينيين في الانعتاق. وحيثُ سُدّت الآفاقُ وعمّ اليأس إذْ بالطّوفان يجتاح في سيله العَدُوّ ويكسر هيبته فيلجأ بأعنف ما أوتي من حقد إلى تقتيل الأبرياء وتدمير المساكن وتجريف المقابر مستفزّاً الضّمائر الحرّة في العالم. ويعلو الغضب فيندفع المحتجّون في موجات عارمة تجتاح السّاحات والشّوارع والجامعات في كلّ رقعة من الأرض يحرّكهم وعيٌ حادّ ببربرية العدوان وتتكشف لهم حقيقةُ قضيةٍ طالما عمل الأبعدون والأقربون على طمسها. فأيّ وضعٍ أفدح من دمارٍ فاق دمار «درسدن» الألمانيةً في الحرب العالمية الثّانية؟ ! وأيّ واقع أقسى على الضّمير من الإبادة الجماعية والتّهجير والاغتصاب وشتّى الانتهاكات التي تنالُ آلاف المدنيين نساءً ورجالا وأطفالا؟ !

العرّابون والرّعاة في الغرب يكابرون ويُنكرون ويختلقون الأعذار للمعتدي ويهوّنون من جرمه ويلوذون بمبرّرات اخترعوها لدعم العدوان محتجّين تارة بالإرهاب وأخرى بمعاداة السّاميّة، وهم في الحقيقة يخشون انهيار نظام أنفقوا في بنائه الجهد والوقت وأقاموا له الأسوار والحصون يحيطون بها دويلتهم الصّهيونيّة التي اصطنعوها لبسط نفوذهم على العرب وابتزاز ثرواتهم وخنق تطّلعاتهم إلى الحريّة؛ وإنّ في حديث جاريد كوشنر لعبرةً ودلالةً على تلك النّوايا إذ يرى بفكره الرّشيد ونظره السّديد «تنظيف» غـزّة من أهلها ونقلَهم إلى سيناء أو إلى صحراء النّقب تمهيدا لاستغلال واجهتها البحريّة ذات القيمة الكبيرة في مشاريع مربحة !

تطهير عرقيٌّ وطمسٌ لكلّ ما يذكّر بغـزّة وثقافتها وتاريخها، ذاك هو المشروع الحضاري الصّهيوني الغربي؛ وقد شُرِع في تنفيذه وتشهد بذلك الصّورُ رغم الحَجْبِ والتّعتيمِ والتّزييفِ والتّهديد منْ هدمٍ لِكنائسَ

من القرون المسيحيّة الأولى في جباليا ودير البلح وحيّ الزيتون، ومساجدَ قديمةٍ مثل «المسجد العُمَري» و«مسجد كاتب ولاية» المملوكي ومعالمَ أخرى كثيرة استهدفتها عصابات «تساحال»، ومتاحفَ كمتحف «قصر الباشا» في البلدة القديمة المشيَّد زمن الظاهر بيبرس و«متحف القرارة» التّاريخيّ في خان يونس، و«متحف رفح» وغيرها. هذا إلى هدم عشرات المؤسّسات الثّقافية مثل دور النّشر والمراكز الثّقافيّة وأروقة الفنون. كما يشهد به عدد القتلى من المثقّفين وأهل العلم والفنّانين والأدباء والصّحافيين فيشهد على سقوط الصّهيونيّة أخلاقيّا إلى دَرَكٍ لا قرار له، منهم الكاتب عبد الكريم الحشاش الباحث في التّراث الشّعبي الفلسطيني (76 عاماً) والكاتب والرّوائي الشابّ نور الدين حجّاج، وعالِم الفيزياء سفيان تايه (52 عاماً) والمؤرّخ جهاد المصري (60 عاماً) والشّعراء رفعت العرعير (44 عاما) وعمر أبو شاويش (36 عاما) وشحدة البهباني (73 عاما) والشّاعرة والرّوائية هبة كمال أبو ندى(24 عاما) والكاتب والموسيقي الشّابّ يوسف دوّاس والصحافيان بلال جاد الله (45 عاماً) ومصطفى الصّوّاف (62 عاماً)، والخطّاط مهنّد الآغا (30 عاماً)، والتشكيليّون ثائر الطويل (43 عاماً) وهبة زقوت (39 عاماً) وحليمة الكحلوت (29 عاماً)، ومحمد قريقع (24 عاماً) ونسمة أبو شعيرة (36 عاماً)، والفنان علي نسمان (38 عاما) والفنانة إيناس السقّا (53 عاماً).

لِيَعْمُرْ قلبَكِ الأملُ، غـزّةَ، فدماءُ شهدائِكِ، مهما وَلَغَ فيها عدوُّكِ فهي لا تقيم له أوَدًا ولا تحفظُ له رمقًا ولا تَشْفي له غلّة ولا تسندُ صَرْحَهُ المنقضَّ المتهاوي على فلولٍ تنادوا لفيفًا للغدرِ والإغارة والسّلبِ من كلّ حدب وصوب. ورغم التّعذيب والقتل والتّشريد وشُحِّ الماء والغذاء، نَراكِ تُسَفِّهينَ أحلامَ جلاّديكِ وتُغيظينَهم، فلا المقابر الجماعيّة ولا تيه الهائمين تحت القذائف ولا انتشار الخراب كطَفحٍ خبيثٍ على جسدك الغضّ، لا شيء من ذلك يُثني أبناءك عن السّير على طريق النّضال والشّهادة؛ أولئك يَلقُون الرّدى بثباتٍ ويحتمي أعداؤهم بمركباتهم حَذَرَ موتٍ مذمومٍ يتصيّدهم دون شرف.

صبرتِ، غَزّةَ، وكان صبرُك أشبه بحديث خرافةَ إذْ أذهل من غرابته الملايين عبر العالم. لم يمت فيك العزمُ بل لقد أوجعْتِ بصبرك العدوّ وأذلَلْتِه وكشفتِ جبنَهُ وفضحتِ بربريتَهُ في الآفاق؛ ولئن سقط آلافُ العزّل من أبنائك وبُعْثِرَتْ أشلاؤهم تحت الرّكام فهم يَرتَقون إلى حيث لا إسرائيل تبطشُ ولا أمريكا تهيمِنُ ولا مجلس أمنٍ يعجِزُ ولا اتّحاد أوروبيّ يتواطأُ متهيّبًا من تسمية القتل قتلاً والتشريدَ تشريدا والإبادةَ إبادة!

غـزّة الصّغيرة تصمدُ وبجسدها ألفُ طعنة فيخرسُ النّاعقون ويبهتُ الشّامتون ويذهلُ المتخاذلون ويهلعُ الخائنون؛ فكم في صبركِ من موعظةٍ وعبرة! يحاصِرُك أعداؤُك من كلّ جانب بآلتهم الإعلاميّة الرّهيبة فيشقُّ صوتُكِ صفوفَهم تحمِلُه قوّةُ الحقّ فيعلو فوق أسوارهم ويحرّكُ المشاعر الخيِّرة في شعوب الأرض. أبلَغْتِ، غـزّةَ، صوتَك حتّى أطراف المعمورةِ؛ فلك سعفةُ المتفوّق الذّهبيّة في

مضمار طالما احتكرهُ أولو الهيمنة والقوّة والبطش.

غزّة طائر الفينيق تُبْعَثينَ من رمادك أيقونةً تُشرق في ظلام هذا العصر فتشخصُ نحوكِ أبصارُ أحرارِ الأرض من كلّ جنس تشدُّهم إليك أواصِرُ الرّوح. أما سمعتِ الباقين من الهنودَ الحمر الأمريكيين يهتفون لكِ في منافيهم وقومَ «الماوري» في زيلندا الجديدة يغنّونَ لك ويرقصون، أولئك الذين أبادهم الاستعمار وسلبهم الهويّة والعزّة والمكانة الكريمةَ بين الأحياء؟

ولأنّكِ تحملين حلمًا عظيما ووعدا بالحرّية، ولأنّك مثالُ السّعي إلى الخلاص من القهر ففي صبرك إلهامٌ لذوي العزائم الصّادقة إذ يرفعون الأصوات من أجل إيقاف آلة القتل والتّصدّي لمخطّط الإبادة !

وإنّك، غزّةَ، لكبيرة حتّى لا يبدو للرّائي سواك من بلاد ترزح من حولك تحت الاستبداد والعجز والسّأم..

منذ سنين تجترّ إسرائيل قصّتها المزعومة كملاذ للديمقراطية والتّمدّن المحاصر وسط محيط همجي، وما لبثت غزّة أن كشفت للعالم حقيقتها القذرة فساح ما تراكم على وجهها البغيض من أصباغ وسقطَ عنها رداءُ تحضّرها المهلهل ليُبديَ كلّ ما تضمره من غدر وحنث وعطش للدّم وخواء إنسانيّ يلتحف بالنّقاء والتّسامح والأخلاق. وكانت غزّة الجريحة في محنتها الأخيرة ركحًا لمسرحيّة مبتذلة ألّفها صهيون متّخذا فيها دور الضّحيّة ؛ وسرعان ما اتّضح زيْفُها وسذاجتها مما جعل قضيّة فلسطين تقفز إلى واجهة الأحداث بعد طول خمول مثيرة أسئلة كثيرة ما كانت تُثَارَ لولا انتفاضة أبناء غزّة. ورغم تتالي الأيّام العصيبة على القطاع قصفًا وعسفًا وتنكيلاً فقد جرف العدوان فيما جرفَ كلّ ما جمعه العدوّ من تعلاّتٍ وأعذار وأبدى للعيان ساديتَه واستهانته بالمبادئ الإنسانيّة وتمرّغه في أوحال البربريّة. وليس أبلغ من تهافت أسطورة خطر جيران إسرائيل على أمنها ما تلقّتْهُ ما تتلقّاه منهم سرّا وعلانيةً من تسهيلات ومعونات وأغذية بينما يُمنع أهلُ غزّة الغذاءَ والماءَ والدّواء؛ فأيّ خطرٍ يتهدّدها اليوم وسط جِوارٍ يحتضنها ويحدب عليها؟ وأيّ رادعٍ لها عن الاستمرار دون حياء في همجيّتها وعدوانها؟

دمُك غزّةَ إذ يسيلُ إلى البحر بشارةٌ ووعدٌ بأن لا غدٌ مثل أمسٍ وأنّ السّيل سيجرف عدوّك وعبيده...

أنت الطّريحة عطشى قرب النّيل والأردن، أنت الجائعة بين البطون المتخمة والعجيزات المرفّهة، وأنت المستباحة بين أدعياء الفضيلة.. شمَمٌ وشهامةٌ وإباءٌ.. مكارمٌ وغيرةٌ ووفاءٌ.. كلامٌ هُراء ومحض افتراء !.. نساء غزّة يُغْتَصَبن فلا يأبهون، والخُدّج والرّضّع والصبية واليافعون والكهول والشّيوخ الهرمون، بنار الغدر يصطلون، فلا ينفرون ولا يثأرون.. قد يشجبون ويندّدون وبينهم شامتون متربّصون؛ يأملون خلاصا من غزّة الأمل والرّمز وغزّة الفعل والنّموذج الحيّ للمقهورين في العالم.

في جوّ غزّة الموبوء المشبع برائحة الموت، وسط ركامِ الحيوات المجهضة

والأبنية المتداعية والمقابر الجماعيّة تنمو أزاهير غريبة تبثّ العطور للأحياء من أبنائها وسموما قاتلة في صدور أعدائهم. تلبّدت السّماء وأرسلت النّذر واختلطت الأوراق ولا يدري أحد ما يخبّؤه القدر، وهذا نواح اليتامى والأيامى والثّكالى على الأجداث المبعثرة يرثي عهدا قد انقضى وينذر بآخر لا أمان فيه لأحد، وسيظل كابوس فلسطين يلاحق المتواطئين بعد أن عجزت حليفتهم إسرائيل عن إنهاء روح المقاومة في غزّة.

لئن قُطِّعتْ منك الأوصال ولاكت لحمَك الذّئاب العاوية فستظلّين عصيّةً على الموت كحلم مُلْهِم، كفكرةٍ خارقة، نجمةً علتْ في تشرين وسافرت بعيدا لتضيء أنفسًا توّاقة إلى الحقيقة والحريّة. لا تأبهي لمن خَذلكِ وتآمر عليك. دعيهم في ليلهم الطّويل فلستِ منهم وليسوا منك وهل تلتقي الهمّة بالصَّغار والإباء بالخنوع والرّفعة بالمذلّة؟..أنت الجمر تحت رمادهم، أنت الحياة والقوّة والدّم الحيّ متفجّرا، هم العجز والذّلّ يجثمون في زوايا زمن ميّت، صرعى، هياكل، جثثا تعافهم الأرض.

أنت مرج أرجواني مزهر تحوم فوقه أرواحُ شهدائك.. يا للكائنات النّورانية في ظلام العرب !.. نجومٌ، أقمارٌ سُلِكتْ في عقدٍ يتلألأ على صدرك المضرّج بالدّم ! أنت مرجٌ مُزْهرٌ بألف لون، وسواك حُزونٌ مُمْحِلةٌ ومفازات جدباء تسكنها أشباحُ صفر الوجوه من عجز ومن ألم وندم.

سقى اللّه عهود العزّة والسّؤدد أيّام وقوف بني قومك بشمم بين الأمم، دون اعتماد على غريب أو استقواء بعدوّ، وبُعْدًا لِزَمَن التّشرذم والتّقاتل والخضوع للمعاهدات المُهينة، زمن «سايكس بيكو» والانتداب والاستعمار والمذلّة.

غزّة أنت العرقُ النّابض في جسد ميّتٍ فلا يألَمُ من جِراح! فكم اقترف الاستعمار في حقّه من مجازر قديما دون أثر باقٍ أو عبرةٍ يعتبر بها فتدفعه إلى التّمرّد. فلتكنْ مأساتك خميرةً لعهد جديد يُوقِفَ انزلاقَ ذوي القربى إلى درك لا صعود بعده ويقاوم ميلهم إلى الخُلْفِ والفُرْقَةِ والخضوع للقوى المهيمنة.

غزّة العظيمة لم تهزمي عدوّك أخلاقيا فحسب بل رسمت مسارا لعشّاق الحريّة حيثما كانوا وغيّرتِ العالم.

وبات لك في القلوب الأحرار موئلٌ وقَرَار.

وأنتِ فلسطين الجريحة؛ لا تحفلي بمن خذلك واسقي بدماء أبنائك شجرة الحريّة ثمّ انعمي

بظلّها الوارف وبثمارها المجيدة.

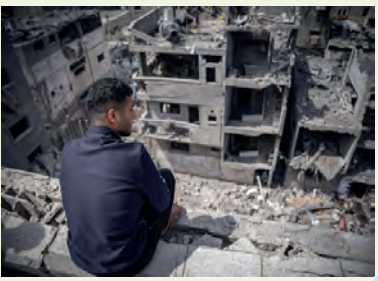

القضية الفلسطينية
في الإعلام الغربي بين التغييب والتضليل

عبد الحفيظ الهرقام(*)

كان من تداعيات الهجوم المباغت الذي شنته يوم السابع من أكتوبر 2023 كتائب عز الدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس، ضد مستوطنات إسرائيلية في قطاع غزة أن عاد النزاع الفلسطيني الإسرائيلي ليتصدّر واجهة الأحداث على الساحة الدولية بعد أن ظلّ انتباه الرأي العام مشدودا إلى الحرب الدائرة رحاها في أوكرانيا منذ الرابع والعشرين من فيفري 2022 ..

ولئن اتجهت بوصلة الإعلام بمختلف وسائطه هذه المرّة نحو قطاع غزة فإنّ الطريقة التي تولت بها أجهزة الميديا الغربية تغطية الأحداث الجارية في هذا الجزء من الأراضي الفلسطينية ما لبثت أن أثارت جدلا واسعا في الأوساط المهنية والأكاديمية المهتمة بالشأن الاتصالي في البلدان العربية وحتى في عدد من البلدان الغربية، كما أنها أيقظت في الآن نفسه وعي جانب من الجمهور الذي لم يعد ذلك المستهلك السلبي لما يعرض عليه من مواد، سمعية كانت أم بصرية أو مكتوبة، بل بات، في عصر الثورة الرقميّة، مشاركا نشطا في الفعل الاتصالي، ينظر إلى ما تحمله هذه المواد من رسائل، ما ظهر منها وما استتر، بعين الناقد الحصيف، بفضل ما اكتسبه من قدرة على تحليل أبعادها وإدراك رموزها وفكّ مغالقها ..

(*) إعلامي ودبلوماسي سابق.

وكما هو الشأن في كلّ نزاع مسلّح، غالبا ما تكون الحقيقة ضحيته الأولى، إذ يعمل هذا الطرف أو ذاك على توظيف وسائل الإعلام لفرض سرديته لدوافع الحرب ومجرياتها قصد التأثير في معنويات العدو وكسب تعاطف الرأي العام الداخلي والخارجي ودعمه ولعل الحقيقة الوحيدة في أي خلاف كان هو أنّ الحقيقة ليست في نهاية الأمر سوى«رهان صراعات» (enjeu de luttes) على حد تعبير بيار بورديو (Pierre Bourdieu).

في أيّ خلاف كان ليست الحقيقة في نهاية الأمر سوى «رهان صراعات» (enjeu de luttes) على حدّ تعبير بيار بورديو (Pierre Bourdieu).

يدفعنا هذا الجدل إلى أن نتناول بالدرس والتمحيص الطريقة التي تعامل بها الإعلام الغربي مع الأحداث الجارية في غزة وأن نسلّط الضوء على خلفية معالجته لهذه الأحداث ومنطلقاتها قبل أن نحاول الكشف عما تخفيه من دلالات وتتيحه من خلاصات عساها تساعدنا على تفكيك ميكانزمات صناعة الخطاب الإعلامي الغربي وتوجيهه في عهد ما بعد الحقيقة..

وسنتوخى في تناول الموضوع مقاربة وصفية تحليلية لملامح تغطية الإعلام الغربي للحرب في غزة من خلال عينات من وسائل إعلام فرنسية وأمريكية بوجه خاص، وذلك اعتمادا على بيانات نوعية وكمية مستقاة من مصادر موثوق بها تولت، وفق مناهج علمية، رصد الخط التحريري لهذه الوسائط وشرح توجّهاتها في معالجتها للملف الفلسطيني الإسرائيلي ..

بقدر ما لم نتفاجأ بالحملة الكاذبة التي أطلقها الكيان الصهيوني عبر مختلف الوسائط الإعلامية التي يمتلكها أو يتحكم فيها لتبرير ردّ فعل قواته العسكرية على هجمات حماس والذي تجاوز كلّ الحدود في خرق سافر لأحكام القانون الدولي الإنساني ولا سيّما اتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية المدنيين زمن الحرب، فإنّ شعورا غامرًا بالاستياء قد انتابنا أمام تماهي العديد من وسائل الإعلام الغربية مع الرواية الإسرائيلية وتعاملها مع مأساة غزة على نحو يتعارض مع قواعد العمل الإعلامي الحرّ والنزيه ومبادئ التغطية المتوازنة للأحداث..(1)

إنّ ما جلب انتباهنا بشكل خاص لدى متابعتنا للتغطية الإعلامية للحرب في القطاع عبر عدد من الصحف والقنوات الفرنسية التقاء جلّها، بشقيها العمومي والخاصّ، حول خطّ تحريري تتشابه إلى حدّ كبير ملامحه ومفرداته وكأنّ هذه الأجهزة نسّقت فيما بينها منذ بداية الحرب لترسم إطارا شاملا للتغطية وتضبط لصحافييها حدودا للمجال الذي ينبغي عليهم التحرّك فيه دون تجاوزه قيد أنملة وذلك وفق

ما يشبه مدوّنة سلوك توضِّح لهم ما يجب أن يقال وما يجب ألّا يقال..

وقد تأكّد لدينا هذا الانطباع من خلال اطلاعنا على جملة من البحوث والمقالات، منها ثلاثة (2) نشرها موقع أكريماد (3) (Acrimed) وسلّط فيها أضواء كاشفة على المعالجة الإعلامية في فرنسا للحرب في غزّة.

ويستنتج من عملية الرصد التي قام بها هذا الموقع أنّ من بين الممارسات التي دأبت عليها وسائل الإعلام الفرنسية في تناولها للصراع الفلسطيني الإسرائيلي نزعتها إلى «الحاضرية» (présentisme)، أي تجنب أية إشارة إلى ماضي الصراع بفصل حلقاته عن بعضها البعض قصد نزعه من سياقه التاريخي (déshistorisation)..

ومن هذه الزاوية بدت عملية «طوفان الأقصى» وما تبعها من رد فعل إسرائيلي وكأنها لا تندرج ضمن مسار تاريخي طويل انطلق سنة 1948 عند حدوث «النكبة»، وإنّما صُوّرت كأنّها عاصفة اندلعت فجأة في جوّ صحو، وهو ما أراد أن يوهم به المشاهدين مقدّمُ نشرة الأخبار على قناة فرانس تلفزيون مساء يوم السابع من أكتوبر 2023 حينما قال، وهو يتحدث عن الشرق الأوسط، «إنها منطقة سرعان ما نسينا طابعها المتفجّر»..

وهذا النسيان إنما مردّه في حقيقة الأمر نية لتغييب القضية الفلسطينية عن الأجندا الإعلامية في فرنسا، وهذه ظاهرة هيكلية كانت موضوع بحوث وعمليات رصد وتقصّ (4) حيث تبيّن، خلافا لاعتقاد سائد، تراجع الاهتمام بالنزاع الفلسطيني الإسرائيلي خلال العقدين الأخيرين، وبالتحديد من سنة 1995 إلى جوان 2023، كما أثبت ذلك تحليل لثلاثة عشر ألف مادة إخبارية اتخذت شكل تحقيقات وأنباء موجزة ومواضيع مقدمة

من الأستوديو. ويعزى ذلك حسب شارل أندرلان (Charles Enderlin) مراسل فرانس تلفزيون سابقا في إسرائيل إلى الانطباع الحاصل لدى رؤساء التحرير بأن النزاع الفلسطيني الإسرائيلي قد فقد أهميته بسبب تطبيع العلاقات بين عدد من الدول العربية وتل أبيب وكذلك الخوف من ردّ فعل عنيف من طرف النزاع ولا سيمّا من جانب المجلس الممثل للمؤسسات اليهودية في فرنسا (CRIF).

وحسب إحصائيات أجراها المعهد الوطني السمعي والبصري الفرنسي (INA) بين غرة جانفي وغرّة أكتوبر 2023 لم تدرج قناة فرانس تلفزيون في نشراتها الإخبارية سوى عشرة مواضيع عن النزاع الفلسطيني الإسرائيلي ولم يدم الوقت الممنوح لردّ

الفلسطينيين سوى 33 ثانية، بينما اتّضح من رصد قام به موقع Arrêt sur image على مدى عشرة أيام عقب اندلاع الحرب في غزة لأربعة وستين نشرة إخبارية لقناتي TF1 وفرانس تلفزيون، استغرقت قرابة ثلاثين ساعة، أنّ المدنيين في القطاع لم يحظوا إلا بخمس دقائق من كلّ هذه المدّة ..

وغنيّ عن البيان أن تقليص حجم التغطية الإخبارية للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي يعطي عنه صورة مبتورة ومشوّهة خاصّة عندما لا يتم التركيز إلا على أحداث عنف محددة في الزمن دون رابط بينها ودون شرح منطقي لأسبابها وسياقها. وممّا يزيد في تحريف هذه الصورة وتزييف الواقع التعتيم على معاناة الفلسطينيين في قطاع غزّة المحاصر وفي الضفة الغربية على حدّ سواء وغضّ الطرف عن توسع رقعة الاستيطان الصهيوني في الأراضي المحتلة، فضلا عن التجاهل التام للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في تقرير المصير والاستقلال والسيادة الوطنيين، وهي الحقوق الثابتة التي أقرها المنتظم الأممي طبق القرار الصادر عن جمعيته العامة في 22 نوفمبر 1974 ..

كما أنّ تعمّد الإعلام الفرنسي فصل النزاع عن سياقه التاريخي أظهر إسرائيل في مظهر الضحية وأضفى على حرب الإبادة التي شنتها ضد الفلسطينيين طابعا شرعيا إذ هي «تُمارس حقها في الدفاع عن النفس ضدّ الهجمة الوحشية لحركة حماس الإرهابيّة » وتنكر هذه «الحاضرية» الملازمة للخطاب الإعلامي في الآن نفسه حقّ الفلسطينيين المشروع في مقاومة الاحتلال الصهيوني..

والأنكى من ذلك كله اختزال نزاع طويل في حرب غير متكافئة بين إسرائيل وحماس الغاية منها حسب السردية الصهيونية الغربية المهيمنة القضاء على «حركة إرهابية»، علاوة على تغييب جغرافي وسياسي مفضوح للقضية الفلسطينية برمتها. فمن خلال التركيز على قطاع غزة تصبح الضفة الغربية «الزاوية الميتة» أو النقطة العمياء في المعالجة الإعلامية ومجرّد «جبهة» تتساوى من حيث «تهديداتها لأمن إسرائيل» مع الجبهتين السورية واللبنانية، وفي ذلك بلا شكّ محاولة لتجزئة النزاع الفلسطيني الإسرائيلي وتفتيته وخلق شروخ سياسية وجغرافية داخل الكيان الفلسطيني الواحد..

ومن ناحية أخرى، أبرز رصد المعالجة الإعلامية لعدد من القنوات التلفزيونية والصحف والمجلات الفرنسية للحرب نزعة إلى الكيل بمكيالين في التعامل مع طرفي النزاع. فحصيلة الضحايا والجرحى التي تقدمها وزارة الصحة في القطاع (وغالبا

ما تطلق عليها وزارة الصحة لحماس) تثير دوما الشك والريبة، بينما تحظى المصادر الإسرائيلية بكامل المصداقية ..

كما تجلى من خلال الرصد تغييب ممنهج لوجهة نظر حماس التي يتركز عليها التناول الإعلامي مع وصمها دوما بالإرهاب لكن دون أن يكون لها دور أو حضور اتصالي يذكر وتلك من المفارقات العجيبة كأنّ الحركة لا برنامج لها ولا مطالب، مقابل حضور لافت للناطقين باسم الجانب الإسرائيلي والموالين لسرديته، من رجال الإعلام والسياسة والإخصائيين الفرنسيين..

ومن مظاهر إزدواجية المعايير كذلك التعتيم على جلسات محكمة العدل الدولية التي نظرت بداية من يوم 11 جانفي 2024 في الدعوى المرفوعة من جنوب أفريقيا ضد إسرائيل بتهمة ارتكاب إبادة جماعية ضد الشعب الفلسطيني، فلم تحظ باهتمام الإعلام الفرنسي سوى جلسة مرافعات الجانب الإسرائيلي، فضلا عن نزعة جلية إلى «تعاطف انتقائي». فحياة الإسرائيليين تبدو أهم وأثمن من حياة الفلسطينيين، وعندما يسقط الآلاف من بين هؤلاء شهداء وتدمّر البنية التحتية في القطاع وتصيب القنابل المستشفيات والمدارس ودور العبادة يعتبر ذلك من قبيل «الأضرارا الجانبية» التي تنجم عن كلّ حرب من الحروب. أليس في كل هذه الممارسات حجب متعمدا لمأساة غزة عن الأنظار وتجريد مقصود للفلسطينيين من إنسانيتهم؟

إنّ ما ذكرنا ليس في الواقع سوى عينات من انحرافات جانب كبير من الإعلام الفرنسي وثّقها بدقة موقع أكريماد (Acrimed) وكذلك موقع بلاست (Blast) الذي نشر في 31 مارس 2024 فيديو (5) مدته تناهز الساعة ويحمل عنوانا يغني عن كلّ تعليق : «إسرائيل فلسطين : سقوط إعلامي غير مسبوق» (Israël-Palestine: un naufrage médiatique sans précédent).

ومثلما وُضع تعامل وسائل الإعلام الفرنسية مع الأحداث في غزة تحت مجهر هيئات مستقلة متخصصة في الرصد والنقد في مجال الميديا، خضع جانب من الإعلام المكتوب والسمعي والبصري في الولايات المتحدة الأمريكية لتحاليل كمية ونوعية لمضامينه قام بها باحثون ومؤسّسات شبيهة في بلد يتابع فيه 70 بالمائة من الكهول أخبار الحرب كما تبين ذلك من ثلاث عمليات سبر آراء (6) أجريت بين 11 و13 أكتوبر 2023 .وأوضحت منظمة غالوب (Gallup) من ناحيتها أنّ 54 بالمائة من الأمريكيين يتعاطفون مع الإسرائيلين في حين تبلغ نسبة المتعاطفين مع الفلسطينيين 31 بالمائة، مما يعكس تغييرا نسبيا طرأ على موقف الأمريكيين من النزاع في الشرق الأوسط مقارنة بما كان عليه سنة 2013 حيث كانت نسبة التعاطف مع الإسرائيليين 64 بالمائة مقابل 12 بالمائة للفلسطينيين.(7)

والملاحظ أنّ التغطية الإعلامية للحرب تناغمت كليا مع الموقف الرسمي للحكومة الأمريكية المساند بشكل مطلق لإسرائيل. وعلى غرار أجهزة الميديا الفرنسية، انساق الخطاب الإعلامي الأمريكي وراء الدعاية الإسرائيلية المضللة، مما حدا بهنري براشتر (Henry Brechter) رئيس تحرير AllSides وهي مؤسّسة متخصّصة في فحص التوجّهات السياسية لوسائل الإعلام إلى القول إنّ الانحياز في تغطية النزاع هو الأكثر وضوحا وجلاءً مقارنة بالتغطيات التي تولى تحليلها، وإنّ ما طغى على المعالجة الإعلامية لهذا الصراع الدامي في عدد من الحالات الاندفاع العاطفي للصحافيين ووقوعهم في فخّ التسرّع والآراء المسبقة في نقل الأحداث، فضلا عن قصور في إدراك أدق الجزئيات (8) ..

وفي ضوء تحليل لأكثر من ألف مقال منشور على أعمدة النيويورك تايمز والواشنطن بوست ولوس أنجلس تايمز أكد موقع ذي انترسبت الالكتروني (The Intercept) وهو مؤسسة

إعلامية غير ربحية تأسست سنة 2014 أنّ هذه الصّحف الثلاث الكبرى أبدت في تغطيتها للحرب في غزة انحيازا للاسرائيليين ومعاداة للفلسطينيين باعتماد سياسة الكيل بمكيالين، لا سيّما في الحديث عن الضحايا في صفوف الجانبين حيث ذكرت صفة «فلسطيني» مرة واحدة لكل قتيلين فلسطينيين بينما ذكرت صفة «إسرائيلي» ثماني مرات لكل قتيل من الجانب المقابل بما يوحي بانتفاء المساواة أمام الموت!!

كما لوحظ استعمال عبارت تجلب التعاطف للقتلى الإسرائيليين كعبارتي «مذبحة» (massacre) و«فظيع» (horrible) في حين أن أيا من هاتين الكلمتين استخدمت للحديث عن الضحايا الفلسطينين الذين كان عددهم أكبر

بكثير من القتلى الإسرائيلين لا سيّما من بين الأطفال والنساء والصحافيين، فضلا عن لجوء هذه الصحف إلى صيغة المبني للمجهول عند الحديث عن إصابة مدنيين فلسطينيين برصاص الجيش الإسرائيلي وذلك للتستّرعلى الفاعل مرتكب الجريمة، فإذا بهؤلاء «يموتون» أو«يُقتلون» بسبب «أخطاء متكررة» ولكنها غير ممتدّة في الزمن، وبتصوير الوقائع بهذه الطريقة يجرّد الفلسطينيون من إنسانيتهم وتُهوّن مأساتهم..

كما أظهرت الصحف الثلاث تمييزا جليّا في تعاملها مع ظاهرة العنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد السابع من أكتوبر، إذ ركزت أكثر على السلوكات المعادية للسامية التي ذُكرت 549 مرّة طوال الفترة التي تناولتها الدراسة مقابل 79 مرّة فقط تمّ فيها التطرّق لمظاهرالإسلاموفوبيا ومعاداة العرب.(9)

ولا يختلف الإعلام السمعي والبصري في توجهاته وفي طريقة معالجته للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي

عن الصحافة المكتوبة كما يتضح من دراسة لمضامين البرامج الحوارية التي تبث يوم الأحد على أهم الشبكات وهي NBC و CBS وABC وFOX، وتحظى هذه البرامج بشعبية كبيرة ويتابعها مشاهدون ثمانين بالمائة منهم تتجاوز أعمارهم خمسين عاما.

فمن خلال فحص حلقات هذه البرامج الإحدى والخمسين في الفترة الممتدة من 8 أكتوبر 2023 إلى 14 جانفي 2024 تبيّن أنّ عدد ضيوفها بلغ 140 ضيفا منهم 120 من جنسية أمريكية، معظمهم مسؤولون حاليون أو سابقون في الحكومة وأنّ لا أحد من هؤلاء ينحدر من أصول فلسطينية أو هو عربي أمريكي، ويوجد من بين المشاركين ثلاثة مسلمين تعود أصولهم إلى منطقة جنوب شرق آسيا إثنان منهم عبّرا عن موقف مساند للفلسطينيين، بينما يأتي الإسرائيليون في المرتبة الثانية بتسعة مشاركين ظهروا عشر مرات في الشبكات التلفزيونية الأربع، من بينهم الناطق الرسمي باسم جيش الاحتلال والسفير بالولايات المتحدة والرئيس «إسحاق هرزوغ» والوزير الأول «بنيامين نتانياهو» ولم يشارك من الجانب العربي في كل هذه الحلقات سواء إثنان وهما حسام زملط سفير فلسطين بالمملكة البريطانية الذي ظهر في قناة CBS يوم 5 نوفمبر 2023 ودينا قعوار سفيرة الأردن بواشنطن، وقد كانا الوحيدين اللذين تطرقا لتطلعات الشعب الفلسطيني إلى التحرر وإلى إقامة دولته المستقلة على أراضيه، وأوضحا أن ما جرى يوم السابع من أكتوبر في غزة إنما هو نتيجة مباشرة للاحتلال الإسرائيلي منذ سنة 1967، إذ كان

التوجه الطاغي على خطاب المشاركين إخراج النزاع الفلسطيني الإسرائيلي من سياقه التاريخي واختزاله في حرب غزة، فضلا عن التعتيم على الممارسات الوحشية للسلطات الإسرائيلية وعلى تماديها في قضم الأراضي الفلسطينية ببناء المزيد من المستوطنات..

ولئن تناولت الحوارات معاناة الفلسطينيين جراء العمليات العسكرية الجوية والبرية الإسرائيلية التي تحدث عنها ممثلو منظمات ذات طابع إنساني على غرار «Save the children» وبرنامج الأغذية العالمية و«أطبّاء بلا حدود» فإنها عكست الخطاب المهيمن صلب الطبقة السياسية الأمريكية والمساند لإسرائيل..

كما تجلى من خلال رصد البرامج الحوارية «تعاطف انتقائي» لصالح الجانب الإسرائيلي، حيث أشير 529 مرة إلى الرهائن الإسرائيليين بعد هجوم حركة حماس مقابل 17 مرة أشير فيها إلى المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية، علاوة على أن الدعوة إلى وقف إطلاق النار الذي ذكر 94 مرّة لم تكن الغاية منها وضع حدّ لمذبحة غزّة وللدمار الشامل الذي لحق البنية التحتية في القطاع وإنما التوصل إلى تحرير الرهائن الإسرائيليين..(10)

إنّ الانحياز للجانب الإسرائيلي يعدّ من ثوابت الخطاب الإعلامي الإمريكي منذ عقود طويلة وتفسّره ديفينا فرو مايقس Divina Frau Meigs بتهديدات اللوبيات الصهيونية «التي تندّد بصورة آلية بكل تغطية موالية لفلسطين باعتبارها فعلا معاديا للسامية، مما يخلق صنصرة ذاتية ناجعة للغاية» (11).

كما تجلى هذا الانحياز من خلال دراسة كميّة ضخمة من المعطيات أنجزت سنة 2023 باستخدام الذكاء الاصطناعي انطلاقا من 33 ألف مقال صادر في صحف أمريكية عن النزاع في الشرق الأوسط من سنة 1987 إلى سنة 1993 ومن سنة 2000 إلى 2005، وهي الفترة التي شهدت الانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية..(12)

وتنديدا بهذا الانحياز، أمضى 750 صحفيا في نوفمبر 2023 على رسالة مفتوحة أكّدوا فيها أنّ التغطية الإعلامية الأمريكية غير المتوازنة للحرب في غزة من شأنها أن توجّه الرأي العام نحو رؤية خاطئة للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي..

في ضوء ما تقدم عرضه يمكن أن نلحظ التشهابه الكبير بين توجّهات الإعلام الفرنسي والإعلام الأمريكي في تغطيتهما لمأساة غزّة ولعلهما يمثّلان أنموذجا لتعاطي الإعلام الغربي عموما مع هذا الشأن رغم اختلافات في السياق السوسيولوجي والاقتصادي للميديا في البلدين، فكلاهما تبنى الرواية الإسرائيلية وعتّم على الرواية المقابلة ونزع الحرب عن سياقها التاريخي وبررها بحجّة دفاع إسرائيل

عن النفس وعمد بلجوئه إلى ازدواجية المعايير إلى التلاعب بلغة الخطاب لجلب التعاطف للجانب الإسرائيلي وتهوين مسؤوليته فيما ارتكبه من مجازر في حق الشعب الفلسطيني، وذلك في انتهاك صارخ لأخلاقيات المهنة الصحفية ولقواعدها، الأمر الذي زاد في اهتزاز مصداقية مؤسّسات إعلاميّة عريقة تحوّلت في نظر المتابعين للشأن الاتصالي، من مثال للممارسات الفضلى في المجال الإعلامي إلى «آلة لصنع رأي مضلل» (13)

ويمكن في هذا الصدد أن نستدلّ بنتائج عملية سبر الآراء تقوم بها سنويا صحيفة لاكروا «La Croix» وقد بينت في نوفمبر 2023 أن 57 بالمائة من الفرنسيين يحذرون مما تقوله وسائل الاعلام، بينما يثق 32 بالمائة من الأمريكيين بما ينقله الإعلام عن الواقع وفق منظمة «غالوب» (Gallup) .

إن القضية الفلسطينية هي في حقيقة الأمر ضحية من ضحايا هذه الآلة الجهنمية التي تبخس كل ما لا يتناسب مع القوالب الطاغية وتنزع إلى التعتيم وتحاصر الحوار العام وتسعى إلى الحيلولة دون بروز خطاب مضاد، إذ أن كل كلمة لا تعيد إنتاج الأقوال المهيمنة تقاوم وتبتر وتعزل.. فالإعلام يخضع لسيطرة الإمبراطوريات العسكرية والصناعية التي توجه خطاب الصحافة حيث يتداخل السياسي والإعلامي، وهذا يؤدي إلى موت الحق في الإعلام ويحدّ من هامش الحرية، على حدّ تعبير ميشال فرايتاغ Michel Freitag. (14)

ولكي نفهم ميكانزمات توجيه الخطاب الإعلامي في فرنسا بالخصوص، يمكن الرجوع إلى كتاب «ميشال بورديو» «حول التلفزيون» (15) (Sur la télévision) وإلى لقاءاته الصحفية حيث يبيّن أن التلفزيون يخضع لضغوط تعود للعلاقات الاجتماعية لمنتجي المضامين وبنيتهم الذهنية المرتبطة بأصولهم وتربيتهم وتكوينهم، وأن هذا الوسيط المتحرر في الظاهر إنما هو ملجّم من حيث هو فضاء لصنصرة متعددة الجوانب، يُخفي وهو يُظهر ولكنه لا يُظهر إلا ما ينبغي إظهاره ويتفادى نقل الأخبار التي على المواطن أن يحوزها لممارسة حقوقه الديمقراطية، فضلا عن نزعة إلى هدم الواقع لبناء واقع جديد انطلاقا مما يتم انتقاؤه مع تغليب الجانب الفرجوي، بحثا عن الإثارة..

وعلى الرغم من مرور أكثر من عقدين على صدور هذا الكتاب فإنه يظلّ ذا راهنية لافتة، خاصّة إذ ما تأملنا في انحرافات الخطاب الإعلامي الفرنسي في علاقة بالتغطية الإعلامية للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي وكذلك في الخلل الهيكلي الذي تعاني منه الميديا في هذا البلد، حيث يمتلك إحدى عشر مليادارا بنسبة 80 بالمائة من الصحافة اليومية الجامعة وتستأثر قنواتهم التلفزيونية بنسبة 60 بالمائة من نسبة المشاهدة بينما تبلغ نسبة الاستماع إلى قنواتهم الإذاعية 50 بالمائة. ومن بين هؤلاء نذكر فانسون بولوري Vincent Bolloré وباتريك دراهي Patrick Drahi صاحب قنوات BFMTV وI24

و RMC والمالك لأغلب الأسهم في مجلة الأكبريس L'Express وهو الداعم لإسرائيل والحامل لجنسيتها إلى جانب جنسيات أخرى ..

ولعل من أهمّ المراجع التي لا غنى عن مطالعتها لإدراك دوافع توجيه الراي العام وطرقه كتاب إدوارد هرمين Edward Herman ونعوم تشومسكي Noam Chomsky 16 الذي يشرح بالخصوص الأسلوب المتبع من قبل اللوبيات والمؤسّسات والميديا لصياغة مفاهيم «الحرب العادلة» و«الضحايا» و«الإرهاب». ويتضمّن هذا المؤلّف الصادر سنة 1988 والمحيّن بمقدّمة طويلة سنة 2003 دراسة نوعيّة وكمية لمضامين وسائل إعلام أمريكية غطت أحداثا دولية، تمت مقاربتها باعتماد «نمط البروباغندا» (modèle de propagande) شبكةً للتحليل. وقد أراد الكاتبان بذلك أن يثبتا أن وسائل الاعلام الأمريكية ليست سلطة رابعة وإنما هي خاضعة في معالجتها الإخبارية المضللة لنفوذ النخب السياسية

والاقتصادية حيث تتحكم في سوق الميديا مجموعات من الشركات الاحتكارية الضخمة، تقوم بفضل امتلاكها لعدد من كبريات وسائل الإعلام بعمل دعائي لصالح كبريات المؤسسات التي تراقبها عن طريق تمويلها واختيارممثليها فيها ..

وتستند شبكة التحليل هذه التي تلقى صدى واسعا في مجال بحوث الميديا ولكنها تثير انتقادات من الناحية المنهجية إلى خمسة معايير أو «فلترات» (filtres) يتمّ من خلالها تنقية الأخبار وهي :

منزلة مالكي القنوات أو المساهمين في رأس مالها وحجم ثرواتهم والتوجه الربحي لوسيلة الإعلام

ووزن الإشهار،

وتبعية الميديا للأخبار الصادرة عن الحكومة وعن أوساط الأعمال وعن الخبراء الذين يؤجرهم هذان الطرفان،

ووسائل التصدى لأي خبر يثير الانزعاج وذلك في شكل ردود فعل منظّمة ومتزامنة بغية التأثير في الخط التحريري لوسيلة الإعلام والتهديد بمقاضاتها أو مقاطعتها أو سحب الإعلانات منها،

الماكارثية أو معاداة الشيوعية كمعتقد وطني وكآلية رقابة، وقد عُوضت اليوم بالحرب ضد الإرهاب..

ولا شكّ في أنّ هذا المعيار أو «الفلتر» الخامس كان محدّدا أساسيا لطبيعة التغطية الإعلامية للحرب على غزة من قبل الإعلام الأمريكي، خاصّة أنّ تهمة الإرهاب غالبا ما تلصق بالمقاومة ا لفلسطينية . .

ولئن اقترح «هرمين» و«تشومسكي» إحداث منظمات مواطنية من بين المهنيين والنشطاء في المجتمع المدني في سبيل قيام مؤسسات إعلامية مستقلة فإنّ الباحثة الفرنسية جوليا كاجي Julia Cagé اقترحت، بناء على دراسة لأوضاع الميديا في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، (17) إيجاد صيغة قانونية جديدة (شركة إعلامية غير ربحية) تسمح ببعث مؤسسات مستقلة عن المساهمين الخارجيين في رأس المال والمعلنين والسلط العمومية، ولكنها تخضع للقراء والأجراء ومستخدمي الإنترنت باعتبار هذا النمط الاقتصادي الأكثر ملاءمة مع الثورة الرقميّة ورهانات القرن الحادي والعشرين..كما دعت هذه الباحثة في كتاب آخر لها (18) إلى إعادة النظر في حوكمة الميديا وملكيتها من أجل بروز قنوات إعلامية حرّة..

ولكن هل تقدر هذه المؤسّسات في حال إنشائها على التخلص من نفوذ اللوبيات السياسية والمالية والتأثيرات الإيديولوجية وعلى النظر إلى الواقع بموضوعية وتجرّد واضعة دوما في الاعتبار قواعد العمل الإعلامي الحرّ النزيه بما يمكنها من إجلاء الحقيقة، سواء تعلق الأمر بالقضية الفلسطينية أو بسائر القضايا الأخرى، في عصر ما بعد الحقيقة ؟ وهل يمكن لوسائل التواصل الاجتماعي التي ساهمت في بروز «الصحافي المواطن» أن تصلح الخلل الحاصل في الإعلام التقليدي وتضفي التوازن المنشود فيما يروج من مواد مختلفة أم أنّ صعودها بوصفها مصدرا للأخبار «زاد من تشوش الحدود الفاصلة بين الأخبار والآراء، لأن الناس أصبحوا يشاركون في نشر قصص متأتية من مدونات ومواقف إخبارية بديلة ومصادر مجهولة، كما لو أنّها صحيحة

تماما»؟ (19)..

وأخيرا وليس آخرا ألا تحيلنا التغطية الإعلامية الغربية للنزاع الفلسطيني الإسرائيلي إلى قصور أجهزة الإعلام العربية في تجاوز معضلة مخاطبة الآخر (20) وفي التأثير على الرأي العام العالمي لكي يدرك حقيقة هذا النزاع، إلى جانب حقائق أخرى غيّبتها عن إنظاره حملات التزييف والتضليل؟

تلك أسئلة حارقة لا مناص في تقديرنا من تناولها بالدرس والتحليل..

المراجع والهوامش

1 عبد الحفيظ الهرقام، أصوات عربية في مواجهة التضليل الصهيوني الغربي، مجلة « الإذاعات العربية » العدد الرابع لسنة 2023

2-Julien Deroni, Israël-Palestine le 7 octobre et après (1): un cadrage médiatique verrouillé, www.acrimed.org 12/2/2024

-Julien Deroni, Israël-Palestine le 7 octobre et après (2): doubles standards et compassions sélectives, www.acrimed.org, 22/2/2024

-Julien Deroni, Israël-Palestine le 7 octobre et après (3) : invisibilisation de Gaza et déshumanisation des Palestiniens, www.acrimed.org, 22 /2/ 2024

3 أكريماد، جمعية ذات مصلحة عامة تتولّى منذ منتصف التسعينات تحليل ونقد الطريقة التي تشتغل بها الميديا في فرنسا وهي تنشر منذ أكتوبر مجلة Médiacritiques التي تصدر كل ثلاثة أشهر.

4 Camille Pettineo, Avant l'attaque du Hamas, le conflit israélo-palestinien avait presque disparu des JT, https://larevuedesmedias.ina.fr, 25/11/2023

5-https://www.google.com/url?pjf=1&q=https://m.youtube.com/watch%3Fv%3De5WwkBARVPA&sa=U&sqi=2&ved=2ahUKEwiZ_-jqzseFAxUcxQIHHSVYDHcQwqsBegQIDhAF&usg=AOvVaw2WSexoGTodKwL10ViOi_rU

6-Marist/NPR/PBS News Hour - SSRS / CNN - Ipsos / Reuters

7-Nathaniel Rakich, what Americans think about the war Israël-Gaza, ABC News, 24/2/2024

8-Frédéric Arnould, La nuance journalistique américaine, l'autre victime de la guerre, https//:ici.radio.canada.ca, 23/10/2023

9-Adam Johson, Othman Ali, Coverage of Gaza war in The New York Times and other major newspapers heavily favored Israel, analysis shows, The Intercept (https://theintercept.com) 9/1/2024

10-William.L.Youmans, The Sunday talk shows on Gaza : a study in media bias, Arab Center Washington DC, 31/1/2024

11-Fleury Béatrice, Walter Jacques, Les médias et le conflit israélo -palestinien, Recherches textuelles, numéro 9, Université Paul Verlaine, Metz, 2008, 318 p

12-Natalie khazaal, Bias hiding in plain sight: Decades of analyses suggest US media skews anti-Palestinian, The Conversation (https//theconversation.com), 29/2/2024

13 أسامة عبد الله ، وسائل الإعلام والاتّصال الغربية من أبجديات الحرفية الصحفية إلى آلة لصناعة رأي مضلل، مجلة «الإذاعات العربية »، العدد الرابع لسنة 2023

14 Ahmed Ahmed Cheniki, Les médias, la mort lente du journalisme traditionnel, fr linkedin com (Algérie), 4/12/2023

15-Michel Bourdieu, Sur la Télévision, suivi de L'emprise du journalisme, RAISONS D'AGIR, 1996

16-Edward.S Herman and Noam Chomsky Manufacturing consent, The political economy of the mass media, Pantheon Books, 1988

17-Julia Cagé, Sauver les médias : Capitalisme, financement participatif et démocratie Seuil, 2015

18-Julia Cagé, Pour une télé libre contre Bolloré, Seuil 2022

19 لي ماكنتاير (Lee McIntyre)، ما بعد الحقيقة، (Post-Truth) ترجمة حجاج أبو جبر، نشر معنى (ص 104)

20 عبد الحفيظ الهرقام ، الإعلام السمعي والبصري العربي ومعضلة مخاطبة الآخر، مجلة «الإذاعات العربية» العدد الثاني لسنة 2021

غـزّة محرقـة العصـر
صمـود فلسطينـي أسطـوري بين توحّـش الاحتـلال ومـوت الضميـر الإنسـاني

آسـيا العتـروس(*)

تتجـه أنظـار العالـم ومنـذ أكثـر مـن نصـف عـام وتحديـدًا منـذ عمليـة طوفـان الأقصـى فـي السـابع مـن أكتوبـر 2023 إلـى قطـاع غـزّة، حيـث تسـتمر حـرب الإبـادة الجماعيـة التـي يقودهـا جيـش الاحتـلال الإسـرائيلي علـى مـرأى ومسـمع المجتمـع الدولـي العاجـز عـن إيقاف المجـزرة التـي لـم تسـتثن عائلـة أوبيتـا أو حيـا أومدينـة فلسـطينية فـي القطـاع، علـى وقـع تدميـر الاحتـلال كل مظاهـر الحيـاة واسـتهدافه المسـاكن والمستشـفيات والمـدارس والجامعـات والمتاحـف والمسـاجد، ولـم تسـلم حتـى مؤسّسـات الأمـم المتحـدة ومنهـا «الأونـروا» التـي تعـد شـريان الحيـاة لمليونـي سـاكن فـي غـزّة ..

إنّ مـا يسـجل اليـوم مـن عمليـات انتقاميـة جماعيـة فـي غـزّة يشـهد علـى رغبـة صهيونيـة جامحـة لقهـر وكسـر إرادة الشـعب الفلسـطيني الـذي يظل شـوكة لا تنكسـر في حلـق الاحتلال..

ولا شـك أنّ لغـة الأرقـام والإحصائيـات اليوميـة لأعـداد القتلـى والجرحـى والمفقوديـن والمشـردين فـي غـزّة التـي تحولـت إلـى مخبـر مفتـوح لـكل أنـواع السـلاح تفقـد كل معنـى أمـام توحـش آلـة البطـش الإسـرائيلية التـي وضعـت الشـعب الفلسـطيني فـي مواجهـة ظلـم مضاعـف بيـن جـور الاحتلال الجاثـم علـى الصـدور وخـذلان المجتمـع الدولـي ومؤسّسـاته السياسـية والقضائيـة ، التـي فقـدت مصداقيتهـا لينحصـر دورهـا فـي الحـرب الهمجيـة علـى غـزّة علـى إحصـاء سـجلات الضحايـا والمصابيـن و السـقوط نهائيـا فـي الاختبـار الأهـم نحـو إيقـاف العـدوان وإزالـة سـرطان الاحتـلال..

ولـو عجـل المجتمـع الدولـي وصنـاع القـرار فيـه بالتحـرك جديـا لإيقـاف مـا يجـري فـي غـزّة مـن إبـادة جماعيـة ومـن تجويـع و اغتصـاب وحـرق للأخضـر واليابـس لأمكـن إنقـاذ الكثيـر مـن الأرواح.

لقـد كشـف مـا يحـدث فـي غـزّة الكثيـر مـن الحقائـق وأسـقط كل الأقنعـة التـي يتسـتر خلفهـا صنـاع القـرار وأنصـار الحقـوق والحريـات، وأعلـن دون حيـاء قبـر الضميـر الإنسـاني الدولـي علـى وقـع مقصلـة الفيتـو الأمريكـي المتأهـب دومـا فـي رحـاب مجلـس الأمـن الدولـي لـوأد الحـق الفلسـطيني والمجاهـرة بمواصلـة تزويـد الحليـف الإسـرائيلي المتعطـش للـدم بمزيـد

(*) إعلامية.

السلاح والذخيرة التي تفتك بالمدنيّين العزل. والأهم من كل ذلك المضي قدما في توفير الحصانة المطلقة لهذا الكيان المارق ليواصل امتهان إنسانية الإنسان الفلسطيني والقفز على كل القوانين الدولية التي يدين لها الكيان الإسرائيلي بمنحه بطاقة وجوده من رحم الأمم المتحدة التي سيدوس على كل قراراتها..

كثيرة هي الأدلة والحجج التي لا تقبل التشكيك بشأن إفلاس الضمير الدولي الإنساني العاجز عن إيقاف آلة القتل الإسرائيلية الهمجية التي تهدد مليوني فلسطيني تحاصرهم الدبابات الإسرائيلية والمدرعات وتحرمهم حتى من الوصول إلى المساعدات الإنسانية، بما أجبرهم على أن يقتاتوا من الأعشاب والصبار وأن يعمدوا إلى أعلاف الحيوانات لصنع الخبز حتى لا يموتوا جوعا...

ولم تفلح كل النداءات وصرخات استغاثة الأطفال والأفواه الجائعة في ثني الاحتلال عن جرائمه، كما لم تفلح كل التقارير الدولية والحقوقية والتحذيرات المتواترة من مختلف المنظمات الإنسانية من أن غزّة تتجه إلى أسوإ كارثة إنسانية تسجل في تاريخ الإنسانية في تراجع الاحتلال أو تخفيف القيود على الأهالي بل على العكس من ذلك. فكلما ارتفعت الأصوات المنددة بجرائم الاحتلال إلا ولجأ الكيان الإسرائيلي إلى إظهار المزيد من التوحش والتمرد على العالم حتى بات واضحا أننا إزاء كيان سادي ينتشي بإخضاع الفلسطينيين لكل أنواع التعذيب النفسي والجسدي بهدف استكمال الفصل الأخير من النكبة واقتلاع من بقي من الفلسطينيين من أرضهم..

من بتر الأعضاء إلى بتر الأحلام.. هذا ما يصر على تحقيقه جيش الاحتلال الإسرائيلي في عدوانه على قطاع غزّة المستباح منذ أكثر من نصف عام، دون مؤشرات عن قرب انتهاء المحنة أو منع توسع رقعة الحرب وتحولها إلى حرب مدمرة في منطقة الشرق الأوسط، مع تزايد المخاوف من دخول إيران وإسرائيل نقطة اللاعودة بعد تبادل القصف بين الجانبين على خلفية استهداف إسرائيل القنصلية الإيرانية في العاصمة السورية دمشق وما تلاها من محاولة تحويل الأنظار عن جرائم الاحتلال في حق غزّة..

وسيكون من المهم وقد تجاوزت الحرب المفتوحة على غزّة المائتي يوم التوقف عند

مأساة أهل القطاع في مواجهة حملة الإبادة الجماعية التي تحدث تحت أنظار عالم لا يسمع ولا يرى ولا يبالي..

ولا نبالغ إذا توقعنا أن المجتمع الدولي وصناع القرار سيعودون بعد عقود للاعتراف بالفشل في التصدي للمحرقة المستمرة في غزّة، تماما كما يفعل اليوم وهو يذرف دموع التماسيح بعد ثلاثين عاما على الإبادة الجماعية في رواندا مردّدا أنه كان بالإمكان منع تلك المجازر في تسعينات القرن الماضي، وهو إن حصل لا ولن يمنح المجتمع الدولي صك البراءة أو يلغي مسؤوليته القانونية والإنسانية والأخلاقية إزاء هذه الجرائم ضد الإنسانية في الماضي أوالحاضر.

ولاشك أننا عندما نتوقف عند صرخات أطفال ونساء غزّة التي تخترق الأنقاض وتتحدى القصف المستمر ليلاً نهارًا لا يمكن أن نقف على الحياد، وسيتعين توقع الأسوإ عندما نتابع مشاهد المقابر الجماعية الصادمة التي يستمر إخراجها من تحت أنقاض ما بقي من المستشفيات واستخراج مئات الجثث المشوهة للمرضى الذين دفنوا أحياء أو الذين بترت أطرافهم أو تم سلخ جلدهم. والحقيقة أنه ليس فينا من لم تحركه استغاثات الأطفال الجائعين الذي ينشدون الشهادة معتقدين أنهم سيجدون الخبز في الجنة، ومن لم يهتز لنداءات المشردين الذين يتعرضون للقصف وهم يسعون للحصول على المساعدات الغذائية الإنسانية فتختلط دماؤهم بالرغيف الذي يدفعون ثمنه غاليا، أو صور الأطفال المنهكين الذين ينتظرون الموت بسبب الجوع، أو كذلك المستشفيات التي تتعرض للقصف ويحرم فيها المرضى من أجهزة الأوكسيجين وتخضع فيها النساء للعمليات القيصرية تماما كما يخضع فيها المصابون لعمليات بتر الأطراف دون تبنيج أو مهدئات.

صرخات تجتاح يوميا المواقع الاجتماعية وتخترق كل القيود وتحطم كل محاولات التعتيم على ما يحدث في غزّة وتتصدى للحرب الإعلامية الدعائية التي تشنها أقوى الفضائيات الإعلامية في الغرب. وستكون تلك الصرخات الإنسانية القادمة من غزّة أحد الأسلحة المتبقية لمواجهة الحرب الإعلامية وفضح الحملات الدعائية للإعلام الغربي الذي أسقط من حساباته أبجديات القيم المهنية والأخلاقية للرسالة الإعلامية ليبقى أسيرا للرواية الإسرائيلية واللوبيات الإسرائيلية المتنفذة لتزييف الحقائق وطمسها .

ومنذ الساعات الأولى للعدوان على غزّة ظل الإعلام الغربي ينظر بمنظار إسرائيلي للأحداث، فلا يرى معه ولا يسمع غير ما يصوره ويروجه كيان الاحتلال، بل تجاهل كليا أطوار مرافعات محكمة العدل الدولية في لاهاي في السادس والعشرين من جانفي الماضي وقاطع المرافعات القانونية التاريخية التي تدين جيش الاحتلال الإسرائيلي ..

وسيكون من المهم الإشارة إلى أن كل الأصوات والصرخات القادمة من غزّة عبر جنود الاعلام المرابطين هناك، أو عبر فيديوهات ورسائل للأطفال والنساء والأطباء ورجال الإسعاف كانت صرخات مدوية استطاعت تجاوز كل الحواجز والأسلاك التي وضعها الاحتلال وتمكنت من مخاطبة العالم وفضح فظاعة هذا الكيان وجرائمه العنصرية التي سيثبت التاريخ أنها تفوقت على ما اقترفه النازيون من جرائم إبادة ضد اليهود المضطهدين في أوروبا. ولكن المؤسف والأخطر أن يعود ضحايا الأمس وبعد سبعين عاما إلى تكرار نفس جرائم الإبادة الجماعية التي يدّعون أنهم كانوا يوما من ضحاياها، وستكون الجريمة هذه المرة في حق الشعب الفلسطيني الذي منحهم الأمان على أرضه ولكن مع اختلاف مهم،

ذلك أن جريمة العصر التي ترتكب في غزّة تحدث زمن التكنولوجيا الحديثة والإعلام البديل وهي تتم على مرأى ومسمع من العالم الذي يكتفي بالجلوس على الربوة وتقمص دور المتفرج الذي يرقى إلى الشريط الصامت في الجريمة التي يتابع أطوارها على المباشر لحظة بلحظة..وهي جرائم لا خلاف أنها ترتكب بقصد الإبادة الجماعية، ولو أننا حاولنا حصر كل التصريحات التحريضية للمسؤولين الإسرائيليين لتطلب ذلك إفراد مساحات واسعة للغرض .

ومع ذلك سيكون من المهم استعراض بعض تلك التصريحات على سبيل الذكر لا الحصر، ومن ذلك نذكر ما قاله «دختريم» وزير الزراعة الإسرائيلي من «أن الحملة العسكرية في غزّة تهدف لإجبار الفلسطينيين على الرحيل القسري» وأن ما تقوم به «إسرائيل الآن هو نكبة غزّة نكبة 2023»، أوما قاله أيضاً وزير التراث «إلياهو» من «أنه لا يوجد شيء اسمه مدنيون في غزّة»، وزاد «يواف غالانت» وزير الحرب الإسرائيلي على ما سبق بالقول «نقاتل حيوانات بشرية ونتصرف بناء على ذلك».

وزير الأمن الإسرائيلي «بن غفير» الذي كان واضحًا في تهديده بتجويع غزّة فقد قال «ما سيدخل غزّة في هذه الفترة مزيد من أطنان المتفجرات دون ذرة من المساعدات».. وسيبلغ الأمر بوزير الأمن الإسرائيلي درجة من الوقاحة والغطرسة بدعوته إلى إعدام الأسرى الفلسطينيين لتخفيف الأعباء عن السجون الإسرائيلية.. دون أن ننسى تباهي الرئيس الإسرائيلي «هرتزوغ» بتوقيعه على الصواريخ التي كان جيش الاحتلال يقصف بها أطفال غزّة ..

وقناعتنا أن ما نقلناه من صرخات قادمة من غزّة وهي نقطة من بحر مما يتعرض له أهالي القطاع، وهي صرخات يمكن أن تكون عنوانا «لموسوعة غزاوية» لم تدون بعد أو وثيقة إدانة تقدم يوما قد لا يكون بعيدا أمام العدالة الدولية، عندما تنتفض على الظلم وتعيد تثبيت ميزانها في الاتجاه الصحيح لتفضح كل من يتعلل بأن ما يتعرض له مليونا فلسطيني من إبادة، لم تصله..

والمؤلم فعلا أن المجتمع الدولي سينتظر طويلا ولن يستفيق إلا عندما يستهدف الاحتلال سبعة من مواطنيه من أعوان الإغاثة الإنسانية الذين وصلوا إلى غزّة في مهمة إنسانية فاستهدفتهم صواريخ الاحتلال وحولتهم إلى أشلاء، وستتواتر بعد ذلك الأصوات المنددة والمطالبة بالتحقيق في جريمة اغتيال أعوان الإغاثة المنتمين لمنظمة «المطبخ العالمي الأمريكي» ممن يحملون الجنسية البريطانية والاسترالية والبولونية والأمريكية في الثاني من أفريل 2024 ولم يحركهم قبل ذلك استهداف آلاف الفلسطينيين..لا خلاف أن اغتيال أعوان الإغاثة الأجانب جريمة صادمة اهتزت لوقعها حكومات الدول المعنية التي ستطالب بتحقيق مستقل وبمحاسبة القتلة.. وهو أمر لن يأتي رغم فظاعة المجزرة التي حركت الحكومات الغربية هذه المرة من واشنطن

إلى لندن وكانبيرا ودفعتها إلى تغيير حدة خطابها ولكن دون أي تغيير في سياساتها إزاء الاحتلال. وقد لا نكشف سرّا إذا اعتبرنا أن التغيير في الخطاب مرتبط بحسابات انتخابية وشيكة ومنها الانتخابات الرئاسية الأمريكية في نوفمبر القادم والتي يراهن عليها الرئيس بايدن، وأخرى مصيرية تنتظر الاتحاد الأوروبي في الصائفة القادمة، حيث تتحكم لعبة المصالح بين القوى الكبرى والفيتو الأمريكي في تحديد مصير الشعوب..

من فشل المجتمع الدولي إلى صحوة الرأي العام الدولي

ولعله يجب الإشارة إلى أنه مقابل فشل المجتمع الدولي وانكسار العدالة الدولية، فإن توحش الاحتلال أحدث حالة من الوعي لدى الشعوب وجعل غزّة تتصدر الاهتمام وتحظى بتعاطف الرأي العام الدولي بما في ذلك الدول الأكثر تطرفا في تأييد كيان الاحتلال ودعمه،و هذه نقطة الضوء الوحيدة في نهاية النفق حيث بات الرأي العام الدولي يشكك في السردية الإسرائيلية ويرفض ادعاءاته بعد أن أدرك أن شعار معاداة السامية بات مرادفا لمعاداة الإنسانية، كما دفع هذا الوعي المتزايد لدى الشعوب إلى صحوة غير مسبوقة بين النخب وإلى تواتر الانتقادات من داخل مؤسّسات صنع القرار في الدول الداعمة للاحتلال، وزاد توجه دافعي الضرائب للمطالبة بحظر الأسلحة عن حكومة «نتنياهو» الصهيونية في مزيد إحراج الغرب مع تحول كيان الاحتلال إلى عبء ثقيل على حلفائه الذين باتوا يعجزون عن تبرير جرائمه ضد الإنسانية واستخفافه بالقوانين..

هنا غزّة الصمود رغم كل الدمار..

لقد دأبت، منذ بداية الحرب على غزّة بعد عملية طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر الماضي، والتي يجب الاعتراف أنها هزت كيان الاحتلال ووجهت صفعة غير مسبوقة للاستخبارات الإسرائيلية لتطيح لاحقاً برئيسها، كما ستهز هيبة الاستخبارات الأمريكية التي ضربت في مصداقيتها وكشفت هشاشتها بعد تلك العملية المفاجئة.

لقد دأبتُ ومنذ بداية العدوان على غزّة على التواصل مع أصدقاء وزملاء صحفيين داخل القطاع كانوا حلقة وصل بيننا وبين ممثلي المنظمات الإنسانية ومديري المؤسّسات الطبية والجامعيين وبينهم صلاح عبد العاطي وسرحان جميل وأشرف القدوة وحاتم الشوا ومريم أبودقة وغيرهم حول تطورات الأوضاع من داخل غزّة التي كانت تتعقد يوما بعد يوم مع تكثيف كيان الاحتلال القصف العشوائي على مختلف مدن غزّة. وكان بين هؤلاء إعلاميون أبطال لم يتخلوا عن غزّة ورفضوا مغادرتها وبينهم الأستاذ الجامعي بجامعة غزّة محمد صالح العجلة الذي أصيبت ابنته، وهي صحفية أيضاً، في ساقها خلال القصف وانتظرت نحو ثلاثة أشهر لتنقل بعد جهد جهيد للعلاج في مصر، وكذلك الكاتبة الصحفية هداية شمعون ومراسل الجزيرة وائل الدحدوح الذي استهدفت عائلته في مناسبتين وفقد في قصف أول للاحتلال أربعة عشرة من أفراد عائلته بينهم زوجته واثنان

من أبنائه وأحد أحفاده، ثم استهدف مجددا في ابنه البكر حمزة الذي اغتاله الاحتلال مع زميله مصطفى ثريا أثناء قيامهما بمهمة صحفية ميدانية. ومن هنا دخلت كلمة وائل الدحدوح الشهيرة «روح الروح» قاموس النضال الفلسطيني.. وكذلك الصحفية ريهام الجعفري ممثلة منظمة «اكشن ايد ACTION AID في القدس وكانت تهتم بإصدار التقارير الإنسانية وتسلط الأضواء على معاناة نساء غزّة وأطفالها في هذه الحرب وغيرهم من الأسماء التي كنا نلجأ إليها لنقل المأساة في غزّة إلى العالم وفضح أطوار المجازر وتمزيق الصمت عن الاستهداف المتعمد لفرق الإسعاف والأطباء والمؤسّسات الطبية لمنع وصول الدواء والأوكسيجين وأجهزة التبنيج للمرضى..

وكثيراً ما شعر الأطباء بالإحباط وبكوا بحرقة وهم يقومون بإجراء العمليات الجراحية للمرضى ويقومون بعمليات بتر أطراف المصابين ويخضعون النساء لعمليات الولادة القيصرية دون تبنيج ودون مسكنات ودون أضواء كافية ما دفعهم إلى عقد ندوة صحفية بين جثث الموتى التي امتلأ بها مستشفى الشفاء..

ولطالما كان جيش الإعلاميين المحترفين، رجال ونساء المصدح في غزّة، وغيرهم من المواطنين المتطوعين، عين العالم على ما يجري في غزّة ولم ترهبهم المخاطر وواصلوا توثيق ما يحدث من خروقات وجرائم إبادة ومن هدم وتدمير، وكذبوا رواية الاحتلال الذي كان يسوق للعالم بأنه يتحرك دفاعا عن النفس وأزاحوا الغطاء عن الحقائق الخفية ما جعلهم هدفا للاحتلال الذي كان يعتقد أنه بذلك قادر على إخفاء الجريمة في غزّة..وبات واضحا أنه كلما تم قطع الكهرباء عن غزّة أن هناك مجزرة رهيبة يجري الإعداد لها وتنفيذها وهو ما حصل في مستشفى المعمداني ولاحقاً مستشفى الشفاء ومستشفى ناصر والمستشفى الاندونيسي.

والمؤسف فعلا أنه ومع امتداد الحرب لم يعد بالإمكان التواصل مع أصدقائنا ومصادرنا في غزّة مع تكرر تعمد قطع الكهرباء والانترنت وعزل القطاع عن العالم، وبات واضحا أن الإعلاميين كما الأطباء وأعوان الإغاثة والباحثين والجامعيين والشعراء وكل ما يمكن أن ينبض بالحياة في مرمى الاحتلال..

وبعيدا عن محاكمة النوايا يمكن القول إن الإعلام الغربي كان أسيرا للرواية الإسرائيلية في هذه الحرب إلى درجة مثيرة للاشمئزاز. فقد تخلى عن دوره المهني والموضوعي في نقل الأحداث وأسقط مبدأ الحياد في نقل الأحداث وبات يروج للمبررات الإسرائيلية ويدافع عنها دفاعا مستميتا باعتبار أن ما تقوم به إسرائيل دفاع عن النفس وتغييب جذور الصراع الحاصل والجريمة التي لا تسقط بالتقادم والذي لا يمكن إنكاره وهو الاحتلال الجاثم على الصدور منذ عقود طويلة ..وقد حثت صحيفة «نيويورك تايمز» صحفييها على تجنب استعمال عبارات مثل «الإبادة الجماعية» و«التطهير العرقي» و«الاراضي المحتلة» في متابعة ونقل أطوار العدوان على غزّة..

ولاشك أنّ في مرافعات محكمة العدل الدولية أمام العالم في ملفها الذي احتوى على ثمانين صفحة من وثائق الإدانة المرفوقة بالشهادات والفيدوهات والتصريحات التحريضية للقيادات الإسرائيلية، وما تضمنه التقرير الذي قدمته «فرانشيسكا البانيز» المقررة الخاصة بحالة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة أمام مجلس حقوق الإنسان بجنيف والذي وصف ما يجري في غزّة بالإبادة الجماعية ما يجعل

هذا الكيان في قفص الاتهام والملاحقة في المحاكم الدولية..

وفيما تقترب الحرب الهمجية من شهرها السابع، هناك أكثر من مائة وثلاثين ألف ضحية بين قتيل ومصاب دون اعتبار المفقودين، وقد تم اغتيال 138 صحفية وصحفيّ في غزّة على يد الاحتلال وهو رقم تجاوز عدد الصحفيين الذين قتلوا في الحربين العالميتين وفي حرب فيتنام. واستهدف الصحفيون في غزّة بطريقة لا تختلف في شيء عن اغتيال الصحفية الفلسطينية الأمريكية شيرين أبوعاقلة أمام مخيم جنين في الثالث عشر من ماي 2022 خلال أداء مهامها، بينهم صحفيون استهدفوا مع عائلاتهم وأبيدوا من السجلات المدنية ..

لقد مرت على غزّة حروب كثيرة، كانت فيها غزّة صامدة في مواجهة ظلم الاحتلال، ومعه خذلان العالم.. إلا أن ما يحدث في الحرب الراهنة يدفع إلى الاعتقاد بأن غزّة تتصدى منفردة لحرب إبادة جماعية تشترك فيها، إلى جانب جيش الاحتلال، أعتى وأقوى جيوش العالم بأحدث وأخطر أنواع السلاح والذخيرة بما في ذلك الأسلحة المحرمة دوليا ممّا يجعل الحياة مستحيلة في غزّة ..

كيف يواصل أهل غزّة الصمود؟ قد يستعصي على العالم، الذي اختار الفرجة، فهم سرّ هذا الصمود الأسطوري الذي جعل من الشعب الفلسطيني طائر الفينيق الذي كلما بدا وأنه سقط واندثر إلا وانتفض من رماده محلقا في سماء الحرية.. ما يحدث في غزّة أسطورة صمود لم تكتب بعد.. والأكيد أن ما بعد السابع من أكتوبر لن يكون كما قبله، والى أن يزول العدوان تبقى مسؤوليتنا أن نواصل توثيق وتدوين ما أمكن من الشهادات والوثائق عن جرائم الاحتلال التي لا تسقط بالتقادم.. وفي انتظار أن تتوحد الصفوف بين الإخوة الأعداء وتتحرر العقول من قيود الصراعات العربية

ويستعيد العالم صحوته ويضع حدا لامتداد قانون الغاب وهيمنة القوي على الضعيف، تبقى الحقيقة الوحيدة التي لا تقبل التشكيك أن هناك على أرض فلسطين شعب يرسم بدماء أبنائه أروع الملاحم النضالية هو شعب كان وسيبقى شعب الجبارين وهو بالتأكيد شعب استثنائي في دفاعه عن قضيته ولو كان قابلا للإبادة لكانوا أبادوه منذ أول نكبة مني بها..

من صبْرا وشتيـلا إلى غزّة: النّمطيـة والتّمايـز

الهـادي خليـل(*)

ماذا تغيّر في منظومة الصّورة، سواء تعلّق الأمر بشكلها وموضوعها أو بشخوصها وأشيائها، من مجازر صبْرا وشاتيلا في ضواحي بيروت، العاصمة اللّبنانية، في النّصف الثّاني من شهر سبتمبر عام 1982، إلى الإبادة الجماعيّة التيّ يتعرّض إليها الشّعب الفلسطيني حاليّا، على يد الجيش الإسرائيلي انطلاقاً من 07 أكتوبر 2023 ؟ هل القمع الوحشي وشناعات المُحتلّين والمستبدّين تفرز نفس النّمط من الصّور؟ أكانت هذه الصّور بإمضاء الجلّادين وأعوانهم أم بإمضاء الضّحايا والمتعاطفين معهم؟

لو كانت جودة الصّورة الفوتوغرافية ومدى وقعها على نفوس المشاهدين مرتبطين بهول المأساة التّي تمثّلها وبفيض المشاعر الإنسانيّة التي تثيرها، لأضحى التّلفزيون مزوّدنا الأمثل والحصري بمشاهد القتل والدّمار من فرط ما هوَ مترعٌ بالفظاعات المسترسلة التّي باتت«وجبتنا» المفضّلة في طقوسنا المنزليّة الاستهلاكية؟

إنّ الصّورة الفوتوغرافيّة وسيط ضروري وحَيَويّ لأنّه معها وبها يعلو صوت الفن وتتأكد جاذبيّة التّفصيل الحاسم، مخترقة المشهد العام وضاربة عرض الحائط الطّرق المعبّدة المعتادة.

(*) أستاذ اللغة والآداب الفرنسيّة بكليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة سوسة.

1 الصّورة الجمعيّة

يحلو للأجهزة الاستعماريّة القمعيّة التبجّح بهول شناعاتها عِبْرَةً لمن يَعْتَبِر، خاصّة عندما تستعين بعملائها لتنفيذ أعمالها القذرة. فلْتبقَ جثث القتلى مُلقاة في الشّوارع والحارات ولْتعمّ بركُ الدم كلّ الأماكن ولْيتمادَى العسكريّون والأمنيّون في الإجهاز على جرحى يصارعون الموت ولْيستعرض الجلاّدون صور الضّحايا الذين مزّقتهم المدافع أو نخرتهم الأسلحة البيضاء. أين الإشكال في ذلك خاصّة أنّ كلّ هؤلاء المعدومين ما هم، في نظر قاتليهم، سوى بشريّة دونيّة وجرثوميّة مآلها السّحق؟ للتخلّص من هذا الرّكام الهائل من الأموات، سَتَفِي الجرّافات والخنادق الجماعيّة بالحاجة وستمحو ما خُرّب ودُمّر. ولتطهير الأمكنة من العفونة التي بدأت تدبّ في أرجائها، ستتكفّل جرّارات الإسفلت وشتّى المُبيدات بالاضطلاع بهذه المهمّة. تقتضي كلّ مجزرة تُرتكب تغييرًا طوبوغرافيّا، جزئيا أو كلّيا، لمسرح الإدانة. إنّ الطّغاة هم مِعْمَارِيُّو هذه الأزمنة المأزومة، يُشيّدون البنايات أو يُحوّرون أماكن الجريمة على أنقاض جثث المستعمَرين المشرّدين. ذلك ما تجسّده مذبحة صبرا وشاتيلا التي اقترفتها ميليشيات «الكتائب» المسيحيّة، بدعم لوجيستي من الجيش الإسرائيلي، على امتداد ثلاث ليالٍ، انطلاقاً من فجر 16 سبتمبر 1982.

أ فَجاجة صور المأساة الجَماعيّة

مجزرة صبرا وشتيلا

إنّ مجزرة صبرا وشاتيلا مجزرة مروّعة لكنّها لم تفرز صورا لافتة، بما فيها الصّور الفوتوغرافيّة التي تضمّنها مصنّف آمنون كابليوك Amnon Kapeliouk (1930–2009)، الصّحفي والكاتب الفرنسي-الإسرائيلي والنّاشط السّياسي الحقوقي، الصّادر بفرنسا، بعد أسابيع من وقوع الجريمة، تحت عنوان «تحقيق عن مذبحة صبرا وشاتيلا»[1]. ويُرَدُّ هذا القصور إلى تشابه هذه الصّور وتناسخها وكأنّها مجرّد تنويع على مشهد واحد ألا وهو تراصّ الجثث في أزقّة المُخَيَّمَيْن الفِلَسْطِينِيَّيْن المُتَلاصِقَيْن وشوارعهما. الصّور النّادرة الوحيدة التي اشرأبّت لها العيون هي ربّما تلك الصّور التي تظهر، عبر تقنية عمق المجال (Profondeur de champ) الجثث التي تراكمت على طول الشّارع، أو تظهر عبر لقطة عامّة، الأهالي المصدومين

1 - Amnon Kapeliouk. *Enquête sur un massacre : Sabra et Chatila*. Éd. Du Seuil, Paris, 1982.

والمُلتاعين وهم يُحدّقون بتأثّر مُربِكٍ، في الجثث المتشابكة، أو تَظْهَرُ عبر لقطة متوسّطة قريبة بعض النّساء الفلسطينيّات وهنّ يحملن، بمناسبة إحياء ذكرى المجزرة، لافتات لصور المقتولين والمفقودين. بقي الأموات على حالهم لعدّة أيّام. هل أُوكلت عمليّة دفنهم إلى الضّحايا الأحياء؟ لكن من هو الشّعب اللاّجئ والمحاصر الذي بوسعه أن يقوم بدفن ما يفوق ثلاثة آلاف قتيل من أهاليه في سويعات معدودة؟ كيف التثبّت من هويّاتهم وقد التحم بعضهم بالبعض الآخر؟ ما يروق للقتلة هو منطق الإبادة الجماعيّة. هل كان بإمكان المصوّرين أن يفردوا حيّزاً لضحيّة واحدة ويميّزونها عن البقيّة؟

ب مَجْهَريّة التّمثيل الأدبي

إذا لم تتوفّر الصّورة التي ترُجّ الوجدان وتُذكّي الأوجاع عند مشاهدة مجزرة صبرا وشاتيلا، فإنّ الكتابة الأدبيّة، على خلافها، أجادت في المسك بمفاصل الدّراما التي تُجسّدها. لعلّ أفضل عمل أدبي يُعطي للجثث الفلسطينيّة تميّزها وكثافتها الدّلاليّة، في ضوء وِضْعَات الأجساد والأشكال التي آلت إليها، عند السّقوط، والألوان التي صَبَغَت بعض أَعضاء هذه الأجساد مع بداية تعفّنها تحت وطأة الشّمس الحارقة، هو نصّ «جان جونيه»، الرّوائي والمسرحي الفرنسي، بعنوان «**أربع ساعات في شاتيلا**»[2]، كتبه بين شهري سبتمبر وأكتوبر عام 1982، نصّ توقّفنا عنده طويلا في بحوث سابقة[3].

يعتبر «جونيه» أنّ الصّورة غير قادرة على النّفاذ إلى جوهر الموت وإلى مخلّفاته غير العينيّة، مثلما تدلّل عليه جثث الفلسطينيّين. يقول: «إنّ الفوتوغرافيا لا تُمسك بالذّباب ولا برائحة الموت البيضاء السّميكة. وهي لا تقول شيئا عن القفزات التي يجب القيام بها من جثّة إلى أخرى»[4]. يصف الكاتب الأجساد لا عبر أعضائها الظّاهرة، مثل الأعين والأيادي والسّاقين والبطون، بل عبر ثقوب الآذان والأفواه والأنوف التي غزاها الذّباب وتسلّلت إليها الحشرات. يقارب «جونيه» الجسد المغدور المدغور عند نقطة التّقاطع بين ما هو آدمي وحيواني. لا يكتفي برسم طوبوغرافيّة الجثث والتدقيق في علامتها، بل يدقّق أيضاً في الأشياء التي استلّقت عليها أو أحاطت بها. إنّ التّخريب الذي طال الأجساد طال الحجارة وقضبان الحديد وزجاج النّوافذ وأبواب المنازل أيضاً. أزيلت بشرة الأموات مثلما أُزِيلت واجهات المباني.

كان «جونيه» حاضرا في المُخَيَّمَين المُجَاورين غداة وقوع المجزرة. من رآه؟ من يتذكّره؟ في فلم وثائقي بعنوان «**جونيه في شاتيلا**»، أُنجز عام 1999، يقتفي مخرجه السويسري ريشار دندو، (Richard Dindo) المولود عام 1944، خُطى «جونيه» في صبرا وشاتيلا، مستجوبا كلّ من عرفه وخالطه. يستشهد المخرج، أثناء تحقيقه، بصورة فوتوغرافيّة لـ«جونيه» وهو بين مُرافقين له. إنّ الفلم أخّاذ ليس لأنّ صاحبه توفّق في اقتباس مقاطع من «أربع ساعات في شاتيلا» ومن كتاب «جونيه» الأخير «**أسير عاشق**» اقتباسا مبهرا فقط، بل لأنّه جعل من صورة الكاتب الفوتوغرافيّة التي يطّلع عليها البعض من أهالي المُخيّمَيْنِ نقطة الارتكاز الملغزة التي يتمحور حولها شريطه أيضاً. كان جونيه شاهدا على فظاعة المجزرة، لكن قلّما شاهده أحد من الفلسطينيّين الحاضرين على عين المكان، وكأنّه لم يوجد أصلا. هذا البحث في الحضور العابر الخاطف لمنشقّين ومتمرّدين كان لهم تأثير كبير، سواء في تاريخ الآداب أو في تاريخ الثّورات، هو هوس جلّ أعمال «دندو» السّينمائيّة مثلما

2 - Jean Genet. » *Quatre heures à Chatila* », op. cit., pp. 176-204.

3 - Hédi Khélil. *Jean Genet : Arabes, Noirs et Palestiniens dans son œuvre*. Éd. L'Harmattan, Paris, 2005, pp. 104-128.

4 - «*Quatre heures à Chatila*», op. cit., p. 178.

يبرزه شريطان رائعان، الأوّل سيرة حياة أرتور رنبو Arthur Rimbaud (1854–1891)، الشّاعر الفرنسي، أنجزه عام 1992، والثّاني بعنوان «أرنستو شي غيفارا»، يوميّات بوليفيا»، يعود تاريخ تصويره إلى عام 1994.

2 الصّورة الأيقونة

إنّ الصّورة الأيْقونة هي الصّورة الّتي تخترق الحواجز المكانية والزّمنية وتصبح، عبر العصور والأجيال، رمزًا أي «دلالة خاصة نابعة من داخلها دون أن تكون جزءا منها في الوقت نفسه»، كما تقول مارتين جولي (Martine Joly)، المنظّرة الفنيّة الفرنسية في كتابها «**مدخل إلى تحليل الصّورة**». وتضيف:»ونعني بذلك التأويل الّذي يتخطّى حدود الصّورة ويطلق الكلمات ويعبّر عن الفكر، أي ذلك الخطاب الباطني الذي ينطلق من الصّورة باعتبارها الدّعامة الأساسية له، ولكنّه ينفصل عنها في الآن نفسه». إنّ التّصميم المنسجم والمتناسق في معمار الصّورة هو رافد التّذوق الجمالي الرّئيسي لدى المشاهد وحافزه الحيوي في البحث عن شحنة الصّورة البلاغيّة وقدرتها الفائقة على بلوغ الكونيّة. كتب الرّسام والفنّان البلجيكي ديني مايارس (Denis Meyers)، في حديثه عن الأيقونات الثّقافيّة، على سبيل المثال، قائلا: «الأيقونات هي استعارة مَعلميّة تلعب دورًا أساسيّا في إنشاء المتَخَيَّل الاجتماعي والهويّة الجماعية والحفاظ عليها.»

أ مأساة شخصيّة

يتجسّد الطّابع الأيقوني في صورة فوتوغرافيّة فارقة وأخّاذة ولّدتها محرقة غزّة الشّاملة وهي صورة لامرأة فلسطينية تضمّ إليها كفنًا بتأثّر كبير، في مشرحة مستشفى: «ناصر» بـ«خان يونس» جنوب غزّة المدمّرة بأكملها. تدعى المرأة الملتاعة «إيناس أبو معمّر» (36 عاما) ومن تشدّه بإصرار وتتأسّف على رحيله وتبكيه بحرقة ملحوظة ما هي سوى ابنة أخيها «سالي» (5 سنوات) التي قتلتها غارة إسرائيلية يوم 17 أكتوبر 2023. التقط هذه الصّورة الفوتوغرافي الفلسطيني محمّد سالم الّذي يشتغل في وكالة «رويترز»، وهي صورة فازت بجائزة «أفضل صورة صحافيّة لعام 2024» من منظّمة «ولرد براس فوتو» (World Press Photo).

ليست المرّة الأولى، في تاريخ الفوتوغرافيا، تتصدّر المرأة مشهد المصائب والفواجع التي تصيب البشرية، سواء كانوا جماعات أو أفرادا. تنهض المرأة، في العديد من الصّور الفوتوغرافيّة أو التّشكيلية، القديمة والحديثة، بدور الكائن الذي يختزل ويكشف عذابات البشرية ومحنها، على غرار الصّورة الشّهيرة «أمّ مهاجرة» التي أنجزتها الفوتوغرافية دورتيا لانج (Dorthea Lange)، عام 1936، في ولاية من ولايات جنوب أمريكا خلال فترة الكساد التي سُمّيت بـ«السنوات المرّة» (années amères)، تعبيرا عن الأزمة المالية والاقتصادية الكارثيّة التي ضربت الولايات المتّحدة الأمريكيّة والعالم بصفة عامّة آنذاك، أو صورة الأمّ الجزائريّة المستندة إلى حائط المستشفى الخارجي وهي تبكي أولادها الذين قتلهم الإرهابيون، في شهر سبتمبر عام 1997 ببلدة «بن طلحة» في الضاحية الجنوبية للعاصمة الجزائر. وكلنا يعلم أنّ وجع المرأة، عند حدوث المآسي، وقع اختزاله في الثقافة المسيحيّة مثلاً، عبر تمثيل «الأمومة المعذّبة» وبالتّحديد عبر مشهد السيّدة مريم العذراء وهي تنتحب على يسوع، ابنها المقتول. لذا سمّيت صورة حسين التّي تتماثل مع أيقونة السّيدة العذراء بـ«مادونة بن طلحة». لكن في لقيا الفوتوغرافي الفلسطيني، ما يشحن الصّورة التي أخذها بطاقة تأثيريّة فائقة هي ميزات أخرى، إذ لا تستمدّ جماليتها من أمثولة عقائديّة راجت كثيراً في العصر الوسيط من خلال رسوم ونقوش خشبيّة بل تستمدّها من تصوّر خصوصي لذروة الألم وتعبيراته.

غزّة: صورة محمّد سالم الأخَاذة

ب خصائص جماليّة وتواصليّة

توالت أكفان الفلسطينيين البيضاء، طيلة الحرب على غزّة، أكفان الأطفال وأكفان النّساء والشّيوخ على حدّ السّواء. ليس صحيحاً أن الكفن هو الكفن مهما كان عمر المقتول أو جنسه. عندما يتعلّق الأمر بالأطفال، تتقمّص الأكفان أشكالاً وأحجاماً خصوصيّة. تبدو الجثّة المكفّنة ممتدّة على طول جسم الخالة الفلسطينيّة إيناس أبو معمّر، رأس الصّبية المقتولة تضمّه بيديها ووسط جسدها يرتكز على ركبتيها وأسفله يصل إلى قدميها. الجسدان ملتحمان والحياة والموت منصهران في عناق بصمة اليأس.

تدرك المرأة الفلسطينية أن حركة الاعتصار التي تقوم بها لإحياء دقّات النبض المقتول ونفخ الرّوح من جديد في جسد هامد هي حركة لا جدوى منها مطلقاً. الموت هو الموت وانتهى الأمر. لم تبق منحوتة في متخيّل المتلقي وفي إيقاظ الوشائج بين الأحياء والأموات سوى تلك الحركات التي يسمها العجز، مهما كانت حميميتها وحرارتها، على دحر الموت وإبطاله. والعنصر اللاّفت للانتباه في هذه الصّورة هو غياب ملامح الوجه الآدمي والاقتصار فقط على روعة الوِضْعة (la pose) وكمال الحركة وفاعليّة الثياب، سواء تعلّق الأمر بكفن الضّحية أو بمختلف ملابس إيناس أبو معمّر.

تتجسّد ذروة ألم النّساء الهائمات، المنكوبات، على إثر مقتل فرد من ذويهنّ أو فقدان شخص عزيز عليهنّ، عبر أسارير وجوههنّ وشتّى العبارات التّي ترتسم في عيونهنّ. هذا هو سرّ نفاذ صورة محمّد سالم وجذوة تألّقها: هي صورة لا تنتمي إلى جماليّة السّحنية (Esthétique de la visagéité) بل إلى جمالية الحركة (Esthétique de la gestuelle). فما نراه من المرأة الفلسطينيّة هو تلك «التّقريطة» الشوكولاطيّة التي تغطّي رأسها وتلك الانحناءة الشّاملة التي تحجب وجهها وتلك الأيادي التي تضمّ أعلى الرأس. ثمّة عنصر مؤثّر جدّا في هذه الصّورة: الرّباط المحكم في أعلى رأس الضّحيّة وكأنّه لم يبق من هيكل تلك الضّحيّة التي سُرقت منها طفولتها وأُعدمت وهي في مهد الحياة سوى ذلك اللّحاف الذي يغمر الجسد.

لا نحيب ولا عويل من قبل هذه المرأة في هذه اللّقطة وكأنّ الخالة تكوّمت على جلال لوعتها وحميميّة عناقها. نرى، في لقطة جانبيّة لهذه الصّورة، المرأة تبكي بمرارة، مثلما يتبيّن ذلك في وجهها. مازالت لم تَنْحَنِ بعد وتذوب في جسد «سالي» بنت أخيها. تعوّد المشاهدون، أثناء الحروب الأهليّة الطّاحنة، على غرار ما حدث في «نيكاراغوا» (Nicaragua) بأمريكا اللّاتينيّة،مثلا، في نهاية السّبعينات من القرن الماضي، مشاهدة نسوة، سواء كنّ أمّهات أو زوجات، وهنّ يغطّين جثث أبنائهنّ أو أزواجهنّ الملقاة على

قارعة الطّريق بألحفة بيضاء لا تكفي لتكفين الأموات. تبدو الأكفان، على عكس ذلك، في مستشفى «ناصر» بخان يونس، غزيرة، مترامية في كلّ مكان، وكأنّها أضحت مآل المدنيّين الفلسطينيّين الطّبيعي وعنوانهم المحتوم.

«الفلسطينيّـــون»، نـــصّ لـ"جـــان جونيـــه"

تعريب: الهادي خليل

يمثّل هذا المقال الذي يَحمِل عنوان «الفلسطينيّون» أوّل نصّ مهمّ لـ«جان جونيه» عن الفلسطينيّين. كَتب هذا النصّ عن عشر صور فوتوغرافيّة في باريس خلال الأيّام الأخيرة من شهر ماي 1971، بطلب من المصوّر الفرنسي-السّويسري برونو باربيه (Bruno Barbey) الذي كان قد التقى بالكاتب في نهاية سنة 1970 في مخيّم للاّجئين الفلسطينيّين بالأردن. تمّ نشر هذا النصّ بفضل الصّيت الكبير الذي كان يتمتّع به «جونيه»، في العدد الرّابع من مجلّة «**زووم**» (Zoom) الرّافهة المتخصّصة في الفوتوغرافيا، بتاريخ 4 أوت 1971. وقد أعيد نشره سنة 1991 في الجزء السّادس من أعمال «جان جونيه» الكاملة الذي يحمل عنوان «**العدوّ العلني**» (L'Ennemi déclaré).

كتب «جونيه» هذا النصّ بعد شهر تقريباً من عودته من الشّرق الأوسط حيث أقام في شهر أكتوبر عام 1970، بدعوة من محمود الهنشري، ممثّل منظّمة تحرير فلسطين بباريس. تابع برفقته، وبكثير من التّأثّر، خلال شهر سبتمبر 1970، الهجوم الدّموي الذي شنّه الجيش الأردني ضدّ المخيّمات والقواعد الفلسطينيّة، هجوم عُرف باسم «سبتمبر الأسود».

كان «جونيه» حذرًا من الصّور التي تُنشر عن الفلسطينيّين، خاصّة، وعن وجوه النّضال البارزة ضدّ الهيمنة الإمبرياليّة بصفة عامّة، في مجلاّت مرموقة وباذخة وهو العارف بألاعيب السّلطة الإعلاميّة الغربيّة وبالأوهام البرّاقة التي تُغَذّيها. لا تَعكس إذن تعاليقه عن الصّور الفوتوغرافيّة رؤيته للفلسطينيّين ولقضيّتهم ولمصيرهم فقط، بل تعكس اهتمامه بالتّمثيلات التي تُنجز عنهم أيضاً. نلاحظ، في مقاربته للصّورة الفوتوغرافيّة، هوسه بالتّوثيق التّاريخي وبضرورة العودة إلى فترات ماضية لفهم المظالم التي ارتُكبت في الزّمن الحاضر، مثلما تدلّل عليه الهوامش التي تؤطّر مقاله، أو بعض التّوضيحات التي تتخلّل مَتنه. غير أنّ «جونيه» في ضوء هذا الهاجس التّوثيقي، لا يُغَيّب الصّورة ولا يستعملها كمجرّد مطيّة، بل يضيؤها ويعتمدها بمثابة الدّليل الضّروريّ، سواء لتأكيد فكرة ما، أو لِدَحْضِ مَجَازٍ شائع، أو للإدلاء ببعض الاستنتاجات عن مستقبل الثّورة الفلسطينيّة، أو بملاحظات عن فكّ النّساء الفلسطينيّات للحصار الذي كان مضروبا عليهنّ. وما دعّم أهميّة هذا النصّ «الفلسطينيّون» هو أنّه يشتمل على كلّ العناصر السّرديّة والفكريّة والذّاتيّة التي ستكون حجر الأساس لكتابه

الختامي، «**أسير عاشق**». قمنا لهذه الأسباب وغيرها من الأسباب، بنقله إلى العربيّة.

«الفلسطينيّون»

[1] للصّورة وظيفتان اثنتان كما نعلم، فهي تكشف وتُخفي في آن معًا. تُحيل هذه الصّورة إلى عسكريّ مسلّح، ولكن لماذا؟ ثمّ لِمَ كلّ هذه الأسلحة؟ ولِمَ كلّ هذه الصّور الفوتوغرافيّة التي تُبرز لنا فلسطين المحاربة والمنهوكة؟

لقد مكّنتنا ألفا سنة من الإهانة من فهم العوامل أو الآليّات النفسيّة وطرق استعمالها عن بعد. فبعد أن قضّى اليهود أَلْفَي سنة في عزلة المخيّمات أو متستّرين بهويّات مدنيّة مزيّفة، وقع تهديدهم بالتّصفية الكاملة وأصبحوا اليوم يدركون خِدَعَ من كانوا أسيادا بالأمس. أمّا بالنّسبة إلى الكنيسة الكاثُوليكيّة، فإنّ موقفها اللاّهوتيّ أو الشّيطاني من اليهود كان في واقع الأمر نفاقا ومساومة إنجيليّة وتهديدا. ذلك ما كان مُنْتَظرًا. إنّ دفع ضريبة القهر يَكْمُنُ في معرفة الأقوياء. وهكذا وقع محو أَلْفَيْ سنة من التشرّد ودحض الخرافة المشينة للجُبّنِ الجسدي.

إنّ اليهود لا يريدون الانقراض ولا «الاندماج». سيكون إذن للأمّة اليهوديّة أرضها. لكن أين؟ ربّما فيما تبقّى من أرض قابلة للاستعمار. فلنبحث: وقع التّفكير في أوغندا والأرجنتين وروسيا لكن هرتزل[1] تمسّك بمشروع العودة إلى «الأرض الموعودة». وإذا كان الرّومان قد طَرَدُوا اليهود، حسب ما يقوله مؤرّخ غبيّ تُدرّس تعاليمه للأطفال، فإنّ العرب سيدفعون الثّمن. لئن صمدت فلسطين بوصفها بلدا فلاحيّا فقّرته الإدارة العثمانيّة أمام عمليّات تسلّل اليهود، فقد خُدعت في النّهاية واحتُلّت من قبل البريطانيّين المتحالفين مع الحركات الصّهيونيّة النّاشئة.

يجب أن نشير أنّه قبل ذلك، وخصوصا ما بين 1880 و1940، في أوروبّا المسيحيّة أو اللاّئيكيّة، انتقلت الحركة السّاميّة من حركات تصفية مُتَواضِعة مثل البوغروم (Pogroms) إلى حركات أدّت إلى جرائم أكثر شناعة مثل داشو (Dachau) وأوشفيتز (Auschwitz).

في نفس الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتوعّد اليهود وتَقْتلهم، كان اليهود النّاجون من

---

1 – تيودور هرتزل (Theodor Herzl) هو صحفي نمساوي (1860–1904) ومؤلّف كتاب الدّولة اليهوديّة، مقاربة عن حلّ حديث للمشكلة اليهوديّة(L'État Juif, essai d'une solution moderne du problème juif).وهو يُعتبر المؤسّس الفعلي للحركة الصّهيونيّة التي التأم أوّل مؤتمرها تحت إشرافه بمدينة «بال» (Bâle) السويسريّة سنة 1897. كان هرتزل متردّدا كثيراً في التّحديد الدّقيق للمكان الذي يجب فيه إنشاء الدّولة اليهوديّة، مقترحا كحلّ ظرفيّ، بإيعاز من بريطانيا، توطين اليهود بأوغندا.

ادّعى «هرتزل» في كتابه كما في تقاريره أنّ فلسطين لم تكن آهلة بالسكان. تعوّد المُستَعمِرون أن لا يروا المُستعمَرين. ستشمل المجازر إذن أطيافا، أي أشخاصا ليس لهم أيّ وجود. قام الفرنسيّون بنفس الشّيء في مستعمراتهم: هم قادرون في يوم واحد أن يقتلوا خمسمائة من السُّود، لكن أيُّ شيء قد يعنيه ذلك بالنّسبة إليهم؟

المحرقة يتوعّدون العرب ويقتّلونهم بدعم من الجنود البريطانيّين الذين يرغبون في محطّة مضمونة في الشّرق الأوسط تحمي طريقهم إلى الهند. عَمد اليهود إذن إلى الاحتقار والقمع وانتزاع الأراضي الفلاحيّة. كان اليهود الإرهابيّون يُرَوّعُون العرب ويقتّلونهم دون أن يثير ذلك أيّ ردّة فعل أوروبّية. لم يكن ذلك غريبا، فَفرنسا تروّع بدورها وتقتّل سكّان شمال إفريقيا ومدغشقر والهند الصّينيّة وإفريقيا السّوداء، وتَعمد إنجلترا إلى نفس الممارسات في مناطق أخرى، وعلى شاكلتها كانت هولندا في أندونيسا وألمانيا في الطّوغو وإيطاليا في أثيوبيا وإسبانيا في المغرب والبرتغال في الأماكن التي نعرفها. خلاصة القول: إذا كان الصَّهَاينة مذنبين، فإنّ الصّهيونيّة هي الذّنب الذي اقترفته أوروبّا. لمّا أُجْبِرت أوروبّا على إيجاد بديل للاستعمار الذي أضحى كلاسيكيّا مثل الفنّ الكلاسيكي تماماً، توصّلت إسرائيل إلى الإفلات ببراعة من الحماية البريطانيّة لتَنْدَسّ بحنكة في ثنايا الحماية الأمريكيّة.

حمل الفلسطينيّون الأسلحة لاسترجاع الأرض التي طُردوا منها. لكنّ فلسطين أصبحت تحمل اسم إسرائيل، رغم كون فلسطين هي فلسطين. ما زال الفلسطينيّون أحياء يُرزقون ولسوف يستردّون وطنهم، لكن بعد عناء طويل سيجبرهم على إحداث الثّورة في كامل الوطن العربي أو المساهمة في إشعالها.

ما لن يقوله الفدائي الذي نراه في الصّورة هو إدراكه المؤكّد أنّه لن يشهد نهاية هذه الثّورة وأنّ انتصاره يكمُنُ في كونه ساهم في اندلاعها، ولعلّه يجهل أنّ صورته تصل اليوم إليكم رغم الحواجز التي تقيمها الصّهيونيّة. أمّا إسرائيل التي وقع تصوّر مشروعها في أواخر القرن التّاسع عشر باعتبارها مَحْميّة لليهود، فكان يجب أن تقوم وأن تبقى في هذا الجزء من آسيا تجسيمًا لأخطر تهديد إمبريالي غربي.

[2] هل هو جاسوس؟ ربّما. لكنّ الصّورة تحيلنا بقوّة دامغة إلى الملك حسين عاهل الأردن وهو يصدر أمره بتدمير عمّان. إنّ «نيرون» جميل جدّا وبعيد جدّا، وعظيم جدّا إلى حدّ لا يُطاق. لم يشهد التّاريخ إلاّ مثالا واحدا لحاكم أمر بتدمير عاصمته هو نيرون (Néron). برز بعد نيرون، وبالقرب منّا، تيار (Thiers) في فرنسا، الذي يشبهه الملك الهاشمي في قامته وحجمه. وقعت، خلال الأسبوع الدّامي الذي شهدته عمّان في شهر أوت 1970، إبادة ما بين اثني عشر وخمسة عشر ألف فلسطيني حرقا، رجالا ونساءً على حدّ السّواء. انتهزت أمريكا فرصة ارتباك الفلسطينيّين لتسليح الحكومة الأردنيّة عبر جسر جوّي يربط قبرص بعمّان شريطة ألاّ توجّه تلك «الهِبَة» أبدا ضدّ إسرائيل. إنّ حسين هو بورجوازي صغير يدافع عن مستحوذي اليوم مثلما كان يفعل تيار (Thiers) بالأمس.

ستبقى دولة إسرائيل وصمة عار على جبين المسلمين. لقد أدرك كلّ فلسطيني وكلّ عربيّ

أنّه وقع تحت وطأة الجوسسة الإسرائيليّة بعد الكشف عن «إيلي كوهان»[2] وإعدامه.

قامت مصالح المخابرات الفلسطينيّة بتنظيم صفوفها. كان بالإمكان، في تلك الأثناء، عام 1970، أن نلتقي في القواعد العسكريّة أمام نهر الأردن ببعض الشبّان وشعورهم الطّويلة تتدلّى على أكتافهم، وهم يمزحون باللّغة العبريّة وينتظرون كبقيّة الفدائيّين الآخرين إعلان راديو دمشق عن الإفطار. ما كنّا نعرفه عنهم هو أنّهم أيضاً جنود إسرائيليّون كلّهم مهدّدون على كلتا ضِفَّتَيْ نهر الأردن. يصعب على هذا المستوى من التّشابه مع الأنموذج الإسرائيلي تحديد الشقّ الذي ينتمون إليه، خاصّة أنّهم كانوا يأكلون ويصلّون مثل كلّ عربيّ وربّما مثل كلّ يهودي في تل أبيب، لتكون نهايتهم جميعا بين ألسنة اللّهيب.

2 – إيلي كوهان (Elie Cohen) هو جاسوس إسرائيلي احتلّ مركزًا مرموقاً في الإدارة السّوريّة قبل إيقافه وشنقه من قبل السّوريّين سنة 1965. كان قد قدّم معلومات قيّمة لسلطات بلده تخصّ مرتفعات الجولان وأجهزتها الدّفاعيّة.

[3] هو الموت من جديد نراه على هذه الصّورة في العيون بقدر ما نراه في الكفن. نرى، على غرار بقيّة الصّور، أسلحة روسيّة وتشيكيّة وصينيّة. أمّا إذا كانت قد سُرقت من الجيش الأردني فهي إمّا أمريكيّة أو إنجليزيّة. الأمر واضح بالنّسبة إلى الفلسطينيّن، فالعدوّ وإن كان واحدا فهو ذو وجهين: الاستعمار الإسرائيلي والأنظمة العربيّة الرّجعيّة.

ما عساه أن يكون هذا الميّت المكفّن؟ ثمّة في القواعد بين الفدائيين والمسؤولين مسحة من زمالة المحاربين لا يمكن أن نطلق عليها اسم «الاشتراكيّة» بعد، وإنّما هي نوع جديد من الأخوّة التي يعيشونها يوميّا. لا يتّسم هؤلاء الفدائيّون بأيّ نوع من الخشونة، بل ما يَعُمُّ في قواعد الأردن والجولان هو نوع من الرقّة التلقائيّة لم ألمَسها في أيّ مكان آخر. كان من المفروض أن تجعلهم الأنشطة التي يتعاطونها أكثر توتّرا وأن تجعل المسؤولين أكثر جفوة. لعلّهم اكتسبوا هذا السلوك بفضل رؤية واضحة وثقافة جديدة. لقد تخلّصوا من ضرورة الإحساس بالفحولة التي تجعل اليوم كهلا في الأربعين أو الخمسين محلّ ازدراء. فهم لا يحتاجون إلى نظرات حالمة ولا إلى شوارب سوداء طويلة. كان يُشفي احتياجهم ربّما الحضور المكثّف للأسلحة النّاريّة التي استُعملت مراراً. قد يولد إنسان جديد في الشّرق الأوسط يبشّر به الفدائيّ في البعض من جوانبه.

ما كان يحدث في جبال جرش المشجّرة يشبه بعض الشّيء ما شَهدَته باريس في ماي 1968، مع اختلاف هام يتمثّل في أنّ الفدائيّين كانوا مسلّحين. ومثلما حدث في باريس في بعض الأيّام، كان يسود القواعد والطّرقات والمسالك التي تربط بينها حبور يضاهي النّشوة.

كانت الحريّة هناك: غياب شبه تامّ للضّغوطات. فالكلّ يفعل ويقول ما يشاء، لكن بوداعة حذرة تُبطل كلّ إيذاء. كان كلّ

إنسان يدرك أنّه يدخل بَلَدَ الصّداقة كلّما تجاوز مراكز المراقبة بشمال عمّان ويشعر عند الوصول إلى مركز الفدائيّين في مدخل الغابة أنّه «أكثر من أخ». كنّا نعيش حفلاً رائقاً أقرب إلى الحلم في غمرة هذه الثّقة الطّبيعيّة وهذا الحياء، إذ أنّ اقتسام الخبز والشّاي والسّجائر في قواعد التّدريب كان يوحي بعالم موشّح بالاشتراكيّة. من كانوا هناك في الواقع الأمر، تحت الشّجر بمحض صدفة مباركة، هم شبّان في حِلٍّ من تهديدات العدوّ وأوامر المسؤولين وأيضاً من ضغوطات المعارك. حَضَر الحديث والنّوم والأكل والتّدخين تحت النّجوم التي كانت شريكا في هذا الاحتفال اللّهويّ ضدّ الجنود الأردنيّين وحركيّة الجنود الإسرائيليّين العنيدة. كانت لا مبالاة جميلة ومَرِحَة.

شرع الجيش الأردني اليوم السّابع والعشرين من ماي 1971 في مهاجمة القواعد لأنّ حكومة الملك حسين تريد سحق الثّورة، ولكن وقع إعداد خطّة جديدة على القواعد.

[4] كانت الآلة الفوتوغرافيّة، سواء في المخيّمات أو في القواعد العسكريّة، تُحْرِجُ الفدائيّين أثناء التّدريب. كانت تمريناتهم فعليّة إلاّ أنّ هفوة ما لا تسبّب الموت هنا تحت عين المصوّر حتّى لو كان المدرّب يستعمل الذّخيرة الحيّة. يكرّر الفدائيّون الزّحف مرّات عديدة وهم واثقون من إعادة نفس العمليّة، في اللّيلة المقبلة، كما لو كانت للمرّة الأولى أو ربّما الأخيرة، تحت الأسلاك الإسرائيليّة الشّائكة وفي وَحَلٍ من المحتمل أن يكون مُلَغّمًا. تكفي هفوة بسيطة أو حركة خاطئة لإضرام نار ولهيب وحديد، أي الموت.

النّساء الفلسطينيات جميلات جمالاً لا نظير له. هنّ مستقلاّت عن الرّجال. يُحسِنّ الطبخ والخياطة واستعمال البندقيّة ومطالعة كتب «مَاو» (Mao-Tsé Toung). كنّ هنّ الأوائل اللّواتي تجاوزن آثار التّدمير النّفسي والمادّي بعد الجرائم التي ارتكبتها عمّان. أمّا النّساء البورجوازيّات، فيظهرن هنا، كما في كلّ مكان، متحرّرات وثرثارات، مُرصّعات بالخواتم التي تُثقل أصابعهنّ. فلنستحضر في أذهاننا رئيسات بعض الجمعيّات أو المنظّمات بعمّان أو بيروت وهنّ يلازمن الصّالونات ويلعبن الورق رغم أنّه لم يعد لديهنّ حتّى القوّة على قطع الورق. تقف، في مُقَابلِهِنّ، نساء الشّعب الفلسطيني بين الأنقاض، وهنّ يتنبّأن بمصير عمّان، أو يتحدّثن عمّا آلت إليه أوضاع المملكة حاليّا والعائلة الهاشميّة. إنّ أقوال نساء الشّعب الفلسطيني مدمّرة لأنّها تَصدحُ بالحقيقة. كانت النّساء، في شهر فيفري من سنة 1971، في الواجهة أمام الدبّابات الأردنيّة التي هاجمت مخيّم العَقَبة، فتراجع الجنود الملكيّون خائفين. أجبرت النّساء الفلسطينيّات، في ذلك اليوم، ثلاث صفوف من الدّبّابات التي كانت تحاصر العقبة، على التّراجع إلى عمّان. كانت معركة الكرامة[3] انتصاراً فلسطينيّا على حساب إسرائيل. أمّا واقعة العقبة في شهر فيفري، فهي انتصار فلسطينيّ آخر على حساب الهاشميّين.

عندما نتحدّث عن الاشتراكيّة، ماذا تعني هذه الكلمة؟ لا أحد يتصوّر ما ستؤول إليه الأمور. تُنسَب الاشتراكيّة إلى الصّين أحياناً وإلى فياتنام الشّماليّة وحتّى إلى الاتّحاد السّوفياتي أحياناً أخرى. ستكون الاشتراكيّة

3 – وقعت معركة «الكرامة» التي تحمل اسم مدينة حدوديّة أردنيّة يوم 21 مارس 1968. وقد تَوَّجَت هذه الواقعة نجاعة المقاومة الفلسطينيّة – الأردنيّة ضدّ الاحتلال الإسرائيلي.

هنا اشتراكيّة من صنف جديد. ستحتلّ المرأة التي فرضت حضورها بصفة فجئيّة وربّما استعراضيّة، دوراً مهمّا، خصوصًا أنّها أُجْبِرت، في العالم الإسلامي، على المكوث في الخفاء مدّة طويلة.

[5] عندما تستعيد الدّوريّة بعض مرونتها، يسير كلّ محارب حسب إرادته. تتغيّر عندئذ الدّوريّة: بمعنى أنّ كلّ فدائي كان يرتجل كلمات ولحناً يردّده معه الآخرون في شكل أنشودة هي بمثابة التعويذة. أمّا الكلمات، فيقع استنباطها حسب المخيّلة السّائدة في هذه الحرب. تُصاغ الموسيقى انطلاقا من ألحان عربيّة قديمة يُحافَظُ فيها على نبرة الحنجرة وارتجَاجها. تتوفّر السّخرية والدّعابة في اللّحن وفي الكلمات وفي نسيم الصّباح. لا تدرك الإذاعات الخفيّة هذه السّعادة لأنّها تذيع الموسيقى العسكريّة التي يَنْتَشي بها الاستعماريّون. لقد تشكّل عند الفلسطينيّين نوعان من الموسيقى في نفس الوقت: الأولى نُسِخَت عن الغرب والثّانية تلقائيّة وشعبيّة ومبتكرة، ومع ذلك فهي في قطيعة مع التّقاليد المصطنعة.

إنّ تعقّد الفعل الشّعري في خضمّ الثّورة وخارجها لا يسمح هنا بأَنْ نُحَلّل ولا بأن نفسّر هذه الظّاهرة. لِيَكُن في عِلمنا أنّ الثّورة الثّقافيّة، مثل الثّورة السّياسيّة، صعب تحقيقها. لنتحدّث من جديد عن الموسيقى: ما من شكّ أنّ بثّ الجوقات الحربية والمتفاخرة بالانتصارات التي تذكّرنا بعروض المستعمِرين الموسيقيّة، قبل الأخبار اليوميّة وبعدها، لم تعد تتماشى وحرب العصابات. ولن يكون تأثيرها في مستمعيها إلاّ تأثيرا عسكريّا وِفْقَ ما تُمليه الحرب في معناها التّقليدي لا حربا أكثر رشاقة وسرعة. إنّ هذه الموسيقى الهابطة التي لا تعبّر إلاّ عن بطولات تافهة لا تدعو إلى أفعال حقيقيّة، بل إلى أعمال جوفاء. تُغْرِقُ السّامع هذه الجوقات العسكريّة التي تُؤَلّفها عصابة الجيوش الاستعماريّة من فرنسيّة وإنجليزيّة وأمريكيّة في عادات شوفينيّة. يجب أن لا ننوّه، في النّهاية، بالضّحالة الفنيّة لمثل هذه الموسيقى، بل يجب أن تموت الجوقة مع موت الجيوش الاستعماريّة. من الفظيع أن يُذاع فنّ سخيف مثل هذا وأن يُجهض ميلاد بحثٍ موسيقيّ ثوريّ.

يستطيع ربّما كلّ واحد منّا من خلال فنّ شعري مسخّر لمدّ تضامني قويّ أن يحافظ على جوهره ويطوّر حسّه حيث يكتشف أشكالاً وقيمًا جديدة. لكنّه سيكون أمراً ساذجًا لو اعتقدنا أنّ الأفكار والأعمال المشتركة تكفي وحدها لإعادة بناء العالم. هذا العمل ضروري بلا شكّ، غير أنّ الإنسان يحتاج أيضاً إلى ما يمكنه اكتشافه في طاقته الفرديّة. ويدرك كلّ فدائيّ هذا الأمر بعد دوريّة المراقبة التي يقوم بها وهو يَبْتَدِع لحنا على نمط ما زال تقليديّا ولكنّه مَكْسُور، أي خارج النّمط العادي. من يصنع الثّقافة الموسيقيّة الحقيقيّة، وهي من أصل شعبي أساسا، هو الفدائي الذي يؤدّي أناشيد يَنْكَحُ فيها، حسب نفس الرجّة الذّكوريّة، غولدا ماير (Golda Meïr) والملك حسين.

[6] لقد كُتب الكثير عن السّلاح بوصفه امتدادا أو معوّضا للقضيب. تتجسّد هذه القولة جليّا في هذه الصّورة. عندما ندرك الرجّة القويّة التي تحدثها البندقيّة وضغطها على فتحة سروال المحارب المتمدّد والمقنّع، فإنّنا ربّما نحطاط ونحتار، لكنّ بريق عينيّ الفدائيّ يطمئننا، وسُخريتهما تبيّن لنا أنّ ذلك مجرّد لعبة مسرحيّة ضروريّة لراحة المحارب. فالفدائيّون يُحْسِنُونَ اللّعب والمُزاح. كان بعض المسؤولين، على إحدى القواعد القريبة من مدينة الصلت (Salt)، قد مَنَعُوا لعب الورق، كما هو الحال بالنّسبة إلى كلّ القواعد. دَعَاني الجنود، رغم ذلك، لمشاهدة لعبة «البوكير» (Poker). رأيت اللاّعِبَيْن والأَيَادي في شكل مروحة ورأيت النّظرات الحذرة والغشّ وتعداد النّقاط وسمعت السبّ والسخرية ورأيت المتفرّجين مُنتبهين إلى لعِبهما وخداعِهما وخِشْيَتهما وسمعت تشجيعاتهم. شاهدت أيضاً انبهارهم كلّما سحب أحد اللاّعبَيْن مَلِكًا أو آسًا: الأوراق غير موجودة ولعبها ممنوع. ما يحدث في الصّورة شيء من هذا القبيل. لقد بالغوا في تشبيه القضيب بالسّلاح وفي جعل الواحد منهما رمزا للآخر إلى حدّ أنّه اتّضح لي أنّ الفدائي المقنّع يرفع كلّ التباس بفضل رَخَاوته إذ أنّه يدخّن ويميل إلى السّخرية. فهو حريص على اختيار الوضعيّة المناسبة لسلاحه. هذه الصورة، في نهاية الأمر، عفيفة جدّا. لكنّ السّلاح دوما مصوّب نحو هدف ما. فلو انطلقت الطّلقة، فمن سَيُقتل؟ وربّما السّلاح لا ذخيرة فيه؟ وربّما تكون حَجَرِيّة السّلاح خاوية؟

[7] ماذا يقول الفدائيّون وكيف يقولونه؟ إنّهم تخلّوا عن تفاخر الجنود التّقليديّين وقلّما تحدّثوا عن بطولاتهم. لقد تخلّص خطابهم من كلّ زخرف ومن كلّ تشدّق مجامل. إنّهم يمتازون بالدقّة والوضوح، فهم يَصِفُونَ ويُحلّلون الأحاديث بصرامة ويتكلّمون باعتدال وعلى قدم المساواة مع المسؤولين، إذ أنّ كلّ واحد منهم يدرك أنّه مسؤول هو أيضاً. فالذي يحنقُ في هذا الوضع كثيراً، إمّا المسؤول وإمّا الفدائي البسيط، حسب الظّروف والأمزجة. هم واعون بأنّهم عرب يريدون أن يكونوا فلسطينيّين. طالما عاشوا مغمورين دون أيّ خصوصيّة في محيط العالم العربي الغامض، لكن تغيّر كلّ شيء عندما ظهر تهديد الصهيونيّة لهم، فاكتشفوا أنّ لهم وطنا فلسطينيّا.

لقد أحدث وعد «بلفور» سنة 1917، رغم لَبسه، صدمة لشعب ما زال ينهض من وطأة الاستعمار العثماني. استعاد الشّعب الفلسطيني أنفاسه لكنّ المعتقدات الدّينيّة كبّلته. استقرّت إسرائيل بِعَونٍ من الأمم الأوروبيّة وبواسطة إرهاب الإيرغون[4] الذي أصبح يسمّى رسميّا شجاعة وتضحية. لم يفكّر الفلسطينيّون المقموعون أو المطرودون في بادئ الأمر إلاّ في تحرير أرض صَنعوا فيها تاريخهم. تحوّلت محاولات التّحرير بالنّسبة إليهم، في النّهاية، وفق لُعبة الموازين، إلى مفهوم للثّورة الاجتماعيّة بعد أن وقع تجاوز فكرة استرجاع الوطن، ولو ظرفيّا. لئن بقيت إسرائيل هي العدوّ المباشر، فإنّ أمريكا هي العدوّ المطلق. توجد أمريكا في الرّياض وفي عمّان وفي الكويت وفي تونس وفي الرّباط. فهي في قلب الإسلام التّقليدي مثلما هي

4 – الإيرغون (Irgoun) منظّمة إرهابيّة متطرّفة أُحدثت سنة 1935 وساهمت بصفة نشيطة في عمليّات هجرة اليهود غير الشّرعيّة إلى فلسطين. وقد وقع حلّها بعد قيام دولة إسرائيل سنة 1948.

في البرازيل وكولومبيا وتايلاندا وكمبوديا وجنوب الفياتنام وفي أوروبّا كلّها. هذا ما كان يقوله الفلسطينيّون وهم يشربون الشّاي. كانوا يتحدّثون بكلّ وضوح عمّا يجري في إيريتريا وظُفَار وكانوا يستمعون للمذياع. لقد تأكّدوا أنّ نفطًا كثيراً يتدفّق في عروق سادة العرب.

ما إن وَعَى الشّعب الفلسطيني بخصوصيّته حتّى توجّب عليه إحداث نوع من الفراغ شبه الخفيّ يفصله عن بقيّة العالم العربي. لقد كان هذا الشّعب كوكبا يتشكّل وسط هذا السّديم. وهكذا وَصَلْنَا دون مشقّة إلى تشبيه الشّعب الفلسطيني بكتلة من المادّة في حالة ذوبان تعزل نفسها، بفضل دورانها حول نفسها، عن كدس من الغبار العربي، ولو عزلا طفيفا. هذا التّشبيه ليس غريبا بالنّسبة إلى من عاش بعض الوقت في القواعد والمخيّمات الفلسطينيّة. علينا أن نضيف كذلك أنّ أغلب الشّعب الفلسطيني اضطرّ لتعزيز كيانه، في عدم قدرته على مواصلة مشروع سياسي واجتماعي حسب قوانين هندسيّة – بما أنّه فقد أرضه – اضطرّ إلى اتّباع مشروع ثوري آخر مُثَنَّى وفريد في نفس الوقت: تحرير الأرض الفلسطينيّة وتغيير العالم العربي. لقد أكّدت تصريحات رسميّة للمتحدّثين باسم اللّجنة المركزيّة الفلسطينيّة أنّه لا وجود لمخطّط لقلب النّظام الأردني، لكنّ الطّرق التي يتّبعها النّظام من جهة والمشقّة الكبيرة التي تواجه الوجود الثّوري للمحاربين – وكان من بينهم أيضاً أردنيّون – تجعل النّظام الأردني المدعوم من قبل «الشرفاء» الذين يدّعون الانحدار من سلالة «الرّسول» من أمثال الهاشميّين، هشّا ضعيفا. توجد بعض الاختلافات المذهبيّة في أعلى هرم مختلف الحركات السّياسيّة التي تشكّل اللّجنة المركزيّة للثّورة الفلسطينيّة. لا تمثّل هذه الاختلافات تناقضات، بل هي مجدية حسب الظّروف التي قد تتطلّب تارة اللّين وطورا التّطرّف. تجمع بين الفدائيّين على القواعد رفقة وتفاهم مطلقاً. فهم يتقاسمون كلّ شيء ولا شيء يفصل بينهم.

[8] يوجد مخيّم اللاّجئين مثلما توجد العديد من المخيّمات الأخرى التي تضمّ حوالي مليون فلسطيني. لكن ما لا نراه على الصّورة هو الجيش الملكي، جيش البدويّين، والشّعب الأردني. لنقترح بعض الأرقام: يشتمل الأردن على حوالي خمسة وسبعين ألف عائلة ويمثّل عدد الجيش الملكي المكوّن من القبائل البدويّة خمسة وثمانين ألف رجل، ممّا يعني أنّ أجرة الجندي الملكي الواحد يمكن أن يقتات منها عشرة أشخاص تقريباً. يدرك البدويّون ذلك حتّى إنّ موت جندي يعني الحِدَاد بالنّسبة إلى كلّ القبيلة، فلذلك تدفع الحكومة الملكيّة أجورًا سخيّة لجنودها. لكنّ الأردن بلد فقير، وليست له موارد طبيعيّة ولا حتّى نفط. فمن يموّل الحكومة الملكيّة؟ من يموّلها هي أمريكا وبنفس الطريقة التي تُقَدِّم إلى إسرائيل مساعدة هامّة بالمال والعتاد وبخبراء عسكريّين، والحال أنّ إسرائيل والأردن في حالة حرب.

يُخيّم الفلسطينيّون في كامل شمال الأردن تقريباً ويقتاتون من حِرف صغيرة وتقع مساعدتهم من قبل الهيكل التّابع لمنظّمة الأمم المتّحدة والمكلّف بشؤون اللاّجئين. وأمّا المتعلّمون منهم، فقد اندمجوا في إدارات عربيّة مختلفة. مع هذا، نجد أنّ بعض الفلسطينيّن الموزّعين في شتّى أنحاء العالم،

وخاصّة في البلدان الأنجلو-سكسونيّة، أثرياء جدّا.

لقد تعاطفت الصّحافة البورجوازيّة في أوروبّا تعاطفا كبيراً مع الشّباب اليهودي القادم من شتّى أنحاء العالم للتّطوّع في الجيش الإسرائيلي سنة 1967، ولم تُشِر صحيفة واحدة إلى أنّ نفس الظّاهرة تماماً شملت الشّعب الفلسطيني. لا فائدة هنا في ذكر أساتذة الجامعات الأمريكيّة وغيرهم من الذين تخلّوا عن مراكز عملهم في جوان 1967 لخدمة الثّورة وإلى جانبهم أطبّاء ورجال قانون وأعمال أخرى موازية ومن بينهم طبعا طلبة يعيشون إمّا في هذا المخيّم أو ذاك، أو على القواعد العسكريّة المحاذية لنهر الأردن. ومع ذلك، فإن وُجدت مخيّمات كهذه في الأردن، فإنّها توجد في عمّان وتحديدا في جبل عمّان وجبل الحسين. ثمَّة أيضاً مَنَازِل جميلة من الحجر المنحوت تسكنها تلك البورجوازية الفلسطينيّة التي تتبرّأ من السّياسة، لكنّها في الواقع تمثّل اليمين الفلسطيني.

[9] من البديهي أنّ التّحرير الفعلي لنساء الشّعب الفلسطيني سيساعد كثيراً على تحرير المرأة في العالم العربي. ففي المخيّمات، تتنافس الفتيات بحماس داخل الأقسام وهو ما يتجلّى خاصّة في مخيّم «العقبة» الذي يضمّ ثمانين ألف ساكن حيث يحسن الجميع القراءة والكتابة ما عدا المُسِنّين. ومتى فقدت الزّوجة زوجها، أو فقدت الأمّ ابنها، فإنّها تلوذ بنوع من المسرحة البسيطة تكاد تكون بدائيّة. فذكرُ الشّهيد يثير التّضرّع إلى الله والدّعوة إلى الثّأر.

[10] لا تنفعلوا، أو انفعلوا إن كان ذلك يريحكم، أمام هذه الصّورة الأخيرة التي تمثّل أطفالا فلسطينيّين. لم نَرَ في مدارسنا العسكريّة القديمة تلاميذ تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة يتدرّبون على استعمال الأسلحة الخفيفة. السّلاح الأوتوماتيكي لعبة قاتلة، ليس إلاّ.

الهدف من عرض هذه الصّور في هذه المجلّة هو التّعريف بقضيّة الفلسطينيّين، خاصّة الفدائيّين منهم، لِذلك فإنّ الطّريقة الوحيدة لكي نفهمهم هي النّضال إلى جانبهم والنّضال مثلهم.

يَحمِل كلّ الأوروبّيّين بداخلهم عنصريّة مرضيّة ضدّ العرب حتّى إنّنا نتساءل بكلّ براءة إن كان بإمكان الفلسطينيّين التّعويل على أيّ مساعدة منّا حتّى لو كانت ضئيلة. إنّ الاحتفالات الفخمة التي شهدتها فرنسا مؤخّرا بمناسبة الذّكرى السبعمائة لولادة لويس التّاسع الملقّب بـ«القدّيس لويس» (Saint-Louis) يجعلنا نشكّ في ذلك. طوال الفترة التي كان فيها الأوروبيّون يُذلّون الشّعوب العربيّة، أي ما بين 1830 و1962، وقع تعظيم «أبطال» الحروب الصليبيّة

بدءًا برولان (Roland) ثمّ «القدّيس برنار» (Saint-Bernard) و«غودفروا دي بويون» (Godefroy de Bouillon) و«غي دولوزينيان» (Guy de Lusignan) و«ريشار قلب الأسد» (Richard Cœur de Lion) و«لويس التّاسع» إلى آخره حتّى أنّه بإمكاننا التّشكيك في مصداقيّة هذا التّاريخ الذي كُتِب في القرن التّاسع عشر لتنشئة النّاس على احتقار الشّعوب المستعمَرة سواء عن حسن نيّة أو سوء نيّة.

في إطار هذا التّاريخ البورجوازي المُلَحِد وقع إذن استغلال الصّليبيّين لخدمة أغراض استعماريّة حقيرة مازلنا نرى مفعولها إلى يومنا هذا. التّاريخ، كلّ هذا التّاريخ، لم يكن إلاّ ضَرْبًا من المغالطة والتلفيق والتزوير الذي يُحرّف إنسانيّتنا ويسعى إلى طمسها ووأدها إن أمكن.

سعادة الدكتور
طلال أبو غزالة

حاوره: المنصف بن عبد الجليل

يعتبر الدكتور طلال أبو غزالة إحدى الشّخصيات الفلسطينيّة البارزة لأكثر من سبب. هو رجل أعمال مرموق تنسب إليه مؤسّسة ذات اختصاصات متنوّعة هدفها الأساسي تطوير المعرفة وإسداء الخدمات التنمويّة. ويعرف الرّجل بثقافته الواسعة، وتشجيعه بمختلف الوسائل على المزيد من التّحصيل وتطوير المعارف، فضلا عن التزامه الحضاري بالشخصيّة الفلسطينيّة والعربيّة، دون انقطاعه عن القيم الكونيّة التي تجلّت في فلسفة الحداثة وقدرتها على مزيد من التطوّر.

ولد بيافا، في 22 أفريل 1938. تعلّم في المدارس العربيّة وبالجامعة الأمريكيّة ببيروت، وهو اليوم محدّثٌ ساحرٌ بفصاحته في كلّ الألسنة التي يتقنها، دقيقُ الحجّة، عالمٌ بما يخبر، موثوقٌ، مطّلعٌ على مجريات الأحداث في المنطقة العربيّة، وما يحيط بها، ملمٌّ بتاريخ بلاده إلماما حصيفا، شديدُ الوعي بِنِدِّيَتِهِ لغيره ممّن نافسوه أو خالطوه أو استقربوه؛ بل طبّقت سمعتُه الآفاقَ العربيّةَ وما وراءها لفرط ما أنجز من الأعمال، وتحلّى به من الدّماثة، والصّدق؛ ولدى الرّجلِ مرحٌ لطيف، ومجاملةٌ نافذة إلى الأعماق، ومشاعرُ من الودّ سرعان ما يحسُّ بها ملاقوه، وإن لم يمض على اللّقاء وقت طويل، كما يروي كل من عرفهُ أو صاحبه أو صادقه.

قد تفيض الشّخصيّة التي نستجوبها في هذا العدد على ما نروم رسمَه في هذه اللّوحة عن فلسطين أكاديميّا وفكريّا، ونقتصر لذاك على ما يخصّ الجوانبَ الفكريّةَ والمعرفيّةَ والثّقافيّةَ الّتي يَتضمّنها هذا الاستجوابُ، وكأنّنا نصادر على أنّ الدكتور طلال أبو غزالة نبتة أصيلة من نبات تلك الأرض المثقلة بالأعراق، والأديان، والحضارات، والأحداث الجسيمة، والأساطير والحكايات التي ملأت الذّاكرة والوجدان. فيه من رائحة الهواء هناك، وفيه من ألوان الطبيعة، وفيه صخب المدينة وحياتها؛ وفيه من القدس وجلالها؛ وفيه من كلّ ما غنّى أهل الحضر وأهل البوادي؛ هو كلّ ذلك وأكثر، كما لو كان خلاصة موطن فذّ من مواطن الدّنيا. هذا الرجل العامل والمثقّف هو ابن أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، أي قبل السّنة المنعرج الّتي ستبدأ فيها المعاناة الجسيمة،

سنة 1948. ومن ذاك الخبر الذي يرويه اليوم رجل عاش بيافا وغيرها من الحواضر وخالط أسرارها، يظفر القارئ بشيء ممّا غاب أو أخفي أو أفسد، أو غيّر ونحسب أنّ القارئ، أيّا كان اهتمامه، قادر على تركيب ملامح صورة للشخصيّة الفلسطينيّة من الأجوبة الموالية، وإن ساقها صاحبها أحيانا على سبيل التذكّر ووجّهها وجهة العدد.

المحور الأوّل: جيل الأربعينات
من القرن الماضي في فلسطين

1. لو تفضّل الدكتور طلال بتعريف شخصيّته النّاشئة ضمن جيله في أربعينيّات القرن الماضي، ماذا تُراه يذكر اليوم؟

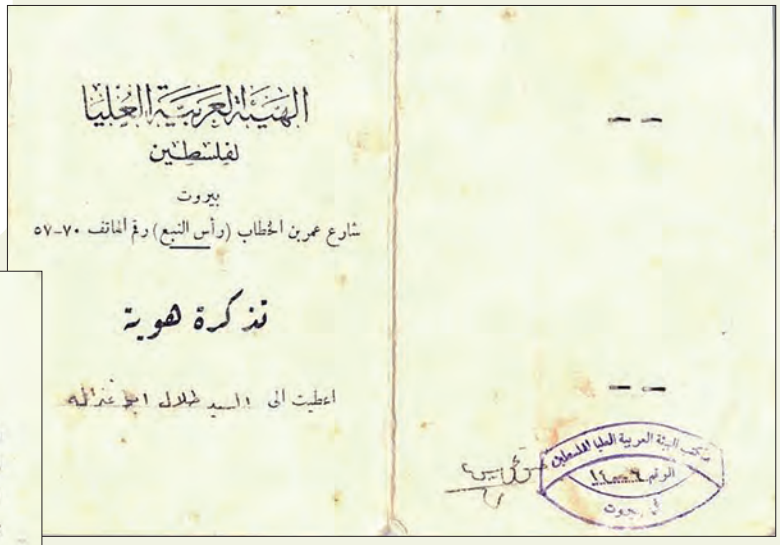
الهيئة العربية العليا
لفلسطين
بيروت
شارع عمر بن الخطاب (رأس النبع) رقم الهاتف ٧٠-٥٧

تذكرة هوية

اعطيت الى السيد طلال ابو غزاله

-أنا ابن مدينة يافا، إحدى أكثر المدن الفلسطينية مدعاة للاعتزاز والفخر، فقد كانت المركز التجاري الأبرز في فلسطين إبان الانتداب البريطاني وميناءها الرئيس. وبالإضافة إلى شهرة بساتين الحمضيات والزيتون وصيد السمك، فقد تميّزت يافا بوجود نظام مصرفي متطور للغاية، فضلا عن شبكة تجارية دولية مزدهرة. أهل يافا منفتحون على العالم مطّلعون مثقّفون، وكانوا كثيري الارتحال إلى بيروت ودمشق والقاهرة والعديد من عواصم العالم، وهو الأمر الذي انعكس على شخصية أهل المدينة. في يافا، وقبل أن نهاجر ونترك كلّ شيء وراءنا ونصبح منفيين لا نملك قوت يومنا، كنّا ننعم بالثراء، لكنّ ذلك لم يكن يمنع والدي من تعليمنا مبادئ شكّلت شخصيتي لاحقا، وعلى رأس ذلك النزاهة والانضباط وتقدير الوقت وحُسن ادارته وحب العمل. إلى أن جاءت النكبة وذقت فيها مرارة الظلم، ظُلم التهجير، وملأت أركاني الرغبة في الانتقام من هذا المحتلّ الذي طردني من وطني.. وقد إخترت النجاح والتميّز طريقا للانتقام من هذا العدوّ الذي ظنّ أن بإمكانه قتل الفلسطيني وقتل أمل الحياة لديه.

2. ما أبرز ما بقي من تلك الحقبة في تكوين الشاب طلال قبل 1948؟

-تلك الحقبة حاضرة بكلّ تفاصيلها في تكوين طلال أبوغزاله، ما زلت أذكر صوت إطلاق النار فوق رؤوسنا ونحن نهرع إلى متن إحدى سفن الشحن التي حملتنا إلى لبنان، ويوم حطّت أقدامي رمال صيدا. لقد أجبرنا،

الهيئة العربية العليا
لفلسطين
الاوصاف
رقم الهوية ١٩٠٠٦
الاسم والشهرة السيد طلال ابو غزاله
اسم الوالد الحاج توفيق ابو غزاله
اسم الوالدة وشهرتها السيدة اديبه ابو غزاله
تاريخ ومحل الولادة يافا ١٩٢٨
الجنسية فلسطيني
المهنة طالب
الوضعية العائلية اعزب
العنوان لطريق الجديدة - بيروت
القامة ١٥٨ سم
الشعر غندري
العينان سوداوان
الانف عادي
اللون سمني
العلامات المميزة
طابع الابهام الايمن او توقيع حامل الهوية
رقم السجل ٤٠٠٦
اعطيت بتاريخ ١٩٥١/٢/٢٧
صالحة لغاية ١٩٥٢/٢/٢٦
هذه الهوية لاثبات شخصية حاملها فقط
القائم باعمال الهيئة العربية العليا لفلسطين

مع بقية أهل يافا ومعظم أهل فلسطين، على مغادرة الوطن التاريخي نحو المجهول، وما زلنا ننتظر تصويب ذلك الظلم التاريخي حتى يومنا هذا. ما زلت أحمل المبادئ التي أنشأني عليها والدي. والأهمّ من ذلك أنني أكرّس حياتي للانتقام من هذا المحتلّ، فأنا وغيري من أبناء فلسطين، حققنا الكثير، وأثبتنا للعالم أن لدى الانسان الفلسطيني قدرة هائلة على التفوق، وبناء النفس، والتعليم،

والإبداع، وبالتالي كسب تقدير واحترام وثقة المجتمعات، وبذلك لم تتحقق نبوءة الصهاينة بأن الشعب الفلسطيني سيندثر، ولا مقولتهم «بأنّ الكبار سيموتون والصغار سينسون». أنا أشعر بكل اعتزاز بأنني بنيت مؤسّسة عربية هامّة تعمل في الدّول العربية كافّة، وفي الكثير من دول العالم، وحظيت باحترام دولي، وبالتالي ساهمت في تعزيز الوجود الفلسطيني، وفي بناء الإنسان الفلسطيني الجديد القادر على مواجهة التّحديات، وعلى الصمود في وجه المؤامرات، والإصرار على استرداد كامل الحقوق والأرض والتّاريخ.

3. ماذا يذكر الدّكتور طلال عن شخصيّة المرأة الفلسطينيّة وقتها؟

The American University of Beirut

On the recommendation of the faculty of

The School of Arts and Sciences

Talal Tawfiq Abu Ghazaleh

the degree of

Bachelor of Business Administration

الجامعة الأميركية في بيروت

بناء على توصية من هيئة التدريس

كلية الآداب والعلوم

طلال توفيق أبو غزالة

درجة

بكالوريوس في إدارة الأعمال

- المرأة هي صنو الرجل وسنده، وهي سياج المجتمع وأساس صناعة الأجيال، فوالدتي علّمتني من مفاتيح الحياة، كما والدي، ما مكنني من مواصلة الكفاح والتقدّم. المرأة الفلسطينية منذ عام 1917 وهي تناضل وتقاوم وتقاتل أيضا، إلى جانب كونها تنشئ وتصنع الأجيال، ومنها هذه الأجيال الجبّارة التي كانوا يراهنون على أنّهم سينسون أرضهم وحقّهم ووطنهم، كما نشاهد المرأة الفلسطينية اليوم حين يستشهد زوجها وتقوم سلطات الاحتلال بهدم بيته واعتقال أفراد عائلته، تظلّ مرابطة في بيتها، أو حتى على ركامه، لا تتركه، بل تعيد بناءه، وهذا مردّه إلى ما تعلّمناه من حرب الـ48، فقد أدركنا بعدها أن من يغادر أرضه وبيته لن يتمكن من العودة إليها إلا بعد التحرير. وأذكر أن والدتي رحمها الله، كانت تحتفظ بمفتاح بيتنا في يافا، لم تُفرّط به أبدا، احتفظت به بجوار قلبها، وهي على فراش المرض الأخير قبل وفاتها أعطته لأختي الكبرى، وبعدها شقيقتي الصغرى، فهذه هي المرأة الفلسطينية، تحفظ حقّ العودة في قلبها وتورثه لأبنائها.

المحور الثاني: الشخصيّة الفلسطينيّة

4. كيف يعرّف الدكتور طلال الشخصيّة الفلسطينيّة إجمالا؟ وكيف يرى نفسه منتسبا إليه في جوانبها الكبرى؟

- الشخصية الفلسطينية شخصية مثقفة وعنيدة ومبدعة وطموحة، شخصية لا تعرف الانكسار. فبالرغم من كلّ ما مرّ به الفلسطينيون، ورغم كلّ الآمال التي كان العدوّ يعقدها على أن الأجيال القادمة ستنسى، إلا

GOVERNMENT OF PALESTINE

DEPARTMENT OF HEALTH

Certificate of Registration of Birth

أن الجميع عرف أن الفلسطيني عنيد ولا يتنازل عن حقّه في وطنه وتحرير أرضه والعودة إليها، كما أن الفلسطيني ليس مسكينا ولا فاشلا، حيث نجح الفلسطينيون بالوصول إلى أعلى المواقع العلمية والعملية، وقد قمت بتأسيس واطلاق مبادرة وجمعية «كلنا لفلسطين» من أجل هدف واحد فقط، وهو إظهار المبدعين

الفلسطينيين، وتم حتى الآن جمع بيانات نحو (11) ألف شخصية فلسطينية مبدعة حول العالم، ومنهم من وصل موقع رئيس وزراء وأعضاء برلمانات، إضافة لآلاف المخترعين والمبدعين، فنحن شعب يحبّ الحياة.

5. ماذا يحبّذ الدّكتور طلال من الغناء الفلسطيني الشعبي القديم، ولماذا؟ هل يدندن أحيانا لشدّة وجده؟

– ليست الموسيقى بالنسبة لي مجرد هواية أو شيء أستمتع به، فقد كانت الموسيقى من الأشياء التي فتحت مداركي بكل ما في الكلمة من معنى. واليوم من أكثر ما يسعدني هو الاستماع إلى الموسيقى، حتى أنني عندما أواجه مشكلة صعبة أو معقّدة أو مقلقة أضع نفسي في جوّ موسيقي ثري. الطرب العربي هو الأول والأقرب إلى نفسي. أما بخصوص الغناء الفلسطيني، فدعني أذكر لك قصة، وربما تكون مؤشرا على الواقع الذي عشته؛ منذ أن كنت تلميذًا صغيرًا في الابتدائية كانوا يعلمونا الموسيقى، وجاء الأستاذ في أول حصة، وقال لنا إن «الموسيقى دوري مي فا سو لا سي دو»، وطلب أن نُكرر وراءه، وأصبحنا نفعل ذلك، فسمع صوت نشاز وذهب ليبحث إلى أن وصل لي، وقال ألا تسمع الموسيقى قلت له كلا فأنا لاجئ لا أملك راديو ولا أملك وقتا لسماع الموسيقى، ثم قال لي «أرجو أن لا تحضر درس الموسيقى بعد اليوم وسأمنحك النجاح دون أن أسمع صوتك». وفي تأثير اللجوء عليّ في هذا الجانب، دفعتني الحاجة لإعالة نفسي وأهلي إلى أن أعمل ليلاً ونهارا بجانب الدراسة، وأول عمل التحقت به كنت بائعاً في محل يبيع الاسطوانات الموسيقية، وبحكم المهنة كان عليّ أن أقنع الزبائن بشراء مقطوعة من المقطوعات الموسيقية العالمية مثل مقطوعة «بيتهوفن» أو «موزار»، فالمحل كان متخصّصاً في الموسيقى الكلاسيكيّة، كان عليّ أن أفهم ما أبيعه حتّى أستطيع أن أقنع زبائن المحلّ، لذا اتّجهتُ إلى القراءة العميقة في الموسيقى، وفي هذه المرحلة بدأ عشقي

وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين
DOCUMENT DE VOYAGE
POUR LES RÉFUGIÉS PALESTINIENS
No. رقم
الاسم والشهرة
Nom et prénom
الجنسية
Nationalité
الزوجة
Epouse
Ce document Contient 36 Pages
تحتوي هذه الوثيقة على ٣٦ صفحة

PHOTOGRAPHIE الرسم الشمسي
Epouse الزوجة
Titulaire حامل الوثيقة
توقيع الزوجة Signature de l'epouse
توقيع حامل الوثيقة Signature du titulaire

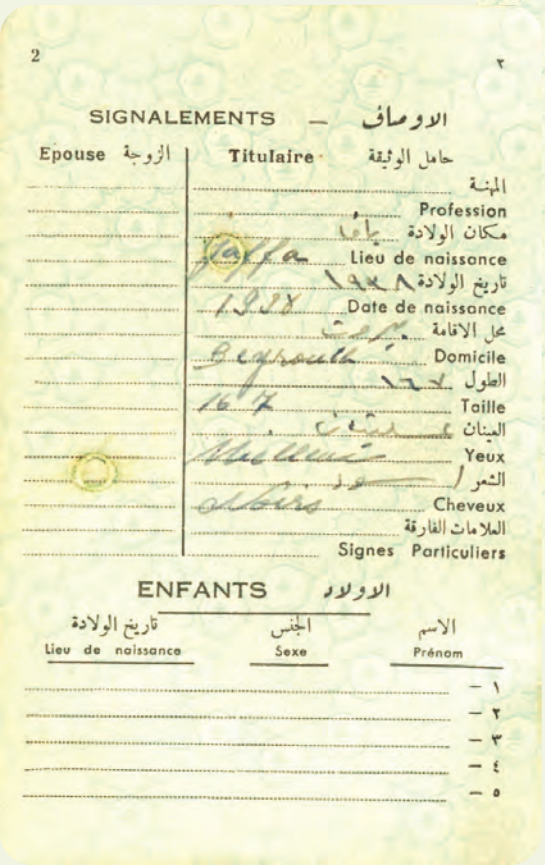
SIGNALEMENTS — الاوصاف
Epouse الزوجة
Titulaire حامل الوثيقة
المهنة Profession
مكان الولادة Lieu de naissance
تاريخ الولادة Date de naissance
محل الاقامة Domicile
الطول Taille
العينان Yeux
الشعر Cheveux
العلامات الفارقة Signes Particuliers
ENFANTS الاولاد
الاسم Prénom
الجنس Sexe
تاريخ الولادة Lieu de naissance

للموسيقى وبدأت أتذوقها، بل وأصبحت مستمعاً جيداً لها.

6. ما العبارات واللهجات المحلّيّة التي يذكرها الدكتور فيعتبرها من الشخصيّة الفلسطينيّة؟

– اللهجات المحلية لا تحتاج إلى تذكر فهي حاضرة على الدوام في جميع لقاءاتي مع الموظفين والزملاء والأصدقاء من الفلسطينيين المهجّرين سواء في الأردن أو في باقي الدول، فهم متمسّكون بلهجاتهم، ويكون النقاش حولها حاضرا في العديد من تلك اللقاءات.

7. كيف تتجلّى الشخصيّة الفلسطينيّة من خلال الأسرة والمرأة خاصّة؟

– والدي هو قدوتي الأولى، وقد علّمني أبي قيمة الارتباط العائلي وخاصة بالنسبة للفلسطينيين، كما أن والدي، بعدما تقدّم في العمر، كان يخبرني أنني

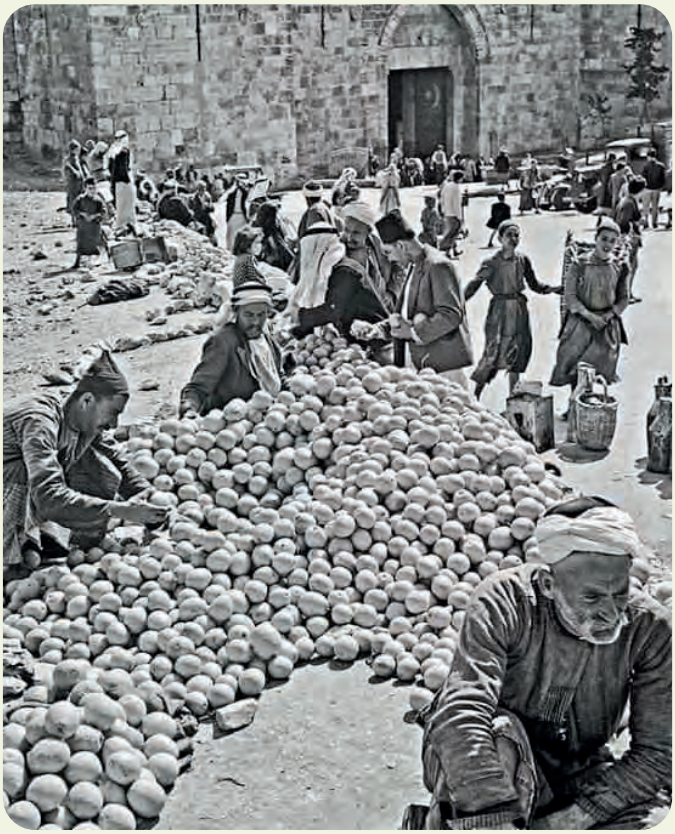

ربّ الأسرة وأنا ما زلت تلميذا، وكان عليّ أن أتحمل مسؤولية عائلة بأكملها، وأُنفق عليها فما كان مني إلا أن أبحث عن عمل يحقق دخلاً يعود على أسرتي بما يكفي احتياجاتهم ومستلزماتهم الحياتية، فامتهنت عدة مهن، وفي مرحلة ما عملت بترجمة الكتب، وقبلها عملت بائعاً جوالاً للبوظة، وقادتني الظروف الصعبة للعمل في سوق الخضار في ساعات الفجر الأولى قبل التوجه للمدرسة. هذه الأعمال وإن كانت صعبة على فتى صغير، لكنها لم تنل من عزيمتي بقدر ما أعطتني خبرة كبيرة في كيفية التعامل واكتساب الرزق وهو الأمر الذي أفادني في السنوات اللاحقة.

كان لوالدتي أثر كبير في حياتي، تعلمت منها الكثر من الخُلُق، وقد كانت دائما تنشر الحبّ والأُلفة والحنان بين أفراد عائلتي. وأروي قصة واحدة، كان بعض أخواني وأخواتي عندما يختلفون معي في أي شيء يشتكون إليها، وتقف دائماً معهم ضدي، مع أنني كنت أعرف أنني الأحب إليها. فسألتها مرّة وبألم: «لماذا هكذا؟ «قالت: «كنتُ أودّ بأن لا تسألني، ولكنني سأصارحك، إن ذلك يا

بني لأنني أشعر أنك القوي وأنهم الضعفاء، فهم يحتاجون لدعمي أمّا أنت فلا تحتاج. وتذكر يا بني أن لك صفة غير صفتهم، كلهم أبنائي وبناتي وعزيزين عليّ، ولكن والدك منذ طفولتك قال لك أنت رجل كبيرٌ في السن وأريدك أن تكون مكاني في مسؤوليتك عن إخوتك وأخواتك، إن هذا التقدير من والدك والذي رحّب به جميع إخوتك وأخواتك يجعلك في مركز قوّة لا أريدك أن تستغله إلا بما يرضي ضميرك». تعلّمتُ منها أن الحبّ لا يعني الإفساد وإعطاء كل شيء لمن تحب من أبنائك أو زملائك أو موظفيك، بل أن تُشعرهم بالمسؤولية عندما تعطيهم أي سلطة أو ميزة أو قدرة تعلّمتُ منها كيف كانت تعمل ليل نهار، وكنت أستيقظ مرات عديدة في الليل وأجدها تغسل أو تطبخ، ونحن نستمتع بالنوم، ولم تكن أبداً تذكر أو تقول لنا ذلك، أي أنها كانت تعمل لترضي نفسها وضميرها ومسؤوليتها تجاه أولادها. وتعلمتُ أنَّ في عمل الواجب سعادة ونعمة. حظيت منذ طفولتي بمكانة خاصة عند والديّ.. لقد كنت بارًا بهما، ومهتمًا بدراستي، وملتزمًا بواجباتي، ولا أخالف إرادتهما.. وأديم الطلب من والدتي بأن تتكرّم علي وعلى إخوتي بالدعاء، فتمطرنا بدعاء الرّضا والتوفيق من الله تعالى. تمثلت علاقتي بوالدي، على وجه الخصوص، بتكويني الاجتماعيّ والأخلاقيّ، وكانت هيبة أبي تفرض نفسها علينا، من قبيل الاحترام والتقدير، فإذا حضر وقفنا له جميعًا كالتّلاميذ، فيوحي لنا بأسلوبه الخاص، وبالإشارة، ما نقوم به عن طيب خاطر. لا أذكرُ أنني قضيتُ طفولتي باللهو واللعب كباقي الأطفال، بل أذكرُ مسؤولية عائلتي التي كلفني بها والدي والتي أعدها من أهم واجباتي في الحياة. تلك المسؤولية لم تقلقني يومًا.. فلا قيمة لي إن لم أُمارس إنسانيتي باحترام عائلتي والاهتمام بها ورعايتها. ومن نِعَم الله عليّ أن حصلتُ على منحة أخرى في الجامعة الأمريكية ببيروت لإكمال دراستي الجامعية، وأنا أدين للُبنان بهذا الفضل. وقد شملت المنحة التعليم والسكن والكتب، والمعيشة، حتى الطعام.. وكنتُ دائم التفكير بعائلتي، فأحتفظ لهم بحبات الفاكهة التي كانت تُوزَّع لنا مع كل وجبة يوميًّا (كالتفاح والموز والبرتقال) فأجمعها وأحملها وأعود بها في نهاية كل أسبوع؛ لنستمتع بأكلها سويًّا، أقدِّر تلك اللحظات... ولا أنساها.

8. ماذا يقول الدّكتور في المعمار الفلسطيني؟ هل من خصائص تَسِمُهُ؟

- لقد مزجت مدينة يافا بين كونها مدينة زراعية معروفة بكونها مدينة «بيارات البرتقال»، وكونها المركز التجاري الأبرز في فلسطين إبان الانتداب البريطاني، بالإضافة إلى كونها مدينة ساحلية. فساعة تجد نفسك تسير بين بيّارات البرتقال، وساعة في الشوارع القديمة الأنيقة. أما منزلنا، الذي زارته ابنتي جمانة وقد احتلّه صهيونيّ جبان، فكان عليه نقش يقول «هذا المبنى ملك لتوفيق أبوغزاله»، وهو منزل كبير يتألف من ممرّ طويل ينتهي بمجلس كبير وغرف كثيرة على الجانبين، إنه منزل عصري بكلّ معنى الكلمة.

9. ماذا أعطت فلسطين من شخصيّتها أراضي الجوار من فضاء البحر المتوسّط، وماذا اقترضت منها؟

- منحت فلسطين الأراضي المجاورة الروح القومية والإرادة والصمود والدفاع عن تراب الوطن بدمائهم والعلم والثقافة واقترضت من الدول المجاورة بعض العادات والتقاليد وتبادل الخبرات.

10. الشخصيّة الفلسطينيّة المركّبة بتنوّعها العرقي، واللساني، والدينيّ، والفكريّ؟

– لم تتأثر الشخصية الفلسطينيّة سلبا بحجم التنوّع العرقي واللساني والديني والفكري الذي كانت تتميّز به فلسطين، وقد ظلّت قيمة الانسان الفلسطيني في خُلقه وعمله وإنتاجه.

المحور الثالث: الإرث العربي والإسلامي

11. كيف ينظر الدّكتور طلال إلى الإرث العربيّ الفلسطيني؟

– الإرث العربي الفلسطيني جزء من الهوية العربية التي أؤمن بضرورة المحافظة عليه، وهو يؤكد على حتمية استعادة الحقّ والتخلص من العدو الصهيوني والاحتلال.

12. هل يمثّل التراث العربي والإسلامي عائقا دون الحداثة الفكريّة والحضاريّة؟ كيف ذلك؟

– الحضارة العربية تقوم في جوهرها على محتوى اخلاقي ومعنوي تفتقدهما الحضارة الغربية التي تقوم على المادية فقط بخلاف حضارتنا العربية المبنية على الاخلاق والمبادئ. وقد قامت مجموعة طلال أبوغزاله العالمية على رسالة تحمل في مضمونها مسؤولية بناء القدرات والإسهام في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للعالم العربي، وكما قال آينشتاين «الدين الحقيقي هو أن تعيش حياتك بكلّ جوارحك وبكلّ ما في نفسك من خير واستقامة وصلاح».

13. هل النهضة العربيّة مشروع لم يبدأ بعد؟

– نحن دخلنا في بداية مرحلة الانتقال إلى عصر النهضة، وإذا ما أخذنا في الاعتبار التاريخ والجغرافيا وهو مبدأ مهم عندما تنظر إلى المستقبل، فإننا سنجد أن هناك أمما أخرى مرّت بمثل هذه المرحلة التي تمر بها الدول العربية، فقد سبق وأن عاشت أوروبا في عصور الظلام لمدة 200 عام حتى تحققت النهضة، وخلال هذه الفترة دفعت أوروبا ثمنا بشريا واقتصاديا ومعنويا واجتماعيا، وهذا يعني أن الانتقال لا يكون بغير ثمن، وبالتالي فإننا يجب أن نعي أن عملية الانتقال من المرحلة التي كنا فيها سابقا إلى المرحلة التي نطمح في أن نصل إليها ليست نزهة، وإنما رحلة معاناة. نحن نعيش في المنطقة الأكثر دماراً في الدنيا، وبالتالي الأكثر فرصاً، ولأن الله تعالى أنعم على هذه المنطقة بوجود بعض الدول العربية التي لديها فوائض لمصلحتها، ومصلحة الدول التي يجري إعادة إعمارها، ومن هنا أتوقع على المدى الطويل أن الخير قادم، وهذه الأمة العربية المستقبل لها.

14. لو تفضّل الدّكتور بذكر أهم المفكّرين الفلسطينيّين المعاصرين؟ بم تميّزت رؤاهم؟

– لا أعتقد أنه يمكننا حصر المفكّرين الفلسطينيين،وكنا قد اسسنا جمعية «كلنا لفلسطين» لتسليط الضوء على الإبداع الفلسطيني في مختلف أرجاء العالم والإنجازات التي حققها الفلسطينيون في شتى الميادين والمجالات وطرق دعمها، حتى أن الوعي والموروث الفكري لدى أجيال الفلسطينيين أصبح ينتقل للأجيال

بالفطرة. شخصيا، يحظى ناجي العلي رحمه الله بمنزلة رفيعة، أعتبره صوت الأمة، كان حاضرا برسوماته وروائعه الفنية يوقع باسم الملايين أفكاره المتقدة معبّرا عن آلام وهموم المواطن العربي، وقد كانت اخر صفحة هي اول ما نفتتح به صباحاتنا لنرى ماذا يحمل لنا حنظلة من حكايات، لقد انتمينا الى الحقيقة معا الى الوطن، وكنا إذا تحدثنا عن فلسطين نبدأ من البحر حيث يافا وحيفا وعكا والناصرة والجليل مرورا بغزة والضفة وصولا الى النهر الخالد، ليوحدنا حلم العودة كحق مصيري، والإيمان بأنّ هذا الكيان الغاصب زائل لا محالة، وإن ما أكرمني به من رسومات خاصة بي، ضممتها إلى موقعي الالكتروني هي من أعز ما لديّ من تراث.

15. هل يرى الدّكتور الدين بوجه عامّ عامل تحرّر وتقدّم للأمم؟ كيف ذلك؟

- الدين ليس عائقا في تقدّم الأمم.

16. وماذا عن نظرته إلى الأخلاق موصولة بالدين ومنفصلة عنه؟

- أنا أرى أن الحضارة العربية تقوم على محتوى أخلاقي ومعنوي تفتقدها الحضارة الغربية، وقد أطلقت في عام 2018 مبادرة عالمية تهدف إلى استخلاص القيم المشتركة بين الإسلام والمسيحية وصياغتها في ميثاق أخلاقي يكون موجها لمؤسسات التنشئة الاجتماعية والتشريعات. دعني اقدم تجربتي الخاصة، أولادي درسوا في أمريكا وعاشوا في محيط أجنبي، وتربوا على ثقافة أجنبية، وكان هذا التأثير عليهم إيجابيّا، لم يخدش اقتناعهم بحضارتهم العربية والاسلامية، ولم تضعف ذاكرتهم السياسية ولم يتناسوا قضية وطنهم فلسطين، ولم تتأثّر أخلاقه، أفتخر بهم جميعا.

17. كيف يعرّف الدّكتور إنسانيّة الفلسطيني ومقوّماتها؟

- الفلسطيني بطبعه إنسان يسعى إلى الاستقرار والسلام، ولذلك كان الفلسطيني متميّزا في عدة مجالات كالزراعة والصناعة والتعليم والتجارة، وكان مما علّمني إياه أبي أن لا قيمة لي إن لم أُمارس إنسانيتي باحترام عائلتي والاهتمام بها ورعايتها، كما أنني أعتبر أنّ أحد أهمّ أسباب سعادة المرء أن يجعل إنسانا آخر سعيدا.

المحور الرّابع: حواضر فلسطين والقدس بينها

18. وماذا يقول عن الريف الفلسطيني وشخصيّته العمرانيّة.

- جمعت يافا بين كونها مدينة ساحلية وزراعية شديدة الخضرة، إلى جانب كونها أبرز مركز تجاري في فلسطين، كانت البيوت مبنيّة من الحجر، وقد نُقش اسم توفيق أبوغزاله على الحجر في مدخل بيتنا الذي لم تكن سهراتنا العائلية تحلو إلا فوق سطحه.

19. أيّ الحواضر التي تتبادر إلى ذهنه قبل غيرها كما لو كانت عنوان فلسطين برمّتها؟

- فلسطين كما يافا، فرغم الاهتمام الكبير بالزراعة، إلا أن مظاهر الحياة المدنية والحضرية طاغية عليها، كان بلدا منفتحا على العالم، أهله مثقّفون، يحبّون العلم والتميّز والتقدّم.

20. ما منزلة القدس من الحواضر الفلسطينيّة؟

- كانت القدس «المدينة» تعدّ أكبر وأضخم سوق تاريخي، كان هذا السوق مقصدا للباحثين عن أجود أنواع السلع، وكان والدي يملك شركة حافلات تعمل بين القدس ويافا، وتسمّى يافا.

واليوم، وانطلاقا من واجب دعم صمود المقدسيين في القدس، خاصة أن العدو يعمل دائما على حرمانهم من الحياة، وبما أننا في عصر المعرفة، جاء مشروعي بإطلاق سوق افتراضية مقدسية، فمن خلال الهاتف تتحاور مع البائع ومن ثمّ تشتري منه بضاعتك التي يعرضها على هذه السوق، بحيث تكون تلك وسيلة لبقاء ذلك التاجر في مكانه ويتغلب على المضايقات الإسرائيلية، ويزدهر النشاط التجاري في القدس.

21. ما روح المدينة الفلسطينيّة في نظره؟

- الشعب الفلسطيني بطبعه شعب اجتماعي مترابط، يقدّس العائلة والوطن، متطلع للتقدّم والتميّز، يحبّ الثقافة والتعلّم.

المحور السادس: أشكال التعدّد الثقافي في فلسطين

22. أنواع التعدّد الثقافي في فلسطين؟

- طالما كان الشعب الفلسطيني شعبا متعلما منفتحا على كلّ الثقافات، فالشعب الفلسطيني محبّ للعلم والتعلّم، مطلع على مختلف الحضارات، قارئ لمختلف الحركات الفكرية، منها الرأسمالية ومنها الشيوعية ومنها القومية التي كانت منتشرة بشكل كبير، ولعلّ هذا عائد إلى ارتباطهم بمحيطهم العربي بشكل كبير.

23. هل يمكن أن يؤسّس التعدّد الفكري والثقافي تفكيرا تعدّديّا (pluralistic) قادرا على قبول المختلف؟

- أنا أقول إنه ومهما اختلفت الاتجاهات الفكرية، فإن هناك دائما قاسما مشتركا يجمع المتضادين في الرأي والفكر، فالأصل

أن الاتجاهات الفكرية التي كانت تتبنّاها الشعوب والجماعات تهدف في جوهرها لخدمة الانسان. المهمّ أن لا يتحوّل الاختلاف الفكري إلى سبب للصراع يقوّض أمن واستقرار العالم.

24. هجرات الفلسطينيّين بين الاستمرار والقطيعة وأثرها في الشخصيّة الفلسطينيّة؟

- لا شكّ أن تهجير الفلسطينيين أثّر في الشخصية الفلسطينية والمواطن الفلسطيني الذي تعرّض لظلم كبير، فلا يوجد فلسطيني ينام ويصحو إلا ويفكّر بالحقّ الذي سُلب منه بالقوة والخديعة، لكن لكلّ طريقه في الانتقام من المحتلّ، فأنا اخترت طريق نشر المعرفة وبناء قدرات الشعب الفلسطيني، وهناك من اختار طريقا آخر للانتقام من العدوّ. قصتنا طويلة وعظيمة، وأنا أشعر بالفخر لصمود هذا الشعب وبقائه متمسّكا بوطنه.

المحور السابع: العلوم والمعارف.

25. لم اهتمام الدكتور طلال أبوغزاله ومؤسّساته في كامل أنحاء العالم بالعلوم والمعارف؟

- أقول بشكل مباشر، إن المعرفة هي المستقبل وهي مفتاح حلّ كلّ الأزمات، وعلى الانسان العربي أن يكون قائد معرفة، ففي هذا العصر المعرفة هي التي تصنع الثروة. وأنا أفتخر أنني أصنّف نفسي كعامل معرفة، وقد جاء إطلاق مجتمع أبوغزاله للمعرفة انسجاما مع رؤيتي بأهمية نشر المعرفة ومساعدة الشباب العربي على التعلّم وتأهيلهم ومدّهم بالخبرات اللازمة ليخوضوا غمار الحياة. وبالمناسبة شركات التكنولوجيا مثل «غوغل وأمازون ووسائل التواصل الاجتماعي» قيمتها بآلاف المليارات، وهذه شركات معرفة.

26. بم يعلّل الدّكتور «بؤس» البحث العلمي وعدم جدواه بالبلاد العربيّة، وهل فلسطين جزء من ذاك التشخيص؟

- هذا خطأ استراتيجي، أنا اقوله وأتمنى أن لا تستاء مني الجامعات والمدارس في بلادنا العربية، نحن على عتبة نهاية التعليم المدرسي والجامعي التقليدي، فالمباني لا لزوم لها في عصر المعرفة، أنا ألقيت محاضرة في هارفارد قلت لأساتذة وطلبة هارفارد أريدكم وأنتم الجامعة الأمثل في العالم أن تعطوني أستاذا لديه معلومة غير منشورة عبر الانترنت؟ اليوم المهم ليس كم حفظت، بل كم تعرف وكيف تخترع وتبتكر.

27. ما مستقبل العلوم بالبلاد العربيّة؟

- لقد آن الأوان لتميّز صانعي المعرفة في عالمنا العربي بخصائص عامل المعرفة أينما كان من: تقديسٍ للمعرفة، وشغفٍ بحب الاستكشاف وديمومة الاطلاع ورغبةٍ في البحث المستمر والابتكار؛ لصناعة ثورة نتاج ابتكارية معرفية لا حدود لها، فعليك أن « تبحث عن المعرفة؛ لأن المعرفة لا تبحث عن

أحد». وحتى تكون مؤهلاً لصناعة المعرفة، وفردًا منتجًا مبدعًا لابد أنْ تتحلى بـ «طلب المعرفة» ثم بـ «تعلّمها» والعمل بها، وكثير مما ستكتشفه من معارف، في مجال عملك سيكون مختلفًا عَمَّا درسته.

28. كيف تساهم مؤسّسات طلال أبوغزاله في تطوير العلوم والتفكير العلمي بفلسطين والبلاد العربيّة خاصّة؟

- نفخر في طلال أبوغزاله العالمية أننا أكبر مجموعة خدمات مهنية تحمل رؤية ورسالة وعليها واجبات ومسؤوليات سخرنا برامجنا لها، خاصة في السنوات الاخيرة لبناء القدرات البشرية من خلال التدريب والتأهيل، ولدي ايمان راسخ بأن تحصين الانسان الفلسطيني بالعلم والتأهيل المهني اضافة الى وعيه وايمانه بقضيته هو عنصر اساسي للصمود واثبات الذات. وعليه فان المجموعة بادرت بتبني تأهيل آلاف المحاسبين من ابناء الضفة الغربية وقطاع غزة وتدريسهم ومنحهم شهادة محاسب مهني عربي معتمد (ACPA) واذكر انني اثناء معركة «جنين غراد»، أعلنت عن برنامج لتأهيل الف فلسطيني تحت الاحتلال لمادة محاسب قانوني عربي، وكم شعرت بالثقة بالمستقبل اذ جاءني ما يزيد عن مئة طلب من جنين وهي تحت القصف. كما أطلقت لاحقا منحة المليون لاجئ لتمكين مليون فلسطيني في كلّ أصقاع الأرض من الحصول على درجة الماجستير من جامعة طلال أبوغزاله العالمية في عدة مسارات رائدة تشمل « الذكاء الاصطناعي، تكنولوجيا المعلومات، التسويق الرقمي، والملكية الفكرية، وإدارة سلسلة التوريد» وأبشّرك أن أول خريج من المستفيدين من هذه المنحة كان من قطاع غزة. وأطلقت مؤخرا منحة «بناء قدرات غزة» والتي تستهدف تأهيل الكوادر اللازمة من أجل إعادة إعمار قطاع غزة بعد انتهاء حرب الإبادة الجماعية التي تتعرّض لها.

29. هل يهتمّ الدّكتور طلال أبوغزاله بالعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة والآداب اهتمامه بالعلوم والتكنولوجيا؟ كيف، ولماذا؟

- بالتأكيد هناك اهتمام بالعلوم الانسانية والاجتماعية والآداب، لكن ليس كالاهتمام بالعلوم والتكنولوجيا، حتى أن أوّل جائزة حصلت عليها كانت جائزة أدبية عن القصة القصيرة «الصدى اللعين» والتي كتبتها في السنة الثانية من دراستي الجامعية، وقد لخصت في القصة آمالي وأحلامي بانفجار ثورة في جميع أنحاء العالم العربي تتمخّض عنها وحدة اجتماعية وسياسية. أما لماذا أهتمّ بالعلوم والتكنولوجيا، فهذا عائد إلى قناعتي بأن العلم هو السبيل لتحرير الأوطان وبناء الأجيال.

المحور الثامن: تحدّيات المجتمع المعاصر ورهاناته

30. ما هو أكبر تحدٍّ يواجه المجتمع الإنساني المعاصر في نظر الدكتور طلال أبوغزاله؟

- أكثر ما يهدد البشرية والكوكب كلّه هو التغيّر المناخي، وقد اطلعت على تقارير سرية من داخل أروقة البحث العلمي، تشير إلى أن البشرية تواجه خطرًا وجوديا متزايدًا بحلول عام 2050 إذا لم تتم معالجة مشكلة التغير المناخي بشكلٍ جدي وفعال. أما التحدي الآخر فهو عدم وجود نظام واحد يحكم العالم، فلم يعد هنالك نظام للعالم، ولذلك كل دولة تتصرف كيفما شاءت، ولم

يعد هناك استقرار حتى إننا وصلنا فيه إلى أسوأ مرحلة في تاريخ البشرية، ولم يعد هناك قيادة للعالم، بل هناك خلاف على كل شيء.

31. ماذا يقول الدكتور طلال أبوغزاله عن علاقة الثورات العلميّة بالعولمة والنيوليبراليّة؟

- «العولمة» كانت مرحلة قصيرة ومصطنعة، وها هي اليوم تموت موتا سريريا. وقد أشرت مرارا إلى أن العالم تحوّل من عصر العولمة إلى عصر «الحمائية»، أيّ أنّ كلّ دولة ترفع شعار «بلدي أولا»، وهذا هو الأساس الذي أصبحت الدول الكبرى تتعامل به، حتى في المجال العلمي. وأشير إلى أن أحد أبرز الخلافات بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية مرتبط بحقوق الملكية الفكرية والتنافس العلمي والتكنولوجي.

32. كيف يقيّم الدكتور طلال أبوغزاله ما أصاب الإنسانيّة من جائحة «كوفيد»؟

- عندما حلّ وباء كورونا على العالم، اختلف تعامل الدول معه، وقد ركزت الدول المتقدمة على الجانب الصحي وأجّلت الجانب الاقتصادي باستثناء الصين، هذا التأجيل أدى إلى أزمات أكبر من المشكلات الصحية، فإعادة بناء الاقتصاد ليست بتلك السهولة التي يدّعيها بعض السياسيين في العالم. وأنا كنت ممن حذّر من تقديم الجانب الصحي على الاقتصادي، وتعرّضت إلى حملة شعواء، واتهمت بأنّي رجل مادي ولا يهتم بصحة البشر وحياتهم، لكن الحقيقة أنني كنت أبحث عن مصلحة الانسان. وهنا أريد أن أشير إلى أن مجموعة طلال أبوغزاله العالمية لم تتأثر اقتصاديًا بالوباء لأننا كنّا مستعدين كمؤسسةٍ للتعامل معه وذلك بالتحول مسبقًا ومنذ سنين إلى مؤسّسة رقمية. دائما يمكننا أن نحيل المحن والأزمات إلى فُرص، وكذلك جائحة كورونا التي يمكن استثمارها لتكون فرصة للتحوّل الالكتروني في كلّ المجتمعات.

المحور التاسع: التحوّلات الدوليّة في علاقتها بالحداثة والقيم الكونيّة

33. هل يمكن للدكتور طلال أبوغزاله أن يصف أهمّ التغيّرات الدّوليّة التي يراها جارية بمنطقة الشرق الأوسط، وأيّ أثر لها في فلسطين؟

- اليوم ما يجري في غزّة وفلسطين هو الذي يؤثر ويغيّر العالم بما فيه الشرق الأوسط، فهو ليس محصورا فقط بين المقاومة والعدوّ الصهيوني، بل هو صراع بين الطامحين بالسيطرة على منطقة الشرق الأوسط ويبسط نفوذه عليها، وهي خطوة على طريق الحرب العالمية الثالثة؛ أمريكا تريد السيطرة على المنطقة لتثبت أقدامها نحو بحر الصين. وأنا أرى أن مستقبل العرب هو مع الصين.

34. كيف تتراءى فلسطين في أفق التطوّر الدّولي خلال العقود الخمسة القادمة؟

- ما يجب أن نفكّر فيه هو ماذا سيحصل بالكيان الصهيوني نتيجة الحرب التي انطلقت في 7 اكتوبر والتي أرى أنها حرب تحرير مفتوحة، أنا أعتقد أن العملية ستنتهي بمشكلة داخلية في الكيان الصهيوني، فالعدوّ تكبّد خسائر كبيرة جدا؛ في الاقتصاد والسياسة والسمعة العالمية، في المرحلة

القادمة، وحتى لو تمّ الاتفاق على وقف اطلاق النار ستبدأ معركة داخل الكيان الصهيوني بين الفرق المختلفة بعد الهزيمة المكللة التي تكبّدها في هذه الحرب. اليوم التالي للحرب على غزة سيكون في الصالح العربي الوطني والفلسطيني.

35. بم يفتخر ومم يتألّم الدّكتور طلال أبوغزاله، وقد أدرك فترات مهمّة وتحوّلات خطيرة شهدتها فلسطين والقرن العشرون والعقود الأولى من الألفية الثالثة؟ هل من رسالة إلى أبناء الأجيال القادمة؟

- أفتخر بكلّ فلسطيني، الصغير قبل الكبير، وأنا أضع في مكتبي صورة طفل عمره لا يتجاوز (12) عاما، فيما يوجّه ضابط صهيوني السلاح إلى صدره بل ويضعها على صدره، والطفل يتحدى الضابط ويهدده ولا يرجوه، هذا الشعب لن يُهزم بكلّ ما يحصل وكلّ ما حصل، أنا أفخر بهذا الشعب الذي يقاوم ويدفع الثمن في سبيل قضيته. كما أفخر بهذا الشعب المحبّ للحياة والذي أثبت تميّزه في شتّى المجالات.

من أخبار قسم العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة

أشرف قسم الدّراسات الإنسانيّة والاجتماعيّة بالمجمع على تنظيم عدّة أنشطة تقرّر الإعلان عنها إعلانا شاملا في نشريّة إخباريّة دوريّة خاصّة بالقسم.

ولكن حرصا على تعميم الفائدة ودعوة المختصّين إلى المشاركة الفعّالة، نعلن هنا عن مشروع أعدّه فريق «دراسات مغاربيّة في العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة» بذات القسم، موضوعه «الكتابة التاريخيّة بتونس»، كما هو مفصّل في ما يلي، ضمن الورقة المرجعية للندوة التي انتظمت بالمجمع التونسي «بيت الحكمة» بالاشتراك مع مجلة أسطور للدراسات التاريخيّة.

«التّحوّلات في مجال الكتابة التاريخيّة في البلاد التّونسيّة»

عبد الحميد هنية(*)

تُبرز الكتابات التاريخيّة بالبلاد التونسيّة، خاصّةً بدايةً من الفترة الحفصية إلى يومنا هذا، تحوّلات عميقة في الملامح الكبرى لصورة المؤرِّخ وعلم التاريخ؛ إذ بدأت تتبلور الملامح الأولى للدولة بالمعنى الحديث للكلمة، لاسيما منذ العهد الحفصي (1228–1574م). فقد تحوّلت الكتابة التاريخيّة تدريجيًّا من خدمة الدّين (مثل التأريخ للحديث النّبويّ، أو التأريخ لطبقات العلماء، أو التأريخ للشّرف... إلخ) إلى صياغة معرفة تاريخيّة تتمحور أساسًا حول البناءات السياسيّة ذات الصبغة المركزيّة الصاعدة، أي الدولة.

كانت الكتابة التاريخيّة إلى حدِّ كتاب «**العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**» لعبد الرحمن بن خلدون (1333–1406م) تخصُّ دائمًا حيزًا ترابيًا واسعًا وفضفاضًا، بل هو أحيانًا أمرٌ كونيٌّ. وتدريجيًا أصبحت هذه الكتابة تقتصر على حيّز ترابِيّ معيّن. وهو

(*) مجمعيّ وأستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس.

مجال الدولة بالمعنى الحديث للكلمة. فأدى ذلك إلى تهميش الكتابات التاريخيّة الأخرى التي تُعنى بمجالات ضيّقة مثل القبيلة، والأسرة، والمدينة.

وبدايةً من القرن السابع عشر أصبح «زمن الدولة» الهاجس الأساسي للكتابات التاريخيّة. وهو زمن المجال السياسيّ الدنيويّ الذي تتفاعل فيه المصالح وتتشابك فيه الاستراتيجيات الاجتماعيّة. ومن المفيد أن نلاحظ كيفية مرافقة إنتاج المعرفة التاريخيّة للتحقيق في بناء الدولة، وتقديم الدعم لها أيضا، بطريقة أو بأخرى. وقد دُعّم هذا التوجه، وتأكّد أكثر فأكثر، كلّما تقدمنا زمنيّا بدايةً من القرن السّابع عشر إلى يومنا هذا.

ويتّضح أنّ هذا التّحول تداخلت فيه الجوانب الفكريّة والمعرفيّة والمنهجيّة. فكريًّا، لمّا أصبح المؤرخ منخرطًا في مشروع مجتمعي قوامه بناء الدولة في كل تجلياتها: المجاليّة في مرحلة أولى؛ والوطنيّة في مرحلة لاحقة. لذلك، فهو يدافع بكل ما أُوتيَ من قوّة (عن وعي أو عن غير وعي) عن الدولة ورموزها، وهو في ذلك يخلق المعنى الذي يجعله مندمجًا مع الطلب الاجتماعيّ. وعلى هذا النحو، يبرز المؤرخ بمنزلة «المثقف العضوي»؛ فنفهم الحظوة التي لقيها لدى النّخب السياسيّة، حتى لو كان ذلك على نحو متفاوت من فترة إلى أخرى (من الفترة العثمانيّة إلى الفترة المعاصرة أساسًا). وهكذا، واكب إنتاج المعرفة التاريخيّة عمليّة بناء الدولة. وشكّل، في ذات الوقت، انعكاسًا لهذا البناء ودعامة أساسيّة له، حتّى لو تعلّق الأمر بفترات تاريخيّة «قديمة» أو «وسيطة»، إلى حدّ أنّ الدارس يمكن أن يلاحظ كيفية مواكبة ديناميّة هذا البناء لأنماط متغيّرة من التّساؤلات من شأنها أن تجدّد باطّراد المعرفة التاريخيّة في البلاد التونسيّة.

كان المؤرخ خلال الفترة العثمانيّة عصاميًّا في تجربته لكتابة التاريخ؛ لم يشرف على تكوينه أحد، ولا توجد مؤسّسة علميّة تحتضنه

وتحتضن علمه. ومع ذلك، صاغ معرفة جديدة تقطع في جوانب عديدة مع التّجارب التاريخيّة السّابقة. وهكذا عرف علم التاريخ في تلك الفترة نقلة نوعيّة في مواضيعه، وفي مناهجه أيضا. فبعد أن كان يُحشر ضمن «علم الأدب»، أصبح تدريجيًّا مستقلّا بذاته، وحَصَلَت في الوقت نفسه «مَهْنَنَة» المؤرخ الذي أصبح يتميَّز بدايةً من نهاية القرن التاسع عشر بعلم خاص به.

أصبحت كلمة «مُؤَرِّخ» متداولة، وتدخلت ضمن زمرة العبارات الجديدة الّتي ما فتئت تثري القاموس الثّقافي العربي بدايةً من النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر؛ «مثل عبارات «المثقّف»، و«النّخبة»، و«الشّعب»، و«الحريّة»، و «الوطن»/ «الوطنيّة»، وغيرها[2].

2 انظر في هذا الصدد:
Iman Farag, "Intellectuel-*muthaqqaf*: champ sémantique, champ conceptuel et champ historique," *Etudes politiques du monde arabe*, Dossier du CEDEJ (La Caire 1991), p. 158.

أمَّا الحدث الثاني، فهو يخصّ تدريس التاريخ، على أنّ التاريخ لم يُدرج بوصفه مادة تدريس في البرامج التعليميّة إلّا خلال القرن التاسع عشر، ولم تكن البلاد التونسيّة في ذلك تختلف كثيرًا عمّا هو معروف في فرنسا مثلا في الفترة نفسها[3]، ومن المعلوم أنَّ التاريخ لم يكن يُدرَّس في جامع الزيتونة، ولا في غيره من المؤسسات التعليميّة الأخرى مثل الأدب والشعر، ذلك أنَّ علماء الزيتونة يعدّونه من الأسباب التي تشغل المسلمين عن العلوم الشرعيّة، خصوصًا أنَّ علم التاريخ عرف تغييرًا كبيرًا في مضمونه، تمثّل في التّخلي عن خدمة الموضوعات ذات الصبغة الدينيّة.

واصلت البحوث التاريخيّة المنجزة في تونس، بعد الاستقلال تقريبًا، الخط نفسه الذي رسمته الكتابات التاريخيّة (المصنّفة بـ «الإخباريّة») قبل الاستعمار. فعلى الرّغم من الاختلاف الظاهري بين المؤرِّخين «التّقليديين» و المؤرِّخين «الجدد» (بحسب التّصنيفات التي يعتمدها اليوم مؤرِّخون كثيرون : «الاخباريون» من ناحية و«المؤرِّخون» من ناحية أخرى)، فإنّهم اشتغلوا عمومًا في إطار المشروع المجتمعي نفسه المتمثّل أساسا في بناء الدولة؛ سواء كان ذلك في مرحلتها الترابيّة خلال الفترة العثمانيّة، أو في مرحلتها الوطنيّة في الفترة المعاصرة. ويظهر ذلك بوضوح في الكتابات التّاريخيّة الّتي أنجزت بدايةً من الفترة الحديثة. وفي وقتنا الحاضر، يتواصل في هذه الكتابات ذلك الحرص على التأكيد على استمراريّة نفس البناء السّياسي ومجاله الترابي. من أجل ذلك، تجري تنقية الكتابات التاريخيّة، عن وعي، أو غير وعي، من المظاهر التي لا تخدم استمرارية هذه الدولة ووحدة ترابها؛ فإمّا أن تُحجب كليًا، وإمّا أن تُحقّر من شأنها. ومن الأمثلة الدالة على ذلك أنَّ خريطة تراب الدولة التونسيّة الحاليّة كثيرًا ما تبقى ثابتة ضمنيًا في الكتابات التاريخيّة المتعلّقة بالعهود القديمة والوسيطة والحديثة. واضح أنّ هذه الكتابات تعمل جاهدة على ترسيخ فكرة الدولة والنّظام السّياسي الذي يُؤمّن تواصلها، تماشيًا مع الطلب الاجتماعي في ذلك الوقت.

مع بداية القرن العشرين، أصبح المؤرِّخ يعيش، في زمن العولمة، وهو أمر يُنبئ بنهاية التاريخ الذي يوظّف من أجل إضفاء المعنى لخدمة قضيّة معيّنة. وعلى غرار الباحثين في العلوم الاجتماعيّة الأخرى، بدأ المؤرِّخ التّونسي يبتعد تدريجيًا عن الإيديولوجيات، وعن مسألة الدولة الوطنيّة على وجه الخصوص. واهتزَّ

اليقين في هذا المجال على نحو متزايد. ولا شك أنّ التيارات النّقديّة الّتي تكاثرت منذ الثمانينات، وخاصّةً في أثناء التّسعينات من القرن العشرين، ساعدت على ذلك. فكيف أصبح المؤرِّخ التّونسي يبني مواضيعه البحثيّة في ظلّ هذه المتغيّرات؟ وما استعمالات ذلك ورهاناته؟ لم يكن هذا السؤال غريبًا عن

3 عند الاطلاع على الإستغرافيا الفرنسية يتبين لنا أن مأسسة تدريس التاريخ (بوصفها مادة مستقلة عن الفلسفة) يرجع إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ويكتب «فرنسوا هارتوغ» في هذا الصدد ما يلي: «أصبح التاريخ مادة مستقلة في التدريس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر». انظر:
François Hartog, “L’histoire s’est constituée en discipline dans la seconde moitié du XIXe siècle,” *Evidence de l’histoire. Ce que voient les historiens*, “Cas de figure 5” (Paris: Editions EHESS, coll. 2005), p. 203..

المنعرجات الّتي طبعت المدارس التّاريخيّة في العالم.

تتميز هذه المنعرجات بعدَّة محاولات للتجديد المعرفي في شتَّى العلوم الاجتماعيّة؛ من ذلك تخليص المعارف من الإرث الاستعماري من خلال الدراسات المتعلقة بـ«ما بعد الاستعمار» الّتي كُتبت باللّغة الإنكليزيّة أساسا، و «المنعرج اللّغوي» «linguistic turn»، ونقد الاستشراق من جانب «إدوارد سعيد»، ومساهمة «مدرسة الحوليات»، ومحاولات بناء المعرفة من «الأسفل» view from below أو من «الداخل»، أو على «سطح الأرض» au ras du sol. وفي المنظور نفسه، ساهمت التيارات المعرفية – من قبيل «دراسات التَّابع» subaltern studies، وإعادة تشكيل «رؤية المهزومين» كما بينتها ناثان وشتال Nathan Wachtel، و«التاريخ الصغير» «الميكروستوريا» microstoria الإيطالي، والتحليل من وجهة نظر الأهالي حسب كليفورد غيرتز Geertz Clifford، والتحليل اعتمادا على «أسلحة الضعفاء» من جانب جيمس سكوت James C. Scott. وكذلك بالنّسبة إلى «دراسات اللاتينيين»، و «دراسات الجندر»، و «دراسات السود»، وامتدادًا لكلّ ذلك الاتّجاه الذي ينادي بضرورة «أهلنة» indigénisation المعرفة في العلوم الاجتماعيّة، في خلق ظروف التّحوّل في الكتابة التاريخيّة في البلاد التونسيّة، خاصّة بداية من تسعينات القرن العشرين.

في الواقع، كان النظام السياسي في تونس منذ الاستقلال منخرطًا في حراك متواصل. ومن المفيد أن نرى كيفية مرافقة إنتاج المعرفة التاريخيّة لهذا الحراك. وعلى نحو عامّ كانت

العلاقة بين المعرفة التّاريخيّة والفاعلين الاجتماعيين ذات معنى، خاصّة إذا كانت هذه المعرفة محملاً لعدد من القيم: فالفاعلون يُضفون عادة معنى على كلّ ذي قيمة بالنّسبة إليهم، ويعطون كذلك قيمة لكلّ ذي معنى بالنّسبة إليهم أيضا. وهذا يدلّ على أنَّ هذه المعرفة التاريخيّة ترمز إلى تمثّلات وطموحات ومشاريع جماعيّة.

عندما تُوجد علاقة بين الهويّة وهذه المعرفة، تتعرّض عمليّة بناء الكتابة التاريخيّة إلى ضغوطات «شرعيّة»؛ قد يكون مصدرُها الدولة، أو مشروعًا إصلاحيًا، أو وطنيًا، أو دينيًا... الخ. وعادة ما تتأسّس هذه «الشرعيّة» على وفاق يحصل حول «حقائق» تبدو «متينة»، لأنَّها هي أيضًا تبدو «شرعيّة». لذلك، تكون الحاجة إلى إعادة بناء المعرفة التاريخيّة كثيرة التواتر لدى الفاعلين السياسيين في تونس، وخاصّةً لدى النُّخب السياسيّة. وقد حصل ذلك عندما استقلّت البلاد بعد مرحلة المقاومة للهيمنة الاستعماريّة، وكذلك بعد الثّورة التونسيّة (ديسمبر 2010 – جانفي 2011). ويحتاج مثل هذا التواتر إلى مساءلةٍ وتحليلٍ حتّى نفهم الوضع الذي يضفيه الفاعلون (السّياسيون خاصّةً) على هذه المعرفة التاريخيّة، وكذلك الهويّة الّتي تنشأ بعلاقة تربطها بها. لذلك أيّ تفكير متعلق بتلك المعرفة التاريخيّة يجب أن يعتني في الوقت ذاته بالتفكير في الوضع الذي تحظى به هذه المعرفة لدى أطراف من المجتمع التونسيّ.

تركّزت، في تونس بعد الاستقلال، مؤسّسة مختصّة في انتاج معرفة تاريخيّة حول الحركة التّحرريّة الّتي سبقت الاستقلال. وهذا يعني أنَّ النُّخبة السياسيّة التونسيّة، الّتي تتحرّك في إطار الاديولوجيا الوطنيّة، أرادت أن تثبت بقوة المال العمومي الشرعيّة الاجتماعيّة للمعرفة التاريخيّة حول الحركة التحرريّة. ومن الطبيعي أن تطغى على هذه المعرفة الذاكرة التاريخيّة والطابع التراثي؛ فيحصل نتيجةً ذلك «الانتقاء» و«التحريف» من أجل بناء معرفة

تاريخيّة «تبريريّة» بامتياز. لا بد من القول في هذا السياق، إنَّ المؤرخين التّونسيين في هذا المعهد لم ينخدعوا بهذا الوضع، الأمر الذي أعطاهم هامشًا واسعًا من الحريّة، وذلك من خلال تبنيّهم، شكليًّا على الأقلّ، منطق الأهداف المؤسسيّة.

منذ نهاية تسعينيات القرن العشرين وخاصّةً بعد القطيعة المعرفيّة الّتي حصلت مع الثّورة التونسيّة، عمل العديد من المؤرِّخين التّونسيين على الخروج من مجموعة من «السّجون المعرفيّة» كثيرا ما كبّلت عملهم البحثي إلى حدّ ذلك التاريخ. لنأخذ مثالاً على ذلك في هذا المجال.

أصبح التاريخ في البلاد التونسيّة، منذ القرن السّابع عشر على الأقلّ، علم الدولة الأوّل؛ فشكّلت الكتابة التاريخيّة سلطة معرفيّة تقوم على إقصاء وتهميش واستبعاد كلّ من يناهض فكرة الدولة. ونَصَّبَ المؤرخ نفسه منذ ذلك التاريخ وصيًّا على الدولة القائمة، وحاميًا ومشرّعًا أيضا. ومنذ تلك اللّحظة، أصبح المؤرِّخ يسخّر طاقته لبناء الدولة بقلمه، مثلما يبنيها أصحاب النفوذ بقوة السّلاح تماما. فكلّ ما يكتبه يصب، من حيث لا يشعر، في مصب واحد، هو بناء الدولة في كلّ أوضاعها ومراحلها: فهي الدولة المجاليّة/الترابيّة من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أيضا، وهي الدولة الوطنيّة بالنّسبة إلى الفترة اللّاحقة بعد الاستقلال. ولم يحصل الوعي بالنّسبة إلى المؤرِّخ التّونسي، من حيث كونه لا يدرس الدولة كظاهرة اجتماعيّة وموضوعًا مستقلًّا في حدّ ذاته، وإنَّما يتناولها وكأنَّه عنصر فاعل فيها، ومن ثمّ تبرز شخصيّة المؤرِّخ على أنَّها تبني الدولة من الدّاخل. وبذلك أصبح المؤرِّخ «سجين» الدولة. ولم يَجْرِ الخروج من «سجن الدولة» إلّا عَبْرَ مساءلةٍ لعمليّة بناء الدولة ومقوّماتها وذلك من خلال تفادي التّفكير فيها بتصنيفات الدولة ذاتها ومقولاتها. وحصل الشيء نفسه لظاهرة الذاكرة التاريخيّة. فالخروج من «سجن» الذاكرة يجري بمساءلة الذاكرة من حيث هي بناء اجتماعيّ، ومن حيث مساءلة استعمالاتها أيضا. وقد جرى نفسه تقريبا بالنّسبة أيضا إلى «سجن» الاتنومركزيّة في كلّ أشكالها ومهما كان مصدرها وموضعها.

الحصة الرابعة: ينابيع الكتابة التاريخية في تونس
رئيس الجلسة : محمّد حسن

الساعة : 14.45
محمد المريمي : الكتابة الإباضية بتونس والأزمنة التاريخية عند سعيد بن تعاريت المتوفى في سنة 1289 هـ / 1872 م.
رياض بن خليفة : الروابط العائلية وتحديات الكتابة البيوغرافية في تونس: الحبيب عاشور ربان الاتحاد العام التونسي للشغل (1913 - 1999).
صغيرة بنحميدة : الكتابة في تاريخ تونس البحري حقل يمثل الإضافة في الأستغرافيا التونسية

نقاش : 15.45 - 16.15
استراحة : 16.15 - 16.30

ليلى زغدود : توظيف الذاكرة في الكتابة التاريخية من خلال كتاب تاريخ العدواني.
اسمهان اليوسفي : «البيوغرافيا» في الكتابة التاريخية التونسية.

نقاش: 17.30 - 18.00

يوم 11 جويلية 2024

افتتاح الندوة : الساعة 9.30
- كلمة رئيس المجمع
- كلمة منسق فريق البحث «دراسات مغاربية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية»

الحصة الأولى: أي معرفة تاريخية في تونس؟
رئيس الجلسة : فتحي ليسير

الساعة : 10.00
حياة عمامو : هل توجد مدرسة تاريخيّة تونسيّة؟
فوزي محفوظ : الخارق والعقلاني في الكتابات التاريخية العربية الوسيطية، أمثلة إفريقية.
عبد الحميد هنية : المنعرجات المعرفية والمنهجية في الكتابة التاريخية التونسية.

نقاش : 11.00 - 11.30
استراحة : 11.30 - 11.45

محمّد حسن : مكانة الجغرافية التاريخيّة في كتابة تاريخ إفريقيّة الوسيط.
منير الفندري : تاريخ تونس والمغرب العربي من منظور التأريخ الألماني، أوغست لودفيج شلوتسر مثالا.

نقاش:12.25 - 12.55

الحصة الثانية: في شخصية المؤرخ
رئيس الجلسة : فوزي محفوظ

الساعة : 14.30
فتحي ليسير : «الرئيس مؤرّخا». تأمّلات في تمثيل بورقيبة للزمن التاريخي التونسي وفي تحقيبه (1956 - 1968).
جمال بن طاهر : السلطة التعليميّة للأستاذ محمد الهادي الشريف وتأثيره في الكتابة التاريخية في تونس
مصطفى التليلي : الصغيّر بن يوسف الباجي (1697 - 1771) وبوادر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

نقاش : 15.30 - 16.00
استراحة : 16.00 - 16.15

أحمد الباهي : من تونس إلى إفريقية، أو في استدعاء ابن أبي دينار للتاريخ الوسيط لإفريقية.
زكية لوم : الكتابة التاريخية لدى محمد حسين فنطر : التاريخ، الذاكرة، الهوية.

نقاش: 16.55 - 17.25

يوم 12 جويلية 2024

الحصة الثالثة: الكتابة التاريخية والرهانات الاجتماعية
رئيس الجلسة : منير فندري

الساعة : 10.00
محمد الأزهر غربي : كتابة «تاريخ تونس العام» : التحولات والرهانات (من مطلع القرن العشرين إلى مطلع القرن الواحد والعشرين).
سعيد بحيرة : ماذا يحصل عندما تُقْحَمُ الهوية في صياغة المعرفة التاريخية ؟
حياة الماجري : «إعادة كتابة تاريخ البلاد التونسية» بين المطلب السياسي والأكاديمي: الممارسات والرهانات.

نقاش : 11.00 - 11.30
استراحة : 11.30 - 11.45

صلاح الدين بن فرج : سياسة التحديث الاجتماعي في تونس: رهاناتها ومبرّراتها.
ريم اليعقوبي: التجربة التونسية في كتابة التاريخ الغربي: الروّاد، والمناهج، والمقاربات.

نقاش : 12.45 - 13.15

تأمّلات في المضامين الفلسفية لكتاب رفيق بوخريص:

«الحياة والديناميكا الحراريّة
أو واقع الطاقة المتعدّدة الأشكال وأقنعتها»

عزالدين العامري(*)

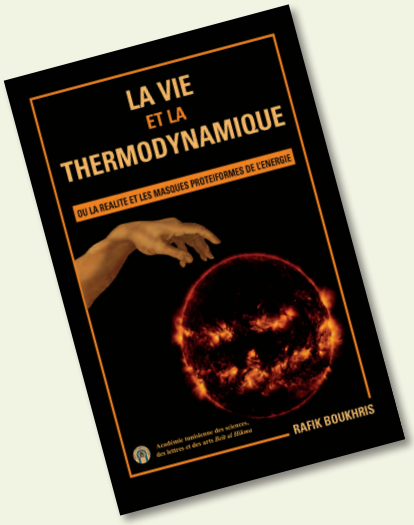

ما الجدوى من الانشغال بالأسئلة الكوسمولوجيّة؟ وما الغاية القصوى من الفلسفة والعلم؟ ولماذا ترتهن رحلة اكتشاف الحقيقة بقيم التواضع العلمي؟ وكيف تتجلى العلاقة الحميمة بين أشكال المعرفة والفلسفة؟ ولماذا يعتبر علم الأعصاب مواصلة جزئيّة لفلسفة الأمس، وواسطة عقلانيّة للوعي بحقيقة الوجود؟ وهل يمكن اختزال أبرز عوائق التقدّم العلمي والفكر الحر؟

يطرح الدكتور رفيق بوخريص هذه الأسئلة العويصة التي تحتمل الكثير من الأجوبة والعديد من التأويلات في كتابه «الحياة والديناميكا الحراريّة أو واقع الطاقة المتعدّدة الأشكال وأقنعتها» الصادر باللغة الفرنسيّة:

La vie et la thermodynamique ou la réalité et les masques protéiformes de l'énergie

ضمن منشورات المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» سنة 2022، ثمّ نشر المجمع نسخته المعرّبة في السنة الموالية.

ويتنزّل الكتاب في نظر معرّبه الدكتور عبد المجيد الشرفي في سياق المؤلّفات التي تتخطى مضامينها المختصين لأنّ «المعتني بالقضايا المعرفيّة التي يواجهها في راهنه

(*) كاتب وإعلامي.

يتحتّم عليه الاهتمام بالنظريات المتعلّقة بالقوانين التي يسير عليها الكون وبنشأته ومصيره ومنزلة الإنسان فيه»[2].

فالتخصّص الذي أملته الثورات العلميّة المتتاليّة آليّة أساسيّة من آليات النجاعة المعرفيّة وفقا للكثير من المقاربات الإبستيمولوجيّة. لكن منطق الاختصاص لا يبرّر لأيّ مهتمّ بالشأن المعرفي الجهل بما يحدث في المجالات الأخرى، وفي المناهج العلميّة المتجدّدة باستمرار، لأنّ الإنتاج الفكري التائق إلى الحدّ الأدنى من الموضوعيّة ملزم بمواكبة هذه التحوّلات، وبالاطلاع على المستجدات المعرفيّة الكونيّة من أجل توظيف الإرث الفكري الإنساني في مسيرة فهم ما يحدث ومراجعة ما يجب مراجعته. فحقيقة اليوم قد تكون مخالفة لحقيقة الماضي، وليست بالضرورة مطابقة لاكتشافات المستقبل.

ومن الحكمة وضع جميع المعارف موضع تساؤل، لأنّ تاريخها كما يعرّفه الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار Gaston Bachelard المهتم بتكوين العقل العلمي وبالعقلانيّة التطبيقيّة هو «تاريخ تصحيح الأخطاء» عبر القطيعة الإبستيمولوجيّة الاتصاليّة، بمعنى التصحيح المتواصل الذي يمليه منطق التطوّر التدريجي. فكلّما تطوّرت العلوم الرياضيّة مثلا تأثّرت جميع المعارف المستخدمة لمسلّمات ومعادلات علم الرياضيات. وحينما يجدّد علم الفيزياء نفسه ترغم الحقول المعرفيّة المرتبطة بالمفاهيم الفيزيائيّة على إعادة النظر في حقائقها. وكذلك الشأن بالنسبة إلى العلوم الإنسانيّة، فعندما تتطوّر مقاربات علم النفس يؤثّر ذلك في الأطروحات السوسيولوجيّة والأنثروبولجيّة وحفريات المؤرّخين، وحينما يكتشف أيّ علم من علوم الإنسان حقائق جديدة تجبر العلوم الأخرى المهتمة بالنسيج الإنساني على تجديد نفسها. بالمعنى الوجيز لا يمكن لأيّ جنس معرفي أن يكون ضفّة معزولة عمّا يحدث حولها.

وفي هذا الإطار يؤكّد الدكتور رفيق بوخريص على الارتباط الوثيق بين جميع الإنتاجات الفكرية، من أجل الدربة على فهم معنى الحياة ومنزلة الإنسان في الكوسموس Cosmos. فالبحوث الفيزيائيّة في نظره تمثّل بوّابة لاقتحام ضفّة معنى الحياة، واكتشاف أسرار التجربة الوجوديّة. لنستشف ممّا تقدّم كيف تشكّل كلّ إجابة فيزيائية أو تساؤل فيزيائيّ قضيّة فلسفيّة تقتضي التأمّل الأنطولوجي والكوسمولوجي، بمعنى تتجدّد الأسئلة الوجوديّة حينما تتجدّد اكتشافات ونتائج البحوث العلميّة. ومن الطبيعي أن تملي هذه المستجدات المعرفية تحوّلات في طبيعة تأمّلاتنا الأنطولوجية، وفي تجاربنا الوجوديّة اليومية، وفي فهمنا لنسيج معيشنا، وفي طبيعة استيعابنا للكوسموس. وعليه نكون ملزمين على دوام بإعادة النظر في الكثير من الحقائق والمفاهيم. ولن يسلّم بخلاف ما تقدّم إلاّ الفكر الجامد، والمنطق المتحجّر بسبب نزعته الوثوقيّة (esprit dogmatique)، وأوهامه المكبّلة لإرادة البحث ولروح التساؤل. وهنا تحديدا تتجلى مسافة التباعد بين الوعي العلمي المفتوح، الذي يفكّر، ثمّ يفكّر في مدى وجاهة فكره باطّراد، واضعا جميع قناعاته، وكافّة قيمه، وكلّ مفاهيمه محلّ تساؤل وفقا للحسّ الإشكاليّ، بما في ذلك ما يصنّفه البعض ضمن البديهيات، والوعي الأسطوري المغلق الذي يفكّر مرة واحدة وللأبد. بل هو لا يفكّر مسلّما نفسه بكلّ طاعة ووداعة لمن يفكّر له، لأنّ كسله الذهني والسيكولوجي يعادي عناء التفكير، ويخجل من اقتسام لحظة التأمّل مع سادته وأوصيائه، فلن يجرؤ على استعادة أحكامهم، وقيمهم، وشعاراتهم، ومفاهيمهم،

2 –: تعريب الدكتور عبد المجيد الشرفي ص9 من الكتاب

وأطروحاتهم، ومقدّساتهم للحساب الخاص، ولو سعياً إلى مجرّد إبداء الرأي، أو طرح الأسئلة حول ما يحدث حوله، وإن كان في علاقة بوجوده الحميمي جدّا لأنّ صنّاع قراره ومصيره تكفّلوا بذلك، وهو في غاية التنعّم بهذا المعيش الوجودي الملغي لكيانه.

كذا هو الاغتراب (l'aliénation)، الذي يفكّك أسبابه وطبيعته ونتائجه الدكتور رفيق بوخريص في مؤلّفه عبر التمييز بين «الحياة البيولوجيّة» المماثلة للحياة الحيوانيّة «وسرّ الحياة»، موظّفا الكثير من المرجعيات الفلسفيّة المهتمّة بمنزلة فهم قضايا الوجود ومعنى الحياة وأسرار الكون. فالغاية القصوى بالنسبة إليه طرح الأسئلة والتوق إلى الفهم، إذ يقول في هذا الصدد: «والغاية الكبرى للفلسفة وللعلم هي الفهم، والفهم خصوصا. وهدفهما البعيد هو محاولة اختراق الطبيعة والقوانين الفيزيائيّة لكون غير واع في الظاهر، والقوانين البيولوجيّة التي يخضع لها الحيّ. وتكمّل تلك الغايات مقاربة في نظريّة المعرفة وامتدادها إلى إمكانيّة (أو عدم إمكانيّة) الوصول إلى معرفة ما يحيط بنا»[3] فلن يدرك المرء جوهر منزلته الوجوديّة في نظره إلاّ عبر جهود الفهم، معتمدا في هذا المجال تأريخا معرفيّا مفاده سعي جل الفلاسفة والعلماء إلى إثارة الأسئلة اللامتناهيّة منذ الحضارات القديمة. بل إنّ الأساطير القديمة كانت مفعمة بهوس المعرفة المتمثّل في ضروب الأسئلة والدهشة والشك، وهذا ما يختزله لوكراس Lucrèce في قوله: «ذاك الرعب وتلك الظلمات التي للنفس، ينبغي تبديدها. لا الشمس ولا ضوء النهار قادران على اختراقها، بل يقدر على ذلك البصر وتفسير الطبيعة. ومبدؤها هو ذا، وسيكون لنا بمثابة التصدير. لا شيء يولد من لا شيء... ما إن نرى أن لا شيء ينشأ من لا شيء حتى ندرك موضوع بحثنا إدراكا أفضل»[4]

ومن البديهي جدّا أن يؤكّد هذا القول نزوع الفلاسفة والعلماء منذ الحضارات القديمة نحو التفسير السببي للظواهر والقضايا المطروحة. أليست عبارة «لا شيء ينشأ من لا شيء» داحضة للتفسير الخرافي والفهم السطحي، والتأويلات الميتافيزيقيّة لظواهر قابلة للتفسير السببي! فهذه المقولة تعبّر عنها الأطروحات الفلسفيّة والمقاربات العلمية بمبدأ السببيّة أو العليّة، الذي بواسطته يمكن تفسير الظواهر إن كانت طبيعيّة أو اجتماعيّة أو سياسية. وفي هذا السياق يعرّف الفيلسوف الإغريقي أرسطو العلم على أنّه معرفة الأسباب، وكذلك الشأن بالنسبة إلى بعض الفلسفات الوسيطة مثل الرشديّة (نسبة إلى الفيلسوف ابن رشد) التي تعتبر مبدأ العليّة شرطا أساسيّا لفهم وتفسير الظواهر للقطع مع التفكير المتهافت، مستخدمة أساليب «الاستدلال العلي» و«الاستنتاج العلي» و«الحجاج العلي». بالمعنى الوجيز إنّها النزعة التفسيرية المميّزة لخطاب الفلاسفة وتحليل العلماء، تلك التي يدعو إليها الدكتور رفيق بوخريص في كتاب غنيّ «بمادة غزيرة للتفكير والتأمّل والتدبّر»[5] كما يقول المعرّب في خاتمة تقديمه. ويمثّل هذا الفضول المعرفي وفقا للكاتب قاسما مشتركا بين التأمّلات الفلسفيّة والبحوث العلميّة لأنّ «الغاية الكبرى للفلسفة وللعلم هي الفهم، والفهم خصوصا. وهدفهما البعيد هو محاولة اختراق الطبيعة والقوانين الفيزيائيّة لكون غير واع في الظاهر، والقوانين البيولوجيّة التي يخضع لها الكائن الحيّ. وتكمّل تلك الغايات مقاربة في نظريّة المعرفة وامتدادها إلى إمكانية (أو عدم إمكانية) الوصول إلى معرفة حقيقة ما

3 – ص 15من الكتاب

4 – ص 16 من الكتاب

5 – ص 12 من الكتاب

يحيط بنا»[6] فالمطلوب من الوعي الإنساني «اختراق الطبيعة» بدل خشيتها، ومعرفة «القوانين البيولوجيّة» للتحكّم فيها، والإلمام بما «يحيط به» لتحقيق سيادته. ألم يؤكّد ديكارت Descartes منذ القرن السابع عشر على أنّ «الإنسان سيّد للطبيعة ومالك لها» عبر العلم وسيادة الفكر العقلاني! لذلك جعل الفلاسفة والعلماء من «معضلة البشر» إشكاليّتهم المركزيّة في مشاريعهم المعرفيّة منذ الحضارات القديمة، بل إنّ العديد من الأساطير القديمة كانت هوسا معرفيا.

وفي هذا المجال يذكّر رفيق بوخريص بأسطورة بروميثيوس Prométhée التي تمثّل حسب مقاربته ثورة ضد الآلهة من أجل المطلب المعرفي. والذي يقتضي في نظره تسلّح الذات العارفة بقيم التواضع العلمي، فما هي أبرز مظاهر هذه الإيتيقا Éthique المعرفية؟

يتضمّن الكتاب أجوبة عميقة ودقيقة تبرز الرهانات المعرفية للتواضع، إذ يقول الكاتب في هذا الصدد: «يجب أن نتحلى في محاولاتنا للفهم بكثير من التواضع حتى نتخلّص من حمل المركزية الإنسانية البالغ الثقل، وألاّ نعتبر البشر موضوع الكون المركزيّ. فقد حقّق الذكاء البيولوجي لدى الحيّ إنجازات فذّة عديدة لسنا قادرين بعد على فهمها. ويوصينا كثير من الباحثين بأن لا نكون مغرورين»[7]. فالتواضع وفقا لأطروحته ليس مطلبًا أخلاقيا، بقدر ما هو قيمة معرفيّة قصوى، تحتّمها رحلة اكتشاف العالم، وتمليها مسيرة اقتحام حقيقة الذات. وممّا يؤكّد إيمانه القطعي بالتواضع العلمي عدم استخدامه في هذا السياق عبارة تفسير العالم، إذ استخدم مصطلح «محاولات الفهم» لأنّه حفيد الفلاسفة والعلماء المؤمنين بالمنزلة المعرفية لدربة الفهم، والمشدّدين على أنّ «الأسئلة أهمّ من الأجوبة» حسب عبارة الفيلسوف والطبيب النفسي الألماني كارل ياسبرس.Karl Jaspers. فمن الطبيعي أن تكون عبارة محاولة الفهم أكثر صوابا في رحاب المعرفة باعتبارها مسلّمة بالنسبية، لذلك يميل لوغوس Logos الفلاسفة إلى استعمالها بانتظام، على خلاف المدّعين امتلاك اليقين المتمسكين بهواجس تفسيرية موهمة بإدراك الحقيقة المطلقة. وأدّت هذه النزعة التفسيرية على نحو قطعي إلى ظهور تيارات آمنت «بمركزية الذات العارفة» وهو ما ترفضه عديد المدارس الفكرية والدراسات التفكيكية والنقدية، مزعزعة هذا التورّم المعرفي.

ويتنزّل كتاب بوخريص في هذا التوجّه التنسيبي (la relativité)، إذ تدعو مضامينه إلى ضرورة التعامل بحذر مع معارفنا كي نواصل مسيرة مطاردة الحقيقة تجنّبا لفخاخ الفكر اليقيني الذي تكرّسه تقاليد الحسم القطعي في القضايا المطروحة. وكم هي كثيرة النتائج، والمسلّمات، والنظريات، والمناهج التي تتجدّد يوميا ! وكم هي شاسعة المسافة بين العقول النائمة في كهوف المطلق، والعقول اليقظة بفضل قلق أسئلتها! وللتأكيد على سذاجة المهووسين بالمنطق القطعي انطلق الدكتور رفيق بوخريص من تحوّلات نوعية في الكثير من الأجناس العلمية، مبيّنا كيف تثق الإنسانية في نظريات ومسلّمات ثمّ يتخطاها العلم اللاحق أو يعدّلها، وفي الحدّ الأدنى يثريها بمفاهيم أكثر نجاعة. فمركزية الأرض مثلاً «تعيّن انتظار القرنين السادس عشر والسابع عشر لكي يزيل كوبرنيك Copernic (1473 – 1543) الأرض عن عرشها باعتبارها مركز الكون ويعطيها وضعها الحقيقي الهامشي جدا. وأكمل كيبلر Kepler (1571 – 1630)

6 – ص15 من الكتاب

7 – ص18 من الكتاب

وغاليلي Galilée (1564 – 1642) تحقيق الثورة الكوبرنيكية بصفة نهائية»[8]

فإن كانت نتائج العلوم محلّ نقاش، كيف تدّعي الحقول المعرفية الأخرى وجاهتها المطلقة؟ وإن كانت مسيرة البحوث المعرفية مفتوحة بانتظام، لماذا نصادر من أنفسنا حقّنا في ممارسة فضولنا المعرفي؟ ألم يدعنا آينشتاين Einstein إلى أن نظلّ فضوليين أمام أسرار العالم! وتجسّدت هذه الدعوة بوضوح في قوله: « لا ينبغي أن تشيخ مهما كانت مدّة حياتك. لا تتفكّ على أن تسلك سلوك الأطفال الفضوليين أمام السرّ الكبير الذي ولدنا في رحمه»[9] فالشغف الأساسي للذات البشرية كامن في سعيه الدائم إلى طرح الأسئلة وتجديد النظر في المعادلات والحقائق لأنّ «المعرفة محدودة، والخيال يحضن العالم»[10] على حدّ عبارته. ومن الطبيعي جدا ألاّ تعني محدودية المعرفة القصور، بل تترجم نسبية كافّة الحقائق في ظلّ مواطن الإبهام وتعدّد الأبعاد لجلّ القضايا المطروحة. فكلّما حسمت معارفنا قضايانا، انبرت إشكالات جديدة، ومتى يفيض العقل العلمي بجديد اكتشافاته، تطفو أسئلة كانت مخفية. وفي هذا الإطار يقول الكاتب: «كنّا منذ قرن نجهل تقريباً كلّ شيء عن الفضاء وعن الكون. ونعرف الآن... أنّ كلّ شيء حركة، ومجرّتنا تتحرّك في الفضاء بسرعة 600 كلم في الثانية، وشمسنا في حركة داخل المجرّة بسرعة متوسّطة بأكثر قليلا من 200 كلم في الثانية. وتدور الأرض حول الشمس بسرعة متوسّطة ب30 كلم في الثانية وتدور حول نفسها بسرعة أقل بقليل من 500 متر في الثانية»[11] مؤكّدا عبر

8 – ص 19 من الكتاب

9 – ص 29من الكتاب

10 – نفس الصفحة

11 – نفس الصفحة

هذه الاكتشافات التصحيح المستمر للقوانين العلميّة. فما كانت تفسّره العقول الكلاسيكية بتأويلات ميتافيزيقية، أخضعته مخابر العلم لإرادتها المتجدّدة عبر التراكم. وعلى الرغم من القطيعة التي أحدثها العلم الحديث مع العلوم الكلاسيكيّة، إلاّ أنّ المتأمّل في تاريخ البحث العلمي يدرك استحالة الإقرار ببلوغ الحقيقة القطعية. وفي هذا الصدد ينطلق المؤلّف من حقول علمية مختلفة تؤكّد قاعدة التجاوز، وتجاوز المتجاوز، ففي مجال الفيزياء مثلا يشير إلى أنّ «أوّل تغيير أدخله أينشتاين هو تغيير النسبيّة الخاصّة التي تتعلّق بحركة الأجرام ذات السرعة المتّجهة (التي تقترب من سرعة الضوء) التي لا تنطبق عليها قوانين الميكانيكا النيوتنيّة»[12] وما أكّده أينشتاين، طوّره العلم اللاحق، ممّا يؤكّد قاعدة تجدّد الحقيقة، وإن كنّا في مجال ما يسمى بالعلوم التجريبية والصحيحة التي أضحت احتماليّة في الكثير من مضامينها. وعليه يكون التواضع بالمعنى العلمي حتميّة أملاها مفهوم النسبية وثورة الاحتماليّة (la probabilité)، إذ أصبح الحقل المعرفي حقيقة في انتظار من ينفيها أو يطوّرها، وفي الحدّ الأدنى تكون معرفة أولية في انتظار ما تمليه اكتشافات علمائها وما تحتّمه مستجدات الحقول المعرفية الأخرى.

لذلك يقول فيلسوف العقلانية العلمية كارل بوبر Karl Popper : «لا وجود لكتاب يمكن الفراغ منه. وبينما نشقى في كتابته فإنّنا نتعلّم ما فيه الكفاية لكي نجده غير ناضج في الوقت ذاته الذي نستعدّ فيه لتركه»[13] مزعزعًا بذلك عرش اليقين، لأنّه خبر جيّدا الطبيعة المفتوحة للعقلانية العلمية، تلك التي تراهن على تاريخيّة الفعل المعرفي بوصفه متحوّلا وفقا لتحوّلات سياقاته الموضوعية.

12 – ص 31 من الكتاب

13 – ص 317 من الكتاب

باختزال شديد، تؤكّد جلّ الدراسات الإبستيمولوجية على الارتباط الوثيق بين المنطق الفلسفي وجميع الإنتاجات الفكرية. فالمعرفيّ مجدّد لنفسه عبر الحس الإشكالي الفلسفي وهو ما يتمسّك به المؤلّف في كافّة فصول الكتاب، شعاراته في ذلك «الفلسفة هي الرغبة في معرفة الأشياء» و«الشغف المعرفي» وتعطّش البشر للفهم» وسؤال «لماذا نحن هنا؟ ومن أين أتينا؟» و«بداية الفلسفة هي علم الطبيعة...هي العلم ذاته» إنّها شعارات فلسفية بامتياز باعتبارها حائرة ومثيرة لقلق فلسفيّ، من رحمه يولد الفضول المعرفي. بالمعنى الوجيز لا يمكن في اعتقاده أن تواصل سفن المعرفة رحلاتها الاستكشافيّة إن لم تكن شراعها فلسفيّة. فعلم الأعصاب وفقا لمقاربته «مواصلة جزئيّة لفلسفة الأمس» وهو كما يقول: «الغصن العلمي الذي يسمح بتجميع رصد العلم وحدس الفلسفة، دون أن يكون حبيس الأشكال الآلية للعلم، والضياع اللاعقلاني أحياناً للفلسفة»[14]. وهو حسب مقاربته واسطة عقلانية وفعّالة لفهم العالم وظّفت أسئلة الفلاسفة وحيرة تساؤلاتها من أجل وضع الظواهر فوق طاولة التشريح العلمي.

صفوة القول تعدّ مغامرة الفلاسفة المتمثّلة في طرح الأسئلة وفقا للكاتب حاضنة أساسية لتطور البحوث العلمية لأنّ الفكر المستبد والمتحجّر رافض بطبعه لهذه الطاولة التشريحية على امتداد الفترات التاريخية المتتالية. ومن أبرز تلك الأفكار المستبدّة المؤسّسات التي نصّبت نفسها ممثّلة للدين، موظّفة المقدّس لحسابها الخاص، ولحلفائها من السياسيين، ولمن تنسجم مصالحهم مع تلك السلط الدينية، وفي هذا المجال يذكّر الكاتب بعديد الانتهاكات التي استهدفت الفلاسفة والعلماء باسم الدين منذ العصور القديمة. ويقول في هذا المجال: «وقد صاحبت التقدّم العلمي على الدوام (منذ العصور القديمة) معارضة عنيفة من قبل رجال الدين ومن كل الأديان»[15]، مذكّرًا بالكثير من الجرائم التي ارتكبتها فئات ناطقة باسم المقدّس على غرار «تعليق عالم الرياضيات الإيطالي جيور دانو برينو Giordano Bruno عاريا ورأسه إلى الأسفل ثمّ حرقه على المحرقة»[16]. وكذلك الشأن بالنسبة إلى عديد الفلاسفة والعلماء من سياقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الهدف من هذه الجرائم والانتهاكات القضاء على حريّة التفكير الحرّ وجرأة البحوث العلمية، ودفع هذا التنكيل بالعلماء وبالمفكرين عبر السجون والتعذيب والخنق وقطع الرؤوس إلى تنكّر بعضهم لآرائهم وهروب البعض الآخر. ومن الطبيعي جدّا أن تتحالف كل القوى المعادية للفكر الحر ضدّ تأمّلات الفلاسفة ومخابر العلوم. وفي المقابل يشكّل لوغوس Logos الحكماء والعلماء تحالفاً مضادّا لأنّ القاسم المشترك بين الخطاب الفلسفي والمنطق العلمي يتمثّل أساسا في قيم التفكير الحر، فكلّما طرحت الفلسفة أسئلة جديدة اتسعت آفاق البحث العلمي، وحينما تتطوّر المناهج العلمية تنبثق تيارات فلسفية جديدة.

وعليه تكون علاقة الفلسفة بالعلم حميمة كما وصفها الأكاديمي رفيق بوخريص إلى حدّ صعوبة تشخيص مواطن التمييز بينهما، وتسلّم جلّ الدراسات الإبستيمولوجية المعاصرة بهذا الارتباط العضوي لأنّ المنطق الفلسفي علميّ في جوهره، والمبحث العلمي فلسفيّ في عمقه بوصفه تساؤليّا بالضرورة.

14 – ص 17 من الكتاب

15 – ص19 من الكتاب

16 – نفس الصفحة

الدراسات القرآنية، بين التاريخ واللاهوت والتفسير

Qur'ānic Studies

Between History, Theology and Exegesis

عمل جماعي تحت إشراف مهدي عزيز ومقداد عرفة منسية

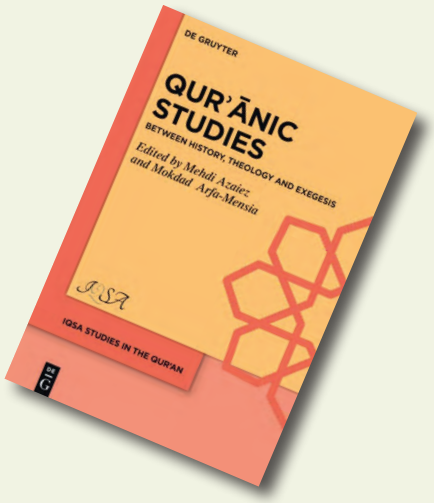

تقديم
مقداد عرفة منسية(*)

نظّم قسم الدراسات الإسلاميّة يوم 10 جانفي 2024 بقصر المجمع لقاء تمّ فيه تقديم كتاب جماعيّ عنوانه:

Qur'ānic Studies: Between History Theology and Exegesis

«الدراسات القرآنية: بين التاريخ واللاهوت والتفسير»

وكان ذلك بمشاركة قسم الدراسات بالمجمع، و KULeuven, IQSA, UClouvain, De Gruyter وسهر على التنسيق السيد رئيس القسم الأستاذ احميدة النيفر، وقام بالتقديم الأستاذان مهدي عزيز ومقداد عرفة منسية. وشمل الافتتاح كلمات السيد رئيس المجمع الأستاذ محمود بن رمضان، والسيد رئيس المجمع سابقا الأستاذ عبد المجيد الشرفي، والسيد رئيس قسم الدراسات الإسلاميّة الأستاذ احميدة النيفر. وفي الجلسة الأولى تولّى المحرّران العلميّان للكتاب الأستاذان مهدي عزيز ومقداد عرفة منسية تقديم الكتاب من حيث المضمون العلميّ والرهانات. وخصّصت الجلسة الثانية لمقاربات تأليفيّة لعدد من المساهمين في الملتقى والتي جمعت منها موادّ الكتاب، وهم الأساتذة: محمد بوهلال، وسارة التليلي، ومحمد الحاج سالم، ونادر الحمّامي ونجم الدين خلف اللّه، ومحمد الشتيوي، وعبد المجيد الشرفي، ومهدي عزيز، وحافظ قويعة، وإيمان مخينيني، ومقداد عرفة منسية، واحميدة النيفر. أمّا الجلسة الثالثة

(*) مجمعيّ وأستاذ الفلسفة بكلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس.

فقد خصّصت لأسئلة الحضور والنقاش العام.

التعريف بالكتاب

Qur'ānic Studies: Between History Theology and Exegesis

«الدراسات القرآنية: بين التاريخ واللاهوت والتفسير»

Edited by Mehdi Azaiez and Mokdad Arfa Mensia,
Walter De Gruyter GmbH, Berlin/Boston, 2023

الكتاب ثمرة تعاون بين ثلاث مؤسّسات دوليّة: المجمع التونسيّ للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة»، والجمعية الدولية للدراسات القرآنية (International Quranic Studies Association IQSA)، وجامعتا لوفان الكاثوليكيّتان KUL وUCL . وهو يتضمّن بالأساس وقائع الملتقى الذي عقد بالمجمع «بيت الحكمة» أيّام 4 و5 و6 جويلية 2017 والذي شارك فيه أكثر من عشرين باحثا قدموا من كلّ نواحي العالم (أمريكا الشماليّة وأوروبا والمغرب العربي والشرق الأدنى).

مضمـون الكتـاب

على مدى السنوات العشرين الماضية، مثّل ازدهار الدراسات القرآنية أحد أبرز التطورات في علم الإسلاميّات المعاصر. وهناك ثلاثة أسباب رئيسية لهذا التطور: تجديد المصادر المتاحة، واستخدام منهجيات جديدة، والأخذ في الاعتبار التوجّهات التأويلية غير المسبوقة.

والمثال الذي يوضّح هذه التطوّرات هو مجهود الباحثين الفعليّ والمتزايد وتنامي المنشورات، والأطروحات، والملتقيات، ومشاريع الدراسة والبحث المخصّصة للقرآن خلال العقدين الأخيرين.

وتوجد هذه المجموعة العلميّة بالأساس في البلدان الأوروبيّة وبالولايات المتّحدة الأمريكيّة، ولكنّ آثار أعمالها لا تقف عند حدود هذه البلدان، إذ ما يزال تقبّل هذا العمل ونشره في البلدان ذات الأغلبية المسلمة مستمرّين. وهذه البلدان لها بدورها إسهامات ذات بال في المجال. وهو ما يبشّر بتعاون مثمر من شأنه أن يولّد حوارا حقيقيّا بين الباحثين. ويجمع هذا الكتاب إسهامات خبراء ينتمون إلى هذه المجموعة من الباحثين ذوي الأصول المغاربيّة والشرق أوسطيّة والأمريكيّة، يحدوهم طموح مشترك، وهو تطوير دراسة القرآن الأكاديميّة، وذلك بتنمية التعاون العلميّ والنزيه العابر للحدود.

صدّر الكتاب الأستاذان عبد المجيد الشرفي و Gerald Hawting وقدّم له بالأنجليزيّة الأستاذ مهدي عزيز.

أمّا مؤلّفو المقالات الواردة في الكتاب فهم الأساتذة:

عبد المجيد الشرفي (تصدير)	Gerald Hawting (Foreword)
عبد الرحمن الحللي	Mehdi Azaiez (Introduction)
احميدة النيفر	
نادر الحمّامي	Andrew J. O'Connor
إيمان المخينيني	Thomas Hoffmann &
محمد بوهلال	Johanne Louise Christiansen
مقداد عرفة منسية	Michel Cuypers
	et Sami Larbes
	Jacqueline Chabbi
	Massimo Campanini
	Johanna Pink

الشركـــاء:

المجمع التونسي «بيت الحكمة»، IQSA, KULeuven, DeGruyter, UCLouvain

الرابط في عرض الكتـاب:

https://www.degruyter.com/document/isbn/9783111051567/html

تقديـــم كتـــــاب
"أخلاقيات العيش المشـترك"
للأستاذ فتحي التريكي

مهدي المبـروك(*)

التقديم المادي للكتاب :

صدر هذا الكتاب سنة 2018 عن الدار المتوسطية للنشر، متضمنا ما يناهز عن 188 صفحة. وقد توزع على تسعة فصول مترابطة تناولت عموما أسس العيش المشترك وأخلاقيّات الدّيموقراطيّة و ثقافة العيش المشترك والكرامة والضيافة والعيش معا في عصر ما بعد الحقيقة والسعادة والوجود. تمّ تصميمه بشكل بيداغوجي محكم حتّى كاد أن يكون دليل العيش معا أو ميثاق العيش معا. فالأثر الدّيداكتيكي بارز في هذا العمل وقد تجلّى في مواقع كثيرة على غرار ترتيب الفصول و ترابطها فضلا عن الإحالات العديدة و أساليب التّذكير لغير المختصّين...

لا يشير النصّ الى السّياقات المباشرة التي دفعت المؤلّف الى كتابته غير أنّنا في ثنايا النّص نعثر على بعض الإشارات خصوصا تلك الّتي وردت في المقدّمة والفصل الأوّل عموما، الّتي تشير الى صدى السّياق العام الذي عرفته البلاد خلال العشريّة الأخيرة مثل ما ورد في الصّفحة 17 من افتتاح المرحوم الباجي يوم 13 اوت 2017 مشروع قانون المساواة في الإرث، وإشارات عديدة أخرى تفيد « انتفاضة» 25 جويلية.... و الحوار الوطني.... طبعا لا يشير المؤلّف إلى الدّواعي المباشرة لتأليف عمل خاصّ بالعيش معا و لكن لا نصّ بلا سياق في اعتقادي يكون حافزا لانتقاء موضوع ما، ملهما وموجها لكلّ القضايا الّتي يتمّ تناولها عامّة. ومع ذلك فإنّ اهتمام الأستاذ فتحي التريكي يعود إلى أكثر من ذلك بكثير فلقد كانت كتاباته حول الفلسفة و العيش المشترك قد ظهرت لأوّل مرّة في بداية تسعينات القرن الفارط.

أولا : في دواعي تقديم الكتاب:

لماذا كان كتاب : أخلاقيات العيش المشتر لمؤلّفه الأستاذ فتحي التركي جديرا بالتقديم؟ أعتقد أنّ ثلا ثة اعتبارات من بين أخرى

(*) مجمعي وأستاذ علم الاجتماع بكلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس، وزير الثقافة بتونس سابقا.

عديدة قد تكون حثّتني على هذا التقديم :

مكانة الأستاذ فتحي التريكي في المشهد الفكري و الفلسفي تحديدا من خلال جهده العلمي وغزارة إنتاجه الّذي امتدّ على أكثر من نصف قرن وقدرته على تطويع المباحث الفلسفية لقضايا عربية و تونسية عموما فهو من الفلاسفة المنشغلين بالشيء العامّ/الشأن العام وقضاياه وهذا التقديم هو احتفاء مزدوج بشخصه و بعمله هذا. لم يظلّ الأستاذ فتحي التريكي في «برجه العاجي» بل خاض في قضايا العيش المشترك محافظا في كل ذلك على رصانة علمية و تجرّد أخلاقي كبير.

انتظاراتي على غرار انتظارات العديد من القرّاء فيما أعتقد من هذا المؤلّف خصوصا في ظلّ اللّبس الّذي أصاب «العيش معا» حتّى تمّ تبديد جلّ معانيه من فرط التّضخّم اللّفظي غير المنضبط علميّا للمصطلح /المفهوم ولا شكّ أن الاستفادة عظيمة خصوصا و قد يساهم هذا العمل في فتح منافذ أخرى لفهم معضلة التّحديث السياّسيّ و الدمقرطة في العالم العربيّ خارج السّرديّات المعلومة. فقد تجيب مسألة العيش معا عن هذه الأسئلة. إنّنا في بلدنا، وللأسف الشّديد، وعلى خلاف ما يفترض العيش معا، لا نحتفي في السّنوات الأخيرة بالمعا l'ensemble مع ما يقتضيه ذلك من الاحتفاء بالتعدّدية، الاختلاف، الاعتراف الخ. بل نحتفي بالتطابق والتماثل والشبيه بنا وممارسة الإقصاء لبعضنا البعض على قاعدة « أنه لا يشبهني» . طيف واسع من التونسيّين يتبرّمون بالمختلف عنهم من التونسيّين ذاتهم، وعموما يقف الباحث في مجال العلوم الاجتماعية تحديدا على اقتناعات واسعة تعاضدها ممارسات مختلفة تشي بضيق ورفض إقصاء التونسيّين لبعضهم البعض كما ذكرت لأنهم يختلفون معهم... في حين أنّهم يبدون مختلف أشكال الاحتفاء بالشبيه، النظير، المثيل. وهو أمر محيّر خصوصا وأن بعض «المثقّفين» قد ساهم في دعم هذا التوجّه. ولا يقتصر شبيهنا على الأشخاص بل يتمّ سحبه على الزّمن: زمن لا يشبهنا، تاريخ لا يشبهنا، واقع لا يشبهنا، يتمّ في كلّ ذلك التّلاعب بالمدركات و بناء صور متخيّلة عن شبيهنا و عن خلافه، يتمّ محو المختلف و صقل النّاتئ منه و لا يسلم ذلك من التّشويه والأمر نفسه يحدث مع مخالفنا أي ذاك الّذي لا يشبهنا.

ميزة هذا العمل أنّه يدلّنا على فضيلة المختلف والاحتفاء بالكثرة و التعدّد وفي جلّ الصّفحات يقف القارئ على هذا المعجم الثّري الدّال على المختلف (الغير، الآخر...).

ثانيا: محاور الكتاب و قضاياه الكبرى:

يتضمن الكتاب جملة من الأطروحات الهامة التي وردت مكثفة و مترابطة ببعضها البعض و لأسباب منهجية بحتة سيتم التركيز على ثلاث أطروحات أعدها جوهر العمل من وجهة نظري :

أ) في موجبات العيش معا و سياقاته:

وفيا إلى عادته الفلسفية يعود الأستاذ فتحي التريكي إلى البحث عن الجذور الفكريّة الّتي دفعت إلى تناول مسألة العيش المشترك؛ لذا يقوم بحفريّات عميقة في تاريخ الحداثة الفلسفيّ و السّياسيّ تحديدا لينتهي إلى أنّ أزمة الحداثة (ما بعد الحداثة، فائق الحداثة، الحداثة السائلة، فائض الحداثة...) قد دفعت الفلسفة وغيرها من المعارف إلى الانكباب على مساءلة العيش المشترك. فلقد أفضت الشّمولية السّياسيّة (العودة إلى حنّا أرندت) و هيمنة الخوف و الرّعب من أشكال التّسلطيّة المختلفة إلى البحث مجدّدا في العيش المشترك. لا شكّ أنّ الاهتمام المبكّر فسلفيّا بهذه المسألة يمنح الفلسفة القدرة على الإجابة عن هذه المعضلة : أفلاطون، ابن طفيل، الفارابي، هوبز، روسو. يمنحنا الأستاذ فتحي التريكي فرصة نادرة في متون فلسفيّة عميقة حاولت أن تلطّف الاجتماع الإنسانيّ وتجعله ممكنا تجنّبا لإمكانيّة جحيم العيش معا. و لا يغفل

التريكي أيضا حاجة مجتمعاتنا العربية وتحديدا المجتمع التونسي اليوم إلى العيش معا.

ب) علاقة الديموقراطية بالعيش معا :

لا شكّ أنّ ما شهدته البلاد خلال تجربة الانتقال الديموقراطي و مختلف عثراتها الحادّة: العنف، الإرهاب و الشعبوية الّتي تصاعد خطابها و تعبيراتها و قد خصّها المؤلّف بحيّز هامّ من التّحليل : العنصر الخامس(الشعبوية السّياسيّة) من الفصل الثامن : العيش معا في عصر ما بعد الحقيقة.... كانت مناخا ملهما للتفكير في العيش معا فضلا عن قضايا ليست محلّيّة ارتبطت بتحولّات مجتمعات الحداثة / ما بعد الحداثة يشير إليها الأستاذ فتحي التريكي في مواضع عديدة : تنامي القلق و المخاطر وهيمنة الاستهلاك وقيم السلعنة... يتناول المؤلّف مسألة العيش معا في هذه السّياقات العالميّة والوطنية التي تشهد كما أشرت نموّا لافتا لحالات العزلة و المخاطر و الانشاء الهوويّ و الشّعبويّات اليمينيّة و مظاهر الإقصاء والنزاعات المتعدّدة والعنف وقد خصّص المؤلّف تقريبا فصلا بأكلمه وهو الفصل الرّابع : العنف والاجتماعيّة (ص 81). فالعيش معا قد ينزلق في سياقات ما إلى «العيش معا العنيف» من فرط تنامي أشكال العنف المادّي و الرّمزيّ الّذي تسرّب إلى جميع مناحي الحياة و مختلف أنسجتها. يطرح المؤلّف السّؤال التّالي :ما علاقة العيش معا بالديموقراطية؟ يقرّ المؤلّف أوّلا أنّه قد لا تكون الدّيموقراطيّة الحاضنة الفضلى للعيش معا خصوصا حينما تبدأ سلسلة الأخطاء الفادحة حين يتمّ فكّ الارتباط بين الحكمة و الحكم وحين يتمّ هيمنة الإنتاج على السّلطة، عالم العمل على عالم السّياسة: الاستغلال و الفساد و الرّيع والسلعنة والاستعباد وفي الدّيموقراطيّة أيضا قد نعيش حالات من هيمنة الجماعة على الفرد والسّطو على حرّيّته و مصادرتها. لقد أمكن للمؤلّف من خلال هذه المقاربة مسك قرني الثّور الهائج وفق ايتيقا مصارعة الثيران: الديموقراطية و التعقل.

رغم هذه الإشارات يحرص المؤلّف على تخفيف علاقته بالأحداث والوقائع المباشرة حفاظا على تجريد خطابه الفلسفي حتّى يعبر قدر الإمكان الخصوصيّات المحلّيّة والسّياقة الضّيّقة طامحا إلى أرقى درجات الكونيّة والتّجريد. وهو منحى يكاد يكون قاعدة في التّقليد الفلسفي الفرنسي على خلاف الفلسفة الانقلوساكيونية التي لا يحرجها الارتباط مع الآني والحدثي.

ج) أسس العيش معا وأركانه:

منذ الصّفحات الأولى من المقدّمة يضعنا المؤلّف في سياق إشكالي يعود الى مساءلة ما نتوهّم أنها بديهيات خصوصا في ظلّ تمجيد مقولة الشّعب يريد، فإذا كان تمجيد الشّعب أمرا محمودا فإنّه يخفي نزعات خطيرة أحيانا قد تطمس الفرد و تؤلّه الشّعب ممّا يشيء بمناخات الشموليّة / التّسلّطيّة؛ فأقصى أشكال التّسلّط مورست باسم الديموقراطيّة الشّعبيّة كما لمّح المؤلّف في مقاطع عديدة: يشير الكاتب إلى التباسات « بعض العبارات» ولعلّ من أهمّها « الشّعب يريد» وحذّر ضمنياً من إمكانيّة استغلالها و توظيفها خشية « أن يؤدّي التّلاعب السّياسيّ بكلمة الشّعب إلى أقوى الدكتاتوريّات الّتي شهدها العالم المعاصر كالنازيّة والفاشيّة و البلشفيّة وغيرها» (ص12).

كما أنّه يشير في مواقع عديدة إلى الغموض الّذي لا زم لفظ الشّعب؛ لذا يحرص المؤلّف على العودة إلى الدّلالات اللّغوية القديمة و مختلف تحوّلاتها سواء الّتي تعلّقت باللّغة العربيّة أو باللّغة اللاّتينيّة و ما تناسل منها من لغات حديثة على غرار الفرنسية....

انتبه المؤلّف في هذا السّياق إلى معضلة ثنائيّة الكائن الإنساني: فهو فردانيّ متمرّد واجتماعيّ مستعدّ للعيش معا. لن يكون

مصدرا دائما لهذه النّزعات التّسلّطيّة الّتي تؤدّي إلى صعوبات العيش المشترك (ص 35).) وللقطع مع المآلات المخيفة يراهن المؤلّف على ثقافة العيش المشترك: أي القيم، والصّور والتّمثّلات والإدراكات الخ ذلك أنّ العيش المشترك ليس مجرّد تشريعات و معارف بل ايتيقا تحتفي بالكرامة و الضّيافة على نحو يستعيد فيه النّاس التآنس على أن يفهم اللّفظ وفق دلالة اللّفظ العربي كما أثبتته المعاجم، وهو معنى يضمّ إلى الاجتماع العقلانيّ والمتعقّل للإنسان الرغبة في اللّقاء والتّقاسم السّخيّ للخيرات والأفكار والصّداقة والضّيافة والانفتاح على الآخر....(ص 113).

خاتمة :

لا شكّ أنّ ثراء الكتاب و كثافته تجعل من تقديمه المقتضب مهمّة صعبة، و مع ذلك فإنّ الأطروحات الوارد ة به تظلّ على غاية الأهمّيّة لأنّها تسعى إلى الإجابة عن جملة من المعضلات النّظريّة الّتي رافقت في العقود الأخيرة أزمات الحداثة وإنهاك الدّيموقراطيّة في سياقات و تجارب عديدة كما تظلّ حاجة المجتمعات العربيّة إلى توطين العيش المشترك أكثر من ملحّة في ظلّ تفاقم أشكال الإقصاء والعنف و الفردانيّات المتورّمة ومخاطر الانشاء الهوويّ.

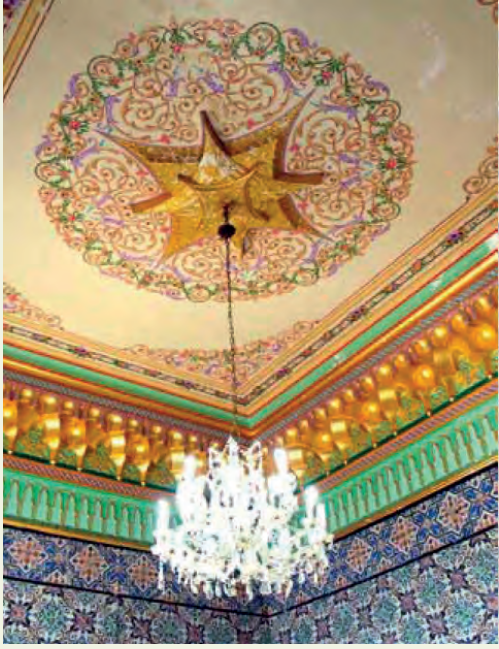

أخبار المجمع

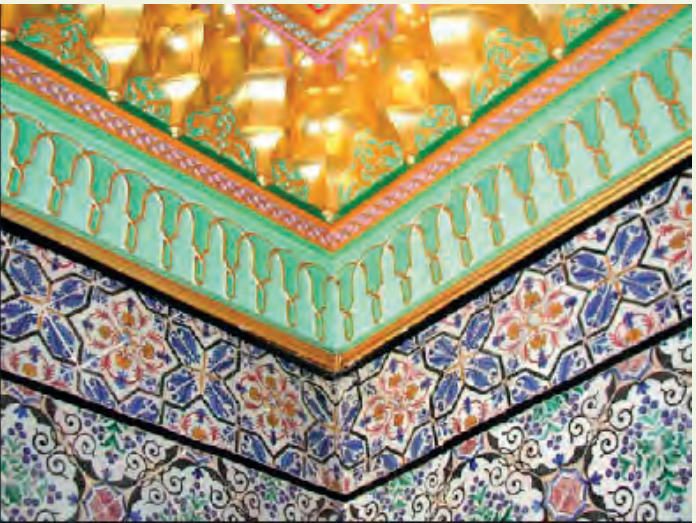

من أخبار قسم الفنــون

خصّص قسم الفنون موسمه الفارط 2023 – 2024 للتباحث في محور «تقاطع الفنون» ، وتمّ إجراء العديد من المحاضرات في الغرض ، وستتواصل إلى غاية شهر نوفمبر 2024 لتنتهي بخلاصة عامة تصوغ فيها الأستاذة رشيدة التريكي أهم الأفكار الواردة. كما تقرّر بالنسبة للسنة الأكاديمية القادمة 2024–2025 ، إحداث موسم للتباحث في مسألة «الفنان في المدينة» ، وهي فكرة طرحتها الكاتبة المسرحية والممثلة جليلة بكار ، وسيقع تنفيذ ذلك في شكل ورشة تفكير سيشارك في تأثيثها كل أعضاء القسم. كما سيتم دعوة عدة فنانين من ميادين متنوعة للتّعريف بأعمالهم وأساليبهم والتّعرف على رؤاهم الفنية. أما بالنسبة للمنشورات ، فسيصدر العدد الثاني من «حلقات بحث قسم الفنون» خلال شهر سبتمبر 2024 . وسيتم تهيئة العدد الثالث ليضم مداخلات المؤتمر الذي أقيم يومي 31 ماي و1 جوان 2024 حول «السطمبالي» . وستفرد محاضرات «تقاطع الفنون» بكتاب خاصة بها . كما سيتشارك قسم الفنون مع قسم العلوم في إعداد كتاب أعمال مؤتمر «الموسيقى وعلوم الأعصاب» الذي أقيم يومي 7 و8 مارس 2024 .

أنيس المؤدّب
رئيس قسم الفنون بالمجمع

من أخبار قسم الآداب

جائزة الشارقة لنقد الشعر العربي

أسندت للشاعر

المنصف الوهايبي

الأستاذ المنصف الوهايبي
مجمعي وشاعر وأستاذ متميّز
بكلّـيّة الآداب والعلوم الإنسانـيّة بجامعة سوسة

صورة لغلاف البحث
النائل للجائزة